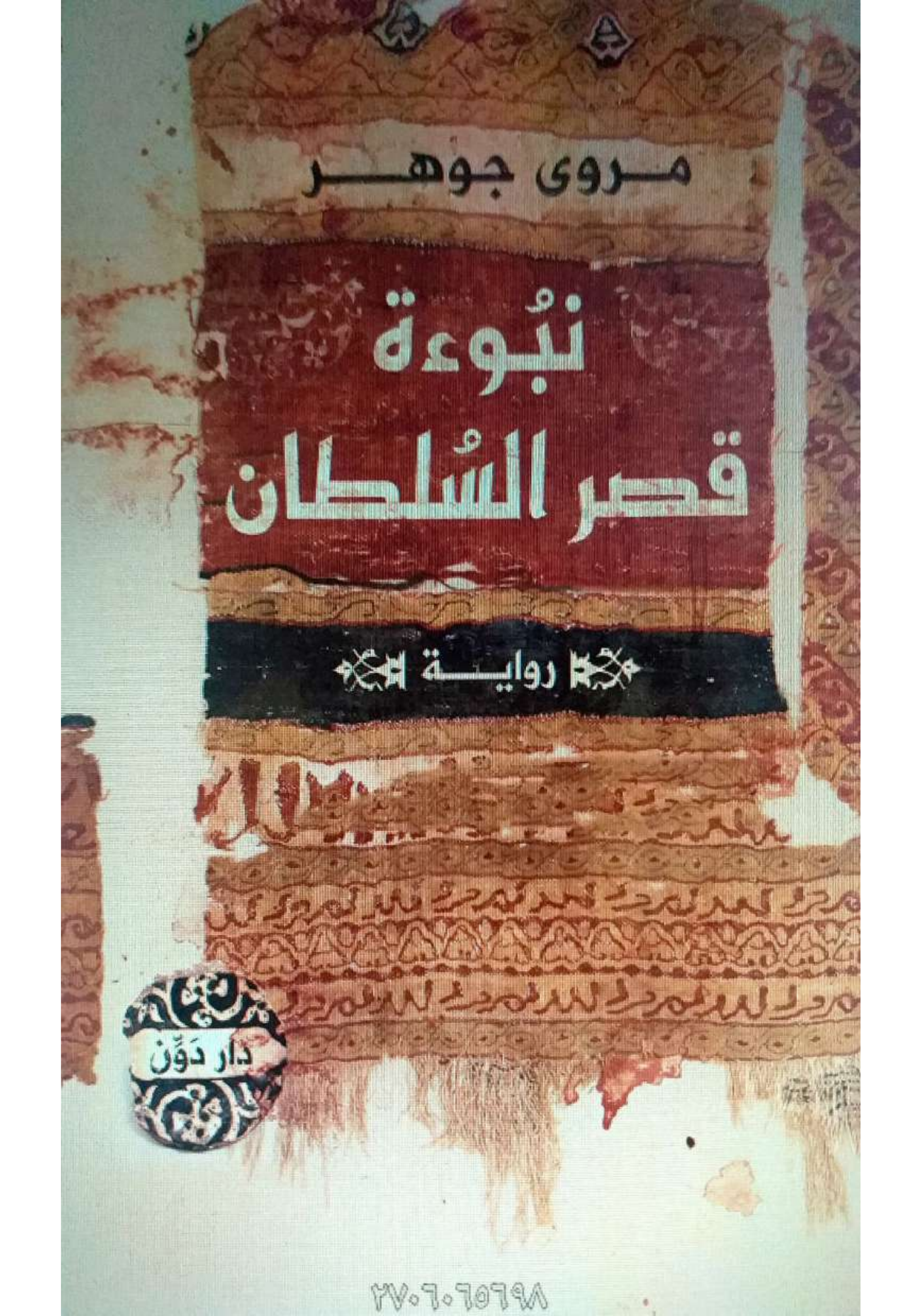

مروى جوهر
نبوءة
قصر السلطان
رواية
دار دَوِّن
٢٧٠٦٠٦٥٦٩٨

(دائمًا لا أعيش وقتي، إنما أنا راحل أبدًا

في الزمان حتى تتم رحلتي،

وتنغلق دائرتي، وساحات المساجد نقاط انطلاقي،

ومحطات وصولي أيضًا، أقف فوق موضع من الأرض،

فأسأل نفسي عمن مر فوقه، ومن عبره؟)

جمال الغيطاني

ليلة الثاني عشر من جمادى الآخرة ٧٦٢ هجريًا - ١٣٦١ ميلاديًا

رُبما وثقت أكثر مما يجب، رُبما تلاشت الذكريات وبهتت في رأسي فأسلمت نفسي لهم بعد كل ما جرى..

لا أحد يتعلم الدرس.. لكنني أتساءل هل هذا جزاء المعلم؟!

لا فائدة.. أسير إلى مصيري المحتوم بخطواتٍ ثابتة، دون أن أحيد عن الطريق المرسوم..

أحاول أن أسجل ما لاقيته لأكثر من ثلاثين عامًا، خلال سنوات عُمري التي عشتها على هذه الأرض.. ويَشهد القدير أنني حاولت قدر استطاعتي أن أبدّل الكراهية بالحب، وأن أستبدل الثوابت العقيمة، رُبما أكون قد أخطأت، فأنا بشر، لكنني أرضخ راضيًا بالمشيئة والحكمة الإلهية، أومِن أن ثمة عالمًا أفضل بانتظاري.

يقولون إنني لست بأعظم من أسلافي.. لكنني أعلم أن الحُب سيُخلد ذكراي إلى ما شاء الله أن يكون.

والآن يجب أن أنهي ذلك.. لأن لا شئ سيقبلونه سوى روحي..

"قماري"

***

الأول من يناير ٢٠٢٠ ميلاديًا - ١٤٤١ هجريًا

الأيام تمر كالثواني، الشهور ترمح كخيول السباق، وكأنني كنت أغط في حلم لأستيقظ اليوم متممًا عامي الثلاثين! فتحت عينيّ وأنا ألتقط أنفاسي بصعوبة كأنني اكتشفت للتو كل أحداث عمري الفائت، إنه يومي الأول في هذا البيت بعد غياب طويل، أتساءل كيف وصلت إلى هذا العمر، بينما أحدق في جدران الغرفة القاتمة فلا أرى سوى معالم حفظتها على مدار سنوات طفولتي، وضي خافت يتوارى خلف شباك قديم مُغلق ينتظر أن أفتحه فيعم النور بما يحمله هذا اليوم في وجهي.

أتذكر أيامي بين هذه الجدران التي احتوت أحلامي وشقائي، فلا تغفل ذاكرتي لقطات بعينها لمُناسبات عِدة، أشياء تجعلني أحلِّق لسابع سماء، أتذكر حبات مِسبحة جدتي الخضراء المُتوهجة، والتي لطالما أنارت ظلام هذه الغرفة في أوقات الفجر، أتذكر أيام نجاحي في المدرسة بعد الليالي الطويلة التي قضيتها في الاستذكار، كتلميذ مُجتهد، أتذكر كوني الأخ الأصغر المُدلل بين أخواتي البنات الأربعة، لكنني لم أعد الصغير المُدلل الآن، جعلتني المسئولية السند لهم ولجميع العائلة، أتذكر أيضًا أشياء تهبط بي لسابع أرض مثل رحيل جدتي المفاجئ، كنسمة خفيفة لم نشعر بها، ثم انطفاء وهج مسبحتها إلى الأبد، لقد ارتبطت روحي بهذا البيت لسنوات حقًّا.

لم أتوقع أن أستقبل هذا الصباح في بيتنا العتيق في "زقاق المستكفي"، زقاق صغير مُتفرع من شارع "ابن طولون" في "قلعة الكبش" أو "جبل يشكر"، والذي قام والدي برصفه كاملًا فجعله مُختلفًا.. يقع البيت على يمين الزقاق الصغير، وفي المقابل على اليسار قليلًا "مقهى كُنكُن"، الذي أعتبره وصفتي المُختصرة لموقع البيت، إضافة إلى محال متنوعة في مُقابلة الزقاق على يُمناه. أما البيت نفسه فيحوي عامودًا مُزخرفًا يكاد أن ينطق بالكثير، وعلى يمين البيت يتواجد مبنى قصير حديث بناه العم أسعد صديق أبي على حُطام أثر، يسد الزقاق ليُكمل الصورة التقليدية لتلك الأزقة، وأمامه بيت عتيق كانت بداخله حديقة صغيرة، ولكن حين أهمله أصحابه تهدَّم إلا من بوابة خشبية مُغلقة بقفل، حتى شجرته العملاقة فقد شاخت وتكسرت فوق حُطامه، واستخدم ورثته مساحته في عمل ملعب بلياردو وبلاي ستيشن وبينج بونج، كما أكملوا صورة الحُطام بوضع سيارتهم الخربة أمام بوابته من ناحية الشارع الضيق لتُعيق الطريق المؤدي للزقاق، أما على يسار المقهى فيوجد بيت أثري ذو طابع خاص للغاية.

أصوات شارع "ابن طولون" الضيق والأشبه بالحارة الطويلة لا تنقطع، فهي أصوات كافية لإيقاظ الأموات، تتداخل فيما بينها عدة طَرقات متتالية سريعة على أنبوب غاز، صوت العم

"ذكي" الحلاق ينادي على صبيه بعدما ملأ المحل دخان بخورعم سعد الذي أخذ حسنته ورحل، لدرجة أن رائحة البخور قد وصلت إلى غرفة نومي، كل هذه الأصوات إضافة إلى الكثير من باعة الروبابيكيا والخضار والفاكهة، وصوت تلاوة الشيخ "محمد رفعت" للقرآن التي تأتي دومًا من بيت عم "أسعد" المجاور لبيتي، وكذلك صوت العم "بهاء" الذي تجاوز الثمانين من عمره وهو يسعل بشدة، ثم يوبخ أطفال الشارع الأبرياء بيده المرتعشة أثناء لعبهم كرة القدم التي تسببت في سقوط أكياس الخبز والفول، كما يصلني سباب الأطفال لبعضهم البعض رغم أنني أحاول تجاوزه كي لا أضطر إلى مُغادرة الفراش وتعنيفهم كعادتي، ووسط كل هذا يعلو نباح الكلب العجوز "شيكو" بلا توقف بعدما ضايقه أحد الأولاد على الأغلب، مما يجعلني أتساءل عن سبب حب الناس لتربية الكلاب، وفجأة يأتيني صوت سعيد "القهوجي" وهو يصرخ في الأطفال لإبعادهم عن شيكو، تمامًا كما توقعت، يجري هذا الروتين اليومي للجيران تحت بيتي مُباشرة، ورغم أن هذه الأصوات لم تزعجني في طفولتي قط، إلا أنني لا أعلم كيف انتبهت إليها الآن فحسب؟!

أهداني أبي "أحمد" هذا البيت الذي ورثه عن جدي والمكوّن من طابق أرضي مُرتفع وطابق أول فقط، وذلك لتوفير الإيجار الذي يقتطع من دخلي الكثير في منطقة "الدقي"، لم يبخل أبي أو أجدادي في ترميمه ليبدو بحالة متماسكة، كانت جدتي تسكن بالطابق الأرضي وعائلتنا في الطابق العلوي قبل أن ينتقل أبي إلى بيت في إحدى البنايات الحديثة بحي شبرا بعد موت جدتي.

أخبرني أبي أن عائلتنا قد ورثت هذه الأرض منذ سنوات لا يعلم عددها إلا الله، وورثت معها وصية عدم بيع الأرض، ولذلك باءت كل عروض المُشترين بالفشل حتى أصبح بيتنا قطعة أثرية وسط أكوام من الحجر الحديث فاقد الخصوصية، يؤمن أبي أن لا شيء يبقى ولا شيء يفنى أيضًا، وأنا لا أفهم هذا التضاد!

يظل الحدث الأهم أنني انتقلت إلى هذا البيت رفقة أسرتي مؤخرًا، وذلك بعد أن اتخذت أهم قرار بحياتي، القرار الذي أدخل السعادة على قلبي وروحي وملأ حياتي الزوجية بكثير من المُشاكسات والمشاعر الباردة.

***

تدخل زوجتي "لقاء" الغرفة مُحاولة رسم ابتسامة مُصطنعة بعيون باهتة أعرفها جيدًا، بينما تحمل كعكة ميلادي، فأجيبها بابتسامة سريعة أكثر اصطناعًا، لكني أستقبل أصدق ابتسامتين في عمري الماضي والقادم، ابتسامتي صغيرتيّ "نور" و"آية"، ومرحهما الغامر الذي يبعث الحياة من جديد في روح اقتربت من الخفوت.

تفتح "لقاء" الستائر بعصبية واضحة وهي تحمل الكعكة، فأتذكر كيف أنها منذ قرار الاستقالة من عملي في أحد البنوك الاستثمارية دون استشارتها وهي لم تكفَّ عن العتاب والغضب، وأتساءلُ إذا كنتُ قد أخطأتُ في حقها بانخفاض دخلي مؤقتًا، لكني أرى أن هذا مصيري وأنني من يحدد وجهته، فأنا شخص مُولع بالتاريخ والتصوير، كما استطعت دمج هذا بذاك في جولات سياحية لمعالم مصر الأثرية، حتى تحولت من هاوٍ لمحترف، أسرد التاريخ وأوثقه بالصور، التي أصبحت مصدر رزقي وسعادتي، هذا ما أحب أن ترثه البنات عني في حقيقة الأمر.

تبدأ محاولاتهم في الغناء الذي لا أشعر بحرارته مثل كل عام..

سنة حلوة يا حكيم.. سنة حلوة يا حكيييم..

فأطفئ شمعتي الوحيدة وأحتضن بناتي، بينما تتمتم زوجتي بغير حماس..

- كل سنة وأنت طيب..

وقبل أن أرد المُعايدة أراها تمضي من أمامي وهي تقول في تأنيب:

- الفطور جاهز.. لقد اقترب موعد أذان الظهر.

منذ أن انتظمت "لقاء" في الصلاة باتت تلومني بشكل مستمر، وفي اللحظة ذاتها انتبهت إلى صوت نور التي قالت في حماس:

- لقد وعدتنا بحضور جولة معك وتناول الغداء بالخارج.

- وأنا عند وعدي.. هيا تجهزا بسرعة..

انطلقت الفتاتان وفي طريقهما إلى غرفتهما جاءني صوت لقاء وهي تصيح:

- لا تتركهما تخرجان من عتبة البيت إلا معك.. الكلب المسعور ينبح أمامه أغلب الوقت.

لم أجيبها لأنني أعلم أن هذا الكلب يخاف الاقتراب من البيت دومًا، كما أنني حاولت إقناعها من قبل أنه ليس مسعورًا، لكن هيئته ونباحه لا يساعدانني على ذلك، ولذا زفرت في ضيق وتغلبت على مشاعري، فقد سبق أن اتخذت قراري ألا أتشاجر مع أحد اليوم، وفي طريقي إلى الحمام كانت لقاء تقوم بأعمال منزلية ما بين غرفة الاستقبال التي تحتوي سفرة صغيرة وغرفة معيشة، وبين الغرفة الثانية والأخيرة المخصصة للبنات، ثم التفتت وقالت:

- العصفوران لم يتوقفا عن الزقزقة منذ أن وصلنا البارحة..

- وما المشكلة في ذلك؟

- أظنهما خائفين فالأنثى لا تخرج من بيتها الخشبي والذكر يقف أمامه كأنه يحميها! هلا سألت أحدهم عن ذلك السلوك؟

أومأت لها مُوافقًا، بينما أستمع إلى الأخبار المذاعة على إحدى القنوات المحلية:

"أبلغت وزارة الصحة في تايلند عن أول حالة مؤكدة للإصابة بفيروس كورونا المستجد (كوفيد ١٩) لشخص وافد من مدينة ووهان بإقليم هوباي في الصين" فتوقفت للحظات.. ثم انتبهت للخبر: "والحالة لامرأة صينية تبلغ من العمر واحدًا وستين عامًا، وهي من..."

لكن لقاء قاطعت الخبر مُعللة:

- لن أستطيع الحضور معكم، سأتبرع بالدم لمريض في المشفى التي يعمل بها أبي وأختي مايسة.

فنظرت إليها كشبح يشبه من أحببت ودخلت الحمام وأغلقت بابه ورائي، ثم وقفت أمام المرآة أغسل وجهي عدة مرات، حزين لما وصلت إليه؛ قصة حب تحاكت بها كلية الآثار، قصة الحب التي بدأت عندما خطفت لقاء عيني وقلبي منذ السنة الأولى بملامحها المصرية الأصيلة وشعرها الأسود الداكن الطويل، وعينيها المتمردتين ولون بشرتها الأسمر النادر، تجعلني أتساءل ماذا حدث للفتاة مُشتعلة الحماس التي أرادت أن تشاركني الحلم، إن عشقنا للتاريخ كان بداية حبنا وأساسها، كما كان حلمنا الكبير أن يعلم المصريون أسرار حضارتهم ونعبر بهم الأزمنة، كانت لقاء حالمة هادئة، لكنها تحولت بعد مرور سنوات على الزواج مثلها مثل كل قصة مُكررة أثقلتها الحياة بالكثير من الاختبارات، لتجعلني أعجز عن الإجابة عن سؤال هل حقًّا يصمد الحب في مواجهة الحياة؟ لقد ظننت أننا مختلفان.. لكني اليوم أشهر أنني أخطأت في الزواج بسن مُبكرة، لقد أصبحت زوجة تقليدية خالية من الأحلام، لا ترغب إلا بمزيد من المادة، تصيح بوجهي كلما رأتني: "هل ستدفع سيرة (محمد علي) مصاريف المدرسة؟! هل سيطعمنا الناصر محمد بن قلاوون ويدفع لنا الإيجار؟!"

وصلني صوت المؤذن من مسجد "أحمد بن طولون" وكأنه يؤذن داخل بيتي، فأنظر إلى وجهي في المرآة جيدًا، لا زلت أنا.. الشاب متوسط القامة النحيف، أصفر اللون كما يقول أصدقائي، عينان عسليتان انطفأت لمعتهما، وهذه اللحية الشقراء التي ربما تميز هذا الوجه عن بقية أفراد عائلتي في نهاية المطاف، ثم أتأمل هذا النمش المتناثر على بشرتي قبل أن ألمح بعض التجاعيد البسيطة التي تجمعت حول عيني..

عجيب إنني ما زلت شابًا لكن عمري ألف عام!!

الثاني عشر من رمضان - ٧٤٨ هجريًا - ١٣٤٧ ميلاديًا

جلس الأمير (يبيغا أروس) مع بعض الأمراء الكبار في قبة النصر تحت القلعة، حاملين الصمت والترقب كآلات للحرب، وكأنهم يُحدثون أصواتًا في الأفق، حتى قطع صمتهم أخيرًا سؤال أحد الأمراء قلقًا:

- "إن السلطان ليس بشخص هين.. هل تسرعنا قليلًا في موقفنا هذا؟"

فأجاب الأمير يبيغا سريعًا في حدة:

- "إن (المظفر حاجي(25)) سفاكٌ للدماء، قتل في سلطنته التي أتمت عامًا وثلاثة أشهر وثمانية عشر يومًا فقط جماعة كبيرة من الأمراء والمماليك السلطانية.. إنه يستخف بنا جميعًا".

بدأ النقاش بين الأمراء وآرائهم حول بطش السلطان، ودخل في دوامة من الحيرة والغضب الممزوجين بقلق، ليجيب أحدهم:

- "لكن تعنيف الأمير (جبغا) رئيس وزراء السلطان بالقلعة لم يكن بالأمر السليم، على كل حال أنا أثق بالأمير (شيخوا) فهو رسولنا ومن ذوي العقول الراجحة.."

فرد عليه آخر:

- "(جبغا) عنده من الحق ليفعل أكثر من ذلك، لقد اختل عقل السلطان بمنعه الأذان كي لا يُقلق الحمام خاصته! بجانب أنه أنفق من مال الدولة الكثير على بيوت الحمام الخشبية المُطعمة بالذهب!"

وهنا عقب أحد الأمراء غاضبًا:

- "مؤكد، وهل كان يجب أن ننتظر مقتلنا على يده، كما أرسل للأمير (جبغا) يقول: "إني قد ذبحت جميع ما عندي من الحمام، وأنا إن شاء الله تعالى سأذبح خياركم من الأمراء قريبًا، كما ذبحت الحمام!"

في تلك اللحظة وصل الأمير (شيخوا العمري) قاطبًا جبينه، وملامحه لا توحي بالخير، فقال له الأمير (يبيغا):

- "هات ما عندك.."

تحدث (شيخوا) بجدية:

- بعد أن بلغ السلطان موقفنا، أمر بشد الخيول، ودق طبول الحرب وزعق النفير، ثم نزل من القلعة، وسار عند السنجق السلطاني بصحبة مقدم المماليك، وبعض مماليك الجمدارية(24) الصغار، ولكن لم يكن معه أي من الأمراء أو مماليك السلطانية، فلما توجه إلى رأس الصُوفة وقف في انتظار أحدنا إلى أن طلعت له أنا، ولما حضرت بين يديه قال:

- "ما الذي ترغبون به كي تثوروا عليّ من غير موجب لذلك؟

قلت:

- " وما شأني أنا؟ هذا أمر من الأمراء الذين هم أكبر مني"

فقال:

- "امضِ إلى الأمراء وقل لهم ما هو مرادكم؟ وأخبرني بالجواب مهما كان"

انتفض (بيبغا أروس) من مكانه قائلًا:

- "امضِ إليه وقل له: القصد أن تخلع نفسك من السلطنة، وتدخل دور الحرم، وتصون دماء المسلمين، وتكُف القتال عنهم".

مضى (شيخوا) وهو يعلم النتيجة مُسبقًا، فما إن عاد بين يدي السلطان ثانية وأبلغه رسالة الأمراء حتى حنق عليه وقال:

- "كيف أخلع نفسي من السلطنة! ما لهم عندي إلا حد السيف".

فرجع (الأمير شيخوا) يؤكد للأمراء موقف (السلطان مظفر حاجي)، وما إن سمعوا الرسالة حتى رفعوا شارة الحرب وزحفوا ناحية السلطان.

تقدمهم (الامير بيبغا) حتى اقترب من السلطان وهجم عليه بمن معه من المماليك، الذين اشتموا رائحة الهزيمة فراحوا ينسحبون رويدًا رويدًا لينجوا بأرواحهم تاركين السلطان المظفر وحده مع عدد قليل من مماليكه الذين حاولوا مناصرته والدفاع عنه حتى وجّه له بيبغا ضربة قوية أوقعته من على فرسه، وعندها تكاثر عليه العسكر، وكشفوا عن رأسه من تحت العمامة السلطانية وأخذوه ماشيًا بعد أن تخلى عنه جميع مماليكه، وحينما أدرك أنه لا مفر من التوسل إلى الأمراء، قال راجيًا:

- "بالله لا تستعجلوا علي، اتركوني ساعة".

فقالوا له:

- "كيف استعجلت أنت على قتل الناس؟! لو صبرت عليهم لصبرنا عليك، تحسب نفسك شجاعًا بطلًا؟ بددت خزانة الدولة وصاحبت الأوباش وكنت السبب في الغلاء في مصر والشام، حتى أخوك (الملك الكامل شعبان) أمرت بخنقه، أنت الأسوأ سيرة بين إخوتك من السلاطين".

مشى (المظفر حاجي) معهم مذهولًا، يخبره عقله أن مماليكه ربما يقومون بخدعة لإنقاذه، لكن أحدًا لم يظهر! حتى توقف العسكر عند (نائب السلطنة الأمير أرقطاي)، فنظر إليه (المظفر حاجي) في تعالٍ وترقب، ليبادله (أرقطاي) النظر قبل أن يحيد بنظره ناحية الأمراء في أسف وينزل عن فرسه ليقول:

- "أعوذ بالله أن أقتل ابن أستاذي".

حينها قبض (الأمير بيبغا) على السلطان بعنف ومشى به وحده، فسار (المظفر حاجي) مسلوب الإرادة ينتظر المعجزة والانتقام، يفكر في ابتكار طريقة جديدة لإعدام (بيبغا) عند نجاته، يفكر أنه ربما سيظهر مماليكه الآن، سينقضّون على (بيبغا) لكنه سيوقفهم، وسيأخذه معه سجينًا حتى يبتدع طريقة لم تُخلق بعد لتعذيبه حتى الموت.

يمشي (المظفر حاجي) بين شعورَي الذهول في الحدث واليقين من النجاة، بينما تشتد عليه قبضة (بيبغا أروس) في غضب، فيتلفت (المظفر حاجي) من حوله وعقله يصيح في شجاعة: "من أتى بكم يا أولاد الأفاعي؟! أين المماليك السلطانية؟! هل تركوني حقًّا؟!"، لكن (بيبغا) ينظر أمامه وهو يعلم وجهته جيدًا.

يسترجع (المظفر حاجي) وحشيته في ذبح الحمام، أقرب الكائنات إلى قلبه، وأشد ما أحبت نفسه في الدنيا، لكنه أقوى من الحب وأقوى من العاطفة، لقد ذبح غِيته الكبرى، ليذبح معها بقايا أي شفقة بداخله، والآن يتخيل (بيبغا) تمامًا بين يديه كما الحمامة.. ينظر إلى رقبته ويبتسم في انتصار وهمي، يرى نفسه يقبض عليها ويمر بالسكين الحاد في تمهل، فتنطلق الصرخات وتسيل الدماء كالبركان حتى تغطي جسد (بيبغا)، وهنا تزيد ابتسامته اتساعًا، ثم يضحك ضحكات عالية مجنونة، لكنه يتوقف فجأة عن الضحك بعد أن لمح تربة مفتوحة أمامه في انتظار جسد تحتضنه إلى الأبد.

أخيرًا وقف (بيبغا أروس) وبجواره (المظفر حاجي) عند الباب المحروق! بينما انقبض قلبه وارتجف لكن (بيبغا) لم يمهله لحظات إضافية، وانقضّ عليه يخنقه بعنف وقوة، بينما ظل (المظفر حاجي) يقاوم الموت لكن كراهية (بيبغا) ودماء المماليك كانت أقوى من مقاومته، فيطبق (بيبغا) بكل قوته على حنجرة السلطان، حتى تضعف مقاومة الجسد السلطاني، وتتوه

الأنفاس وتضل طريقها إلى رئتيه، إلى أن جحظت العينان وكأنهما لا تصدقان ما تُلاقيه، ثم نفرت العروق مُغتاظة، وببطء عنيد استسلم الجسد إلى مصيره المحتوم، وتركه (بيبغا) يسقط في التربة قبل أن يُغلقها عليه نصف حي. وينتهي حكم السلطان المظفر حاجي.

***

الخامس من يناير ٢٠٢٠ ميلاديًا - ١٤٤١ هجريًا

أنا أعلم لماذا أثق في نفسي، لأن البشر استثنائيون، قادرون على بلوغ المستحيل، فقط إذا أرادوا، وأنا أريد أن أحقق أحلامي بشدة، وسأحققها.. سأغير وأتغير.

جلست بهذه الروح التي تلبستني منذ امتعاض "لقاء" الدائم على عملي، أثابر وأجتهد، وأعلم أن الطريق طويل وربما مظلم بعض الشيء، لكني لم أرَ نفسي إلا سائرًا في دروب المحروسة، أجوبها مُستكشفًا، أعشق تفاصيلها، أحزن لإهمالها، وأفرح لترميمها، وكأنها بيتي الخاص الذي أود أن أراه دائمًا نظيفًا ومُرتبًا، كُنت في مقهى "عم سيد" بالجمالية أحتسي الشاي في انتظار "عبد العزيز سيف الدين" الذي ندعوه بـ "زيزو" صديقي وزميلي في مهنتي الجديدة، وقد سبقت صدقاتنا صداقة مُعمرة لأجيال طويلة بين العائلتين، حتى إن عائلته تركوا مُقتنيات جدهم القديمة في بيتنا خوفًا من تلفها أثناء ترميم بيتهم في "باب البحر" منذ سنوات كثيرة ولم يستردوها إلى الآن، ولأسباب كتلك أعتبره أخًا كبيرًا لي، ليس لأنه يكبرني بسنوات، بل لأنه لم يخذلني قط خاصة عندما دخلت هذا المجال هاويًا وتحولت لمُحترف، فقد سبقني إليه منذ زمن، واليوم أخبرني زيزو أنه سينهي ندوته عن مشروعه "سيرة القاهرة" ثم سنلتقي في المساء.

بدأ الظلام يحل وأنا أراه آتيًا بخطواته السريعة رغم توسط قامته، وقد ضاقت عيناه الخضراوان تحت نظارته الطبية وتقلصت ملامحه غير المصرية لتواجه الهواء البارد، أغلق سترته وحك كفيه ببعضهما ليدفئهما، ثم صافحني وجلس قائلًا:

- كل عام وأنت طيب يا صديقي.

تشاركنا في حديثنا أخبار العمل، واستشرته في أمور عدة، لكنه أطفأ سيجارته ولمعت عيناه فقط عندما جاء عم سيد بالشطرنج، لقد كُنت بطل مقهى "كُنكُن" في الشطرنج، وامتدت شهرتي إلى أغلب المقاهي التي أجلس بها، لكني لم أمارسها كثيرًا منذ كثُرت مسئولياتي، إذ كُنت أستمتع باللعب والتفكير وتبادل أطراف الحديث، كما أنني أحب أن أكون في حضرة شخص قوي الملاحظة، سريع البديهة وذكي مثل زيزو، هذا بمثابة تدريب لعقلي بعد رتابة العمل كزوج بمهام محددة، وبعد أن شردت قليلًا في غضب لقاء سمعته يصيح:

- كِش ملك..

وفي اللحظة ذاتها وصلنا صوت دراجة نارية تقترب، حيث كان هاني مُمسكًا بعلبة يبدو أنها تحمل كعكة كبيرة، ولا أخطئ التعرف على هيئته حتى في الظلام، إذ كان طويل القامة، نحيلًا، حليق الرأس، هندامًا، ملامحه الدقيقة تشعرني أنه يهتم بالتفاصيل في كل شيء؛ لا

عجب إنه مُرمم آثار، احتضنني بحرارة ووضع العلبة على المنضدة، بينما كُنت في مزاج سيئ أحاول التغلب عليه، اقترب العم سيد صاحب المقهى وقال:

- لم أرَكم مجتمعين منذ فترة، هل سيأتي الأستاذ "عبد الرحمن كيدا" وأخته منى؟

فداعب زيزو لحيته البُنية اللون ونظر إلى الأرض وذهبت ابتسامته ثم أشعل سيجارة، أتعجب كيف تتشابه ردود أفعال البشر مهما اختلفت ملامحهم وأعمارهم، صاح هاني بعدها على الفور:

- براد شاي بالنعناع يا عم سيد..

ثم ربت زيزو على كتف هاني ونظر لي بفخر:

- بارك لهاني مرتين.. الأولى لأنه بات يرأس فريق الترميم في هيئة الآثار..

قاطعه هاني:

- والثانية لأنني أخيرًا سأفعلها وأتزوج..

قلت مُبتهجًا:

- ألف مبروك يا صديقي.

التفت لزيزو:

- عقبالك.

ضحك زيزو:

- بعد الشر.. كل ما أتمناه الآن النجاح لـ"مُبادرة سيرة القاهرة".. أن تأتي بثمارها وتحافظ على تراث العاصمة في ظل هذا العبث الذي نعيشه..

- جاء العم سيد بالشاي وما يلزم لتقطيع الكعكة، نظر إلينا هاني وهو يقطعها ويعطي كلًا منا نصيبه:

- لا تُجهد نفسك معه.. هل تسير الأمور بخير مع لقاء والبنات في بيت القلعة؟

حاولت أن أبدو طبيعيًا؛ حتى لا يفهمني زيزو كعادته:

- بخير، مر الانتقال بسلاسة، أظنها ستعتاد الأمر، تركتها تصيح في البنات وتطهو الطعام وهي غارقة في الأعمال المنزلية.

نظر إلى زيزو بذكاء وهو ينفث دخان سيجارته:

- كان الله في العون، الأطفال مسئولية كبيرة جدًا ورباط بين الزوجين للأبد.

ألمح ضوء هاتفي المحمول، إنها لقاء تتصل، فنظرت في ساعتي وقلت:

- على ذكر المسئولية.. سعدت بهذا الاحتفال ويجب أن أعود للبيت.

نظر زيزو إلى هاني وقال:

- هل ترى مستقبلك من الآن؟ المتزوجون ليس لهم من أمرهم شيئًا..

ضحكنا وودعتهم دون أن أعلم لماذا انتابني شعور سيئ! ها هو هاني يتزوج في منتصف الثلاثينيات، لماذا لم أفعل مثله وأنتظر حتى أحقق أحلامي قبل الزواج؟! لكني أدرك أن كل ما ألوم نفسي عليه الآن قد فات أوانه منذ زمن!

***

الرابع عشر من رمضان - ٧٤٨ هجريًا -١٣٤٧ ميلاديًا

رأيتها تجلس عند مشربية الحرملك، تنظر إلى قصزي الأميرين "يلبغا اليحياوي" و"ألطنبغا الماردينى"، سيدة بدينة فائقة الجمال، لا عروق لها ولا عظام، ناصعة البيضاء، تكسو الحمرة وجهها المستدير طوال الوقت، تمتلك عينين عسليتين واسعتين وأهدابًا طويلة، قسمات وجهها جذابة، تنسدل ضفيرتان سميكتان شديدتا السواد حتى خصرها السمين، تفوح منها رائحة عطرة دائمًا، لم يستطع الزمن رسم علاماته على وجهها، تبدو بعمر أصغر مما هي عليه في الحقيقة، لا أتذكر أنني رأيتها بغير هيئتها هذه أبدًا.

إنها مربية أبي "الناصر محمد بن قلاوون" وبعض إخوتي، ومربيتي التي أقدرها، هي "القهرمانة"، كبيرة الجواري، والمشرفة على جميع الأفراح والمناسبات السلطانية، امرأة قوية الشخصية وأهل للثقة، تستطيع أن تسيطر على من حولها بحكمة ودهاء، شأنها كبير في البلاط السلطاني، وكان أبي السلطان- رحمه الله- يبجلها لما رآه منها في محنه، ولحكمتها في التنبؤ بالمستقبل وفهم الحاضر فهمًا مختلفًا عن غيرها.. وكذلك جميعنا وجميع من بالقصر نبجلها، شيدت مسجدًا بجوار حكرها وسرعان ما تحول المكان إلى مكان عامر وصار بستانًا فبنى الناس حوله وسكنه الأمراء والأعيان، كما أن لها أملاكًا خاصة كثيرة؛ لذلك لا تتخلى عن مساعدة الناس وعن الصدقة، وهي من أسرة زوجة جدي "السلطان قلاوون" الثانية "أشلون خوند"، هي السيدة "جُلشانة" أو "الست حدق" أو "الست مِسكة الناصرية" كما أسماها المصريون؛ لأنها دائمًا ما تعطر أموال صدقاتها بالمِسك.

لم أرَ أجمل منها في سنوات عمري كلها، ولم أعرف حنان الأم إلا من خلالها، فبعد أن ماتت أمي الجارية الرومية "كِدا" وأنا لم أنطق بعد، ولا أتذكر حتى ملامحها، وبعد وفاة أبي السلطان "محمد بن قلاوون" وأنا بعمر السادسة، والذي كان أبًا حنونًا لكنه شديد المشغولية، أصبحت مربيتي "مِسكة" ملاذي الآمن الدائم من الدنيا، ربما أكثر من "خوند أردوكين" زوجة أبي التي ربتني والتي كانت أمًا عظيمة أيضًا، لكن تبقى وحدها مِسكة في قلبي خارج المنافسة.

اقتربت من ورائها ونظرت من الشرفة حيث تنظر، فلمحت دموعًا تسيل على وجنتيها، وعندما شعرت بي أخذت تمسحها بغطاء رأسها وتخفيها عني، فوجمتُ وربت على كتفها مستفسرًا:

- ماذا حدث؟

اعتدلت في جلستها تجاهي محاولة رسم ابتسامة قائلة:

- كُنت أتذكر الأمير يَلبغا اليحياوي الناصري والأمير ألطنبغا الماريديني، وأتذكر كيف كانت محبة أبيك السلطان لهما عظيمة، حتى إنه أمر ببناء هذين القصرين أمامه حتى يكونا في مقابلته فينظر إليهما من قلعة الجبل كما أفعل الآن.. أيام لن تعود.

ربت على كتفها مرة أخرى قائلًا:

- رحمة الله عليهم جميعًا.. لكن هذا ليس ما يشغل بالك..

نظرت لي في جدية وقالت:

- البلاد في وضع غير محمود، لم أشهد خلو العرش من سلطانه ليومين كاملين بعد مقتل أخيك المظفر حاجي.

كبس الغم على نفسي وتمتمت:

- رحمه الله ورحم أبي وأمي وإخوتي السلاطين جميعًا.

- وبارك فيك، الأمراء اختلفوا فيما بينهم ليومين من يتولى الحُكم..

- سمعت أنهم فاضلوا بيني وبين أخي حسين..

- واستقروا عليك وسيطلبونك بعد قليل لتنصيبك.

- ولماذا لم يختاروا حسين.. فهو يكبرني بعامين!

- تعلم أنه شديد البأس، صعب الخُلق.

- ألهذا تبكين؟! تخافين أن ألقى مصير المظفر حاجي وباقي إخوتي السلاطين؟!

- أخاف عليك من الحكم في هذه السن الصغيرة، فلم يسلم منه أعتى السلاطين..

- سمعت أبي يقول ذات يوم: "إنه لا يهاب الموت؛ لأنه لقاء الله، والله رحيم بعباده."

التفتت بكامل جسدها وأمسكت ذراعي وقالت في حسم:

- أريدك قويًا لا تأمن المماليك، وتذكر خيانتهم لأبيك ولبعضهم البعض، ولتأخذ العظة والاعتبار ممن سبق، ضع الله نُصب عينيك.

أصابتني كلماتها برهبة لم أختبرها من قبل، ثم قُلت في رجاء:

- سأفعل.. فقط ابقي بجانبي.

- صحيح لم تنجبك بطني، لكنك ابن فؤادي، وسأظل أرد الخير لأبيك رحمه الله، سأبقى ما

دمت حية، ولكن اعلم أن دوام الحال من المحال وليرعاك الله.

في تلك اللحظة دخلت "زبيدة"، إحدى أجمل الجواري وأقربهم لها، ثم وقفت على بُعد وانحنت وهي ترمقني بحذر قائلة:

- مجلس الخليفة والقضاة يطلبون رؤية سيدي قماري..

قاومت مِسكة دمعة تترقرق فقامت في خفة وقبلت رأسي قائلة:

- توكل على الله الحافظ..

خرجت من دور الحرم أتذكر كل مُرٍّ مَر وصار ذكرى، موت أبي.. صدمتي وصراخي، أمي التي تمنيت أن أراها، قتل إخوتي وكل ما قيل حول ذلك، ذكريات تلتف حول رقبتي، أفكار تتهافت من حولي وتشتت ذهني، خوف مِسكة عليّ، كل هذا يجعلني أتساءل: هل حان دوري؟!

ذهبت دون أن أعلم أهل أشعر بالسعادة أم الغم؟ أفكر فيما حدث ويحدث وسيحدث، لم يُفترض أن أكون هنا لتنصيبي سلطانًا، ماذا أعلم أنا من أمور السلطنة؟ ماذا سيفعلون بصبي ساذج لا يعلم حقيقة الأشياء.. وكيف يتصرف في الأمور، ظلت الأفكار تحاصرني حتى وصلت إلى باب الستارة.. وأنا موقنٌ أنه لابد أن أسلم أمري لله الآن.

رأيت الحاكم بأمر الله "أحمد بن المستكفي"، وقاضي القضاة الشافعي "عز الدين المقدسي"، وقاضي قضاة الحنفية "علاء الدين التركماني"، وقاضي قضاة المالكية "تاج الدين الأخناي"، وقاضي قضاة الحنابلة "تقي الدين" ابن قاضي القضاة "عز الدين عمر" حاضرين، حيث نظر البعض إليّ في شفقة والبعض الآخر ابتسم مُستبشرًا، لكنهم لم يتحدثوا إليّ وإنما نظروا إلى القاضي "شهاب الدين بن فضل الله العمري" كاتب السر الشريف، وعندما جلس اكتمل مجلس التنصيب.

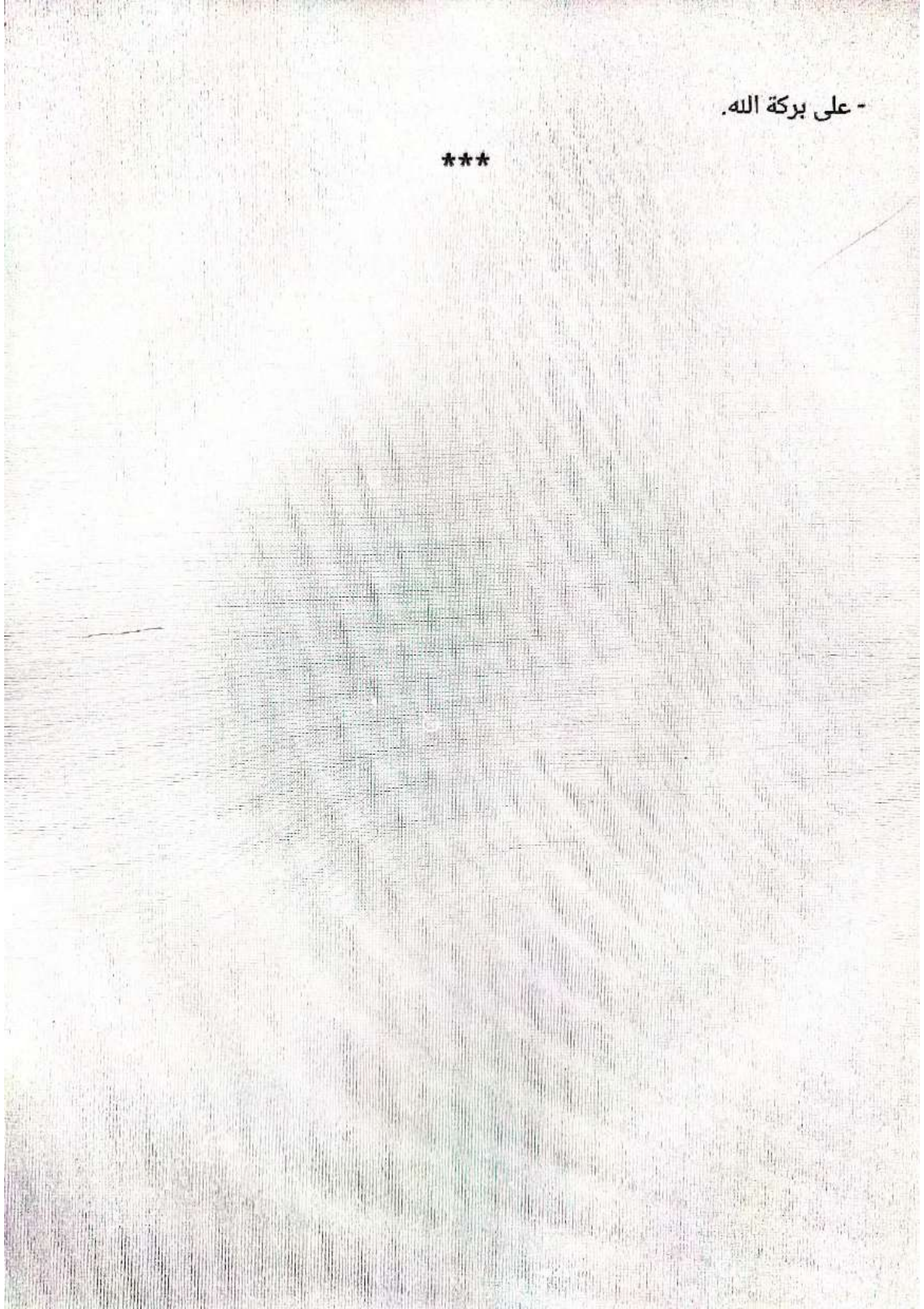
نظر إلى الخليفة قائلًا:

- سيدي بدر الدين قماري.. تعلم أننا نريد أن نُبايعك بالسلطنة.

للحظات شعرت بثبات وكأنني شاب يافع ولست صبيًا لا يملك سوى ثلاثة عشرعامًا، وبشموخ أعجبني قُلت:

- أنا ما اسمي قماري.. إنما اسمي سيدي "حسن"(23).

ضحك القُضاة ونظروا جميعًا لبعضهم البعض وقالوا:



- على بركة الله.

***

الرابع عشر من يناير ٢٠٢٠ ميلاديًا - ١٤٤١ هجريًا

منذ يوم عيد ميلادي في بداية هذه السنة وبداية سكننا في هذا البيت، تبيت لقاء في غرفة البنات، لم نعد نتشارك غرفتنا، لكنني ولأول مرة أشعر براحة في عزلة افتقدتها، وما زاد الأمر سوءًا بيننا أنني لم أذهب برفقتها إلى إكليل هاني، وتصنعت المرض لأنني لا أجيد تمثيل كوننا على ما يُرام أمام الناس، فذهبت بمفردها، وبالطبع قابلت زيزو الذي يعلم أنني لست بمريض، ورغم هذا فقد تجاهلتهم جميعًا ووجهت تركيزي نحو العمل.

استلقيت على سريري وشعرت بدفء لم أشعر به منذ زمن بعيد، عجيب شعوري بالدفء في ليلة باردة، ثم بدأت إشعارات "الفيسبوك" في التزايد؛ إذ اقترب العدد في مجموعة الجولة الأثرية القادمة من الاكتمال، فبدأت أجيب عن استفساراتهم.. أنا دائمًا ما أبدأ جولاتي في الصباح الباكر حتى الخامسة مساءً، حيث ألتقي بمجموعة جديدة وأنفاس جديدة تترك أثر أنفاسها على الحجر، في الأماكن، فالناس يمرون كل يوم بجانب الكثير من الأطلال في صمت، كُل مُنشغل بحياته، لكن الحجر ينادي من يحبه فقط، ينادي ويحكي، يضحك ويبكي، بل يأتنس بالوجود ولا يهاب العدم، بعد جولتي أنطلق لمقابلة أصدقائي في مقهى "عم سيد" في حي "الجمالية"، وأعود إلى روتين البيت رغمًا عني وقد ملأت روحي بما يعينها على التحمل حتى صباح اليوم التالي.

أخذت أتصفح أحد أجزاء كتاب "بدائع الزهور في وقائع الدهور" لابن إياس، ثم أتنقل إلى مواقع التواصل الاجتماعي، لم يتبقَّ إلا مكان واحد لرحلة الغد، وبينما أنا غارق في التفاصيل الروحية فيما أقرأه والاستفسارات المادية للمجموعة، انقطع النور.. وبقي الظلام، لكنه لم يكن ظلامًا عاديًا، فما حدث معي في ذلك اليوم لن أنساه أبدًا.

إذ انكشف غطاء بصري تدريجيًا عن مُجسم أسود هائل يقف بعيدًا، أبعد من حدود الغرفة بكثير، وكأنه طريق! أخذ يقترب بخطوات بطيئة، أدقِّق النظر قدر استطاعتي ولا أستطيع تحديد معالمه، حتى زال الدفء وحضرت برودة شديدة، ارتعشت يداي، فأردت أن أرى ماذا يحدث لكن هاتفي المحمول سقط من يدي، عبثًا حاولت أن أجده فلم أعثرعليه، رفعت رأسي أحاول تفسير ماهية هذا الظل، لكنني لم أرَ شيئًا.. ثم بدأت أدقق النظر وأرى أوضح قليلًا عندما تأقلمت عيناي مع الظلام.

حينها فوجئت بهذا المُجسم وقد تضخم وابتلع الغرفة كلها، اقترب أكثر وقد خُيل إليّ أنه سيبتلعني رغمًا عني، وفجأة شعرت بشيء لا أستطيع وصفه يطبق على صدري، شيء ثقيل تثقل معه أنفاسي، أريد أن أستغيث ولا أستطيع، الثِّقل يزداد ويرتفع من صدري لرقبتي، أريد

أن أصرخ أو أنطق فلا يطاوعني لساني! هل أصابني الخرس فجأة؟!

ظللت هكذا حتى أطبق الشيء على رقبتي واقترب، وسمعت صوتًا أجش في أذني يقول:

- "متى ستكفر؟ أنتظرك منذ زمن.. متى أراك معي؟ متى ستكفر؟"

تحشرج صوتي أكثر وسط ذهولي فأكمل هو:

- "لن تولد مرة ثانية.. الميت لا يُبعث من جديد".

عندها شهقت بصوت لم يصدر مني قط.. فتحت لقاء باب الغرفة بسرعة:

- حكيم.. هل أنت بخير؟

نظرت إليها فوجدت النور قد بدد الظلام وأنفاسي تتلاحق في سرعة لم تحدث لي من قبل، لاحظت اصفرار وجهها، قبل أن تغادر الغرفة مُسرعة وتعود حاملة كوبًا من الماء، فأمسكت يدي المُرتعشة بالكوب، لأبتلع رشفة سريعة وأغرق ملابسي بالباقي، مما جعل لقاء تنظر إلي في خوف وتسألني:

- ماذا حدث؟ هل كان كابوسًا؟

- نعم نعم كابوس.. ربما حين قُطع النور..

نظرت حولها في تلقائية وكأنها تتفحص المكان سريعًا وقالت:

- لم ينقطع النور من الأساس.. لقد كان كابوسًا فحسب.

نظرت إليها وقد باحت عيني بما لا أريد، ثم أشحت بوجهي عنها قائلًا:

- هيا.. أكملي نومك ولا تقلقي أنا بخير..

- لقد ورثت عادة الكتمان من أبي، إنها الجينات اللعينة، ولهذا تابعتني نظراتها في لوم وقالت في استسلام:

- على راحتك.. تصبح على خير..

- وأنتِ من أهل الخير.

أغلقت الباب من جديد، وبقيت في حالة من الهول والذهول، بين الحقيقة والخيال، هل كانت لقاء على حق عندما انفصلت عن هذيان التاريخ وانغمست في الواقع؟ لكن لماذا أظن أن ما حدث له علاقة بالتاريخ! التاريخ بريء من خرافات اليقظة.. على كل حال سأنام في نور الغرفة إذا استطعت إلى أن يأتي نور الله في الصباح.

مزيد من إشعارات مواقع التواصل الاجتماعي.. لقد اكتمل عدد جولة الغد ولابد أن أنام الآن..

لكني لم أستطع إراحة جفوني أبدًا.

***

العشرين من رمضان - ٧٤٨ هجريًا - ١٣٤٧ ميلاديًا

لم تهدأ "مِسكة" بعد أن بُويعت بالسلطنة، وإنما ظل بالها مؤرقًا مهمومًا، منشغلة بشيء لا أعلم ماهيته بعد، لكنني متيقن من مدى سوئه، وفي هذا اليوم كان دخان البخور الذي ينتشر من مبخرة نحاسية عظيمة الحجم وضعت في وسط الحرم كثيفًا للغاية، لدرجة أنني لم أستطع رؤية شيء، عبثًا أخذت أنفض الدخان من حولي، إلى أن سمعت صوتها قويًا..

إلهي.. لك نتضرع ونتبتل ونبتهل أن تملأ قلوبنا بمحبة حبيبنا وقرة أعيننا، من أنقذنا برحمته من جحيم البُعد عن حضرتك وأوصلنا بنوره إلى الإيمان بك.

بدأت أسعل وأنا أنفض البخور من حولي لتتضح الرؤية لكني سمعت صوتها يقترب مني وكذلك الدخان:

- "فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرًا إن هذا إلا ملك كريم".

- ست مسكة!

لم تعرني انتباهًا وبدأت أرى مبخرة بيدها تدور حول رأسي وهي تكمل بصوت مهيب تقشعر له الأبدان:

- يا جبار يا قهار يا منتقم يا شديد البطش يا حي يا قيوم يا علي يا عظيم..

لم يكن لدي وقت لما تفعله فرفعت صوتي وأنا أخبرها قائلًا:

- لابد أن أذهب الآن.. جئت لأطمئن عليكِ..

فنزلت إلى مستوى رأسي ونظرت في عيني جيدًا ثم أخرجت من صدرها لفافة بيضاء من القماش عُلقت في خيط سميك، وألبستني إياها حول رقبتي ثم أخفتها تحت ثيابي وقالت في جدية:

- لا تفارقها أبدًا.. إنني لا أرى الخير فيما هو قادم..

- ما هذا؟

فكرت أنها ربما رأت شيئًا لا تريد أن تخبرني به.. لكنني لم أكرر السؤال فأنا أعلم أنها ستخبرني في الوقت المناسب، كما أنني لا أريد إفساد أيامي الأولى كسلطان بالحيطة والحذر والخوف من المستقبل..

يكفيك الشر بإذن المولى.. لقد سهرت الليل بأكمله من أجله.. لا يغرنك مكر المماليك فهم

خداعون لا أمل في ولائهم الدائم، ولا يغرنك فرح المصريين فإنهم لا يحبون المماليك، إنما يخافون بطشهم، ولن تجتنب شرهم إلا بعدلك، سِر على درب أبيك.

قبلت رأسها غير مقتنع بكل ما قالت وابتسمت في امتنان، فأنا أثق بكل ما تفعله مِسكة كما وثق بها أبي.

لم تكن المرة الأولى التي أسمع منها هذا الكلام، لكني لا أستطيع ألا أثق بأحد على الإطلاق! أتذكر فواجع إخوتي واحدًا تلو الآخر، الحكايات عن معاناة والدي وتمرد "بيبرس" عليه وغدره به، لا أصدق أن الدنيا بحجم هذا السواد! لكني لا أستطيع أن أتجاهل ما قالته أيضًا في قرارة نفسي.

لبست شعار الملك من باب الستارة، وركبت من هناك حصاني، بينما أرى كبار الأمراء من أمامي، هذا الأمير "صرغتمش الناصري" ضخم البنية مليح الهيئة والصورة، لا أستطيع أن أخطئه بلحيته الشقراء وملامحه الصارمة وهو ينظر إلي في قوة، ويقف بجانبه الأمير "شيخوا العمري" الذي يبتسم لي في هدوء وقد تحلى بالثياب الفاخرة كعادته، بياض بشرته وسواد شعره ولحيته الفاحم يعطيانه وسامة تلفت الأنظار، أما الأميران بيبغا أروس ومنجك اليوسفي فقد وقفا جنبًا إلى جنب يتحدثان وقد شغلهما الحدث. ومشوا من بين يدي الأمراء بالشاش والقماش، حتى دخلت إلى القصر الكبير وجلست على سرير الملك، حينها قبلوا الأرض من أجلي وأقسموا بالولاء، واخترت لقب "الناصر" تيمنًا بوالدي العظيم الذي أتمنى أن أسير على دربه، ودقت البشائر بالقلعة ونودي باسمي "الناصر بدر الدين أبو المعالي الحسن بن محمد بن قلاوون الألفي" في القاهرة.

***

استعد المماليك بالشارات السلطانية والهدايا، وكان جوادي الأبيض ينتظرني، فامتطيت صهوته وأنا في فخر بملابسي الزاهية الألوان وعمامتي السوداء الكبيرة، وانطلق موكبي - موكب السلطان - يجوب القاهرة، رأيت خلاله المصريين فرحين، يدعون لي خلف المشرفيات حتى ملأت زغاريد النساء الأرض والسماء، بينما اصطف الرجال على جانبي الطرق يهللون ويدعون، والأطفال يمرحون في سعادة، كانت الأرض من تحتي والسماء من فوقي تضجان باسمي، حتى شعرت بصدق فرحتهم لكن باغتتني كلمات مِسكة فتعكر مزاجي قليلًا.

كُنت أرد تحية العامة في وقار لم أعهده في نفسي وأفكر في القرارات التي سأتخذها، لا أعتقد أن العامة يفكرون في قراراتهم، لا أظن أن لديهم قرارات من الأساس، لكني علمت من

بعض إخوتي أنه سيكون عليّ اتخاذ قرارات تؤثر على مستقبلي.. ربما تغيره، ولكن هل أستطيع أن أغير مستقبلي؟ لا أعلم، لست متأكدًا من هذا.

على كل حال سوف أعزل كثيرًا من الأمراء وأولّي الكثير أيضًا، سيخلف هذا أصدقاء موالون وأعداء جدد، لكني سأفرق الإقطاعات على المماليك السلطانية، وأرضي الجند بكل ما أملك لأضمن ولاءهم.

بقيت أفكر في كل شيء حتى وصل الموكب إلى شارع المعز لدين الله الفاطمي، وسمعت صوتًا قويًا يقول:

- لا إله إلا الله.. سبحانك يا مالك الفلك ولا ملك غيرك.

فشعرت برهبة والتفت لأراه لكني لم أجد أحدًا، وإنما وجدت الموكب قد بلغ إحدى دكك الرقيق، وهلت رؤيا العبيد والجواري من كل الألوان والأجناس، بينما يمسك بعض الناس بكتاب في يدها كدليل قبل الشراء، أعلم أن الكتاب يوضح كيفية تلاعب تجار الرقيق في بضاعتهم، ثم صدح صوت تاجر الرقيق ينادي على بضاعته:

- يا سيد.. ليس كل من استطال موزة ولا كل من استدار جوزة..

وأخذ يمدح في محاسن عبدٍ عبد وجاريةٍ جارية، فلما انتبه للموكب تراجع وانحنى وهو يقدم التحية، وحين تفقدتهم جميعًا لمحت فتى قصيرًا هزيل البنية، يقف في آخر صفوف العبيد بشجاعة، كان أقلهم حظًا من القوة وملاحة الهيئة، فوقفت أمامه لبرهة صغيرة، لأدرك كم أن عينيه حادتان تشعان ذكاء، ربما مكرًا مستترًا، ندبات وجهه تروي قصص العنف، التقت أعيننا للحظات هزتني من الداخل، قررت أن أشتريه من مالي الخاص، شعرت أنه مُختلف، ربما اتخذته صديقًا وضمنت ولاءه، لابد أن أسير على نهج أبي وأضمن ولاء مماليكي، لا أحب أن أعمم كلمات مسكة أينما ذهبت، ستكون حياتي جحيمًا، أخرجت كيس قطيفة ثمينًا مليئًا بالدنانير وألقيته لتاجر الرقيق، التقطه الرجل وانحنى في الحال وسمعته يردد الكثير من الأدعية..

أشرت إلى الفتى فتقدم في ثبات أعجبني فسألته:

- ما اسمك؟

- يلبغا العمري..

***

الخامس عشر من يناير ٢٠٢٠ ميلاديًا - ١٤٤١ هجريًا

طغت أصوات المطر على كل الأصوات إلا صوت عقلي، لم تفارقني صورة هذا الشيء الذي تسبب في ضياع النوم من عيني بالأمس، سؤاله عن الكُفر! قضيت الليل أفكر في سؤاله.. "متى ستكفر؟"، ثم أعدت حساباتي في هذه المسألة.. هل أنا حقًّا مؤمن؟ أنا أؤمن بوجود الله ورسله وملائكته، لكنني لا أحسب نفسي من السائرين على الدرب الصحيح، ولا أعلم متى سأجده، حتى إنني لا أسعى إليه، كانت لقاء تحدثني كثيرًا في هذا الأمر فأنفر منها، هل حدث ما حدث معي لابتعادي عن الله؟! لكن ما هذا الشيء؟! ولماذا أنا؟! هل كنت أهذي؟! كيف انقطع النور في غرفتي وحدها؟! لم أعتد السؤال في حياتي قدر اعتيادي الإجابة، لكني عجزت عن الجواب الآن.

لم تسألني لقاء في الصباح عن شيء، فقد بدلت ملابسي في هدوء ولم أتناول فطوري، وإنما كان الماء مطلبي الوحيد، فمنذ الأمس أشعر بجفاف في حلقي لا ترويه المياه مهما احتسيت منها.

وقفت عند مدخل الزقاق للحظات، أتأهب للخروج منه ومواجهة العالم، أستشعر برد الطقس الشتوي الذي أحبه قبل أن أبدأ يومي، أنظر إلى العامود الأثري على يساري، أتأمل زخارفه الفريدة والمُقرنصات(22) بأعلاه، وأتعمد الهروب من عقلي فأسبح بخيالي عن البناء المجهول، الفنان الذي لم يبخل بجهده على عامود أصبح في مدخل زقاق، المطر بدأ في الانسحاب وقد ترك آثاره في كل مكان، وخلف تلك الرائحة المميزة التي تجعل روحي تطير بعيدًا، وكأن المطر يُفرج عن أنفاس العابرين المسجونة داخل كل أثر حولي، وأتجاهل قذارة الأرض وطينها لأشبع نفسي بما أراه جميلًا فقط، خرجت من الزقاق، ليقابلني على اليسار في شارع "ابن طولون" مقهى "كُنكُن" وهو يستعد لاستقبال زبائن الصباح، يجلس "شيكو" في سلام بجانب المقهى بعد أن ملأ بطنه بفطور أعده سعيد، ويجلس العم بهاء أيضًا يتناول فطوره، حيث يرعاه سعيد لأنه يعيش وحيدًا بعد أن ماتت زوجته، وسافر ابنه الوحيد للعمل ولم يره أحد بعدها، يواسيه سعيد دائمًا بقوله: "الحياة تلاهى يا رجل يا بركة"، فيبتسم عم بهاء ودموعه ملء عينيه، يستقبلني سعيد كعادته مُبتسمًا مُقبلًا على الحياة:

- حكيم باشا.. صباح الخير..

أرفع يدي مُحييًا، بينما أفكر أحيانًا في هذا الشاب البسيط ذو الجسد النحيل والقوام القصير، الذي أظنه على قدر من الثقافة، إذ رأيته مُصادفة عند سور الأزبكية في معرض

الكتاب يبتاع الكتب، لطالما بدا لي سعيدًا كإسمه.. سرت متأثرًا في درب طفولتي السعيدة بحق، أنظر إلى الحارات الطيبة، والأبنية الأثرية المتهالكة بعيون أبدلتها السنوات، عيون تفتحت وأدركت أن الحياة رغم وسعها ضيقة، وأن الأمور ليست بالسهولة التي صدقناها في أفلام الرسوم المتحركة صغارًا.

الأفكار المتضاربة تصارعني، لأول مرة لا أستحضر التاريخ قُبيل جولتي الصباحية، لم أشعر بشيء إلا وأنا أقف عند مطلع القلعة، بينما كانت المجموعة في انتظاري لأول مرة منذ أن عملت بهذه المهنة، دائمًا ما أكون أول الحاضرين، لكني أشعر بالصداع بدأ يرمي شباكه على رأسي، فحييتهم وبعد حوارات متقطعة قصيرة بدأنا دخول القلعة، قبل أن يستوقفني أمين الشرطة الجديد في ريبة:

- بطاقتك..

أبحث في محفظتي عنها وعن كارنيه الآثار، فيراني أحد أفراد الأمن القدامى، ويحييني قائلًا:

- أهلًا حكيم باشا، تفضل.

شكرته بحرارة ومضيت مُنهك العقل والجسد، تحملني قدماي قدر استطاعتها وأنا أشكرها من كل قلبي، توالت الأسئلة أمام قصر الجوهرة وتوالت إجاباتي التي أحفظها عن ظهر قلب، ورأيت ومضات لكل ما حدث البارحة أمامي من جديد في لقطات سريعة، نفضتها عن رأسي لأتابع عملي، حتى وصلنا إلى مسجد "الناصر محمد بن قلاوون"، فالتفتت المجموعة حولي من جديد وبدأت أسرد في حماس:

- هنا تصميم معماري مختلف وفريد من العصر المملوكي، حاولوا أن تشعروا بالمكان، لقد وصلت مدة حكم الناصر محمد بن قلاوون لحوالي ثلاث وأربعين سنة، ونحن في القسم الجنوبي من القلعة، لاحظوا اختلاف أطوال الأعمدة وأشكالها، لقد عالجوا هذه الفروق كما ترون بوضع الأحجار تحت بعضها لتتساوى أطوالها، فالأعمدة غير متطابقة، هذا إسلامي.. هذا روماني.. أرأيتم هذا الصليب الواضح فوق هذا العامود؟ لقد جُلب من إحدى الكنائس.

سألتني إحدى الفتيات:

- وما هذه الرسمة على العامود؟

وقبل أن أجيبها جاءت طاقة كبيرة أزالت كل ما حولي ورأيت فارسَين في الظلام يدخلان القلعة في زي العربان قديمًا! التفت أحدهما إلى الآخر وقال: "سيدفعون الثمن يا

مولاي!" لكن الفارس وراءه انتبه لوجودي ونظرنا إلى بعضنا البعض ولاح عليه الذعر! أمسكت برأسي وأغمضت عيني ولما فتحتها نظرت إلى المجموعة وعاد الواقع، تعرقت وارتعشت يدي وأنا أشير إلى السيخ قائلًا:

- انظري لهذا الثقب أعلى المستطيل على اليمين.. كانوا يضعون فيه سيخًا وكلما مر الوقت استدلوا بانعكاس الشمس عليه وعلى هذه الرسوم فعرفوا مواقيت الصلاة، الشروق والغروب وهكذا، كان هذا المسجد الرسمي بالقلعة.. هنا صلى قاطنو القلعة من المماليك..

خرجنا من المسجد والمجموعة ما بين مُنبهر وآخر غير مبالٍ، ثم أشرت إلى أعلى:

تذكرون شكل الشُرفات من الداخل وكأن تصميمها لمسجد، انظروا إليها من الخارج الآن وكأنها قد بُنيت خصيصًا لحصن، هنا يأتي ذكاء "شاد العمائر" أو المهندس، الذي راعى أنه مسجد داخل قلعة، هناك كثير من البناة والمهندسين في هذا العصر الذين نجهل سيرتهم ولا نعلم عنهم شيئًا.. فقط اسم السلطان الآمر بالبناء، ولقد استخدم هذا المسجد كإسطبل خيل أيام الحملة الفرنسية على مصر، ثم كسجن ومخازن للجيش أثناء الاحتلال البريطاني مع الأسف..

الكثير من الأسئلة وأنا لا أمل الإجابة عنها، حتى أبلغ ختام الجولة:

نحن نتجه الآن إلى "باب السلسلة" أو "باب العزب"، وهو ما كان الباب الرئيسي للقلعة، وممر مذبحة المماليك..

توقفت وقد انقبض قلبي في ممر المذبحة:

- في الأول من مارس ١٢٢٦ هجرية ١٨١١ ميلادية، جهز محمد علي باشا حفلًا ضخمًا لتولي ابنه "أحمد طوسون باشا" قيادة الجيش الخارج إلى الحجاز للقضاء على حركة محمد بن عبد الوهاب في نجد، حيث دعا كبار الدولة وأعيانها وكبار الموظفين العسكريين والمدنيين وكبار المماليك لشهود الحفل، وعند تقليد الأمير طوسون القيادة سار الجميع خلف موكب الاحتفال، استدرك المماليك حينها إلى باب العزب وفتح عليهم جنود محمد علي وابلًا من الرصاص، لم ينجُ أحد منهم، فحتى من حاول الفرار لاحقته الجنود حتى ذبحوه..

نظرت إلى المباني وأنا أكاد أشتمّ دماء المذبحة وأكملت:

- هذا مسجد العزبان وهذه منازلهم، كل ما حولكم هنا غاص في دماء أكثر من خمسمائة مملوك، حتى الأسطورة التي تسرد نجاة المملوك "أمين بك" بفرسه عبر باب العزب غير معقولة إذ ترون ارتفاع الباب الآن، فهذا المملوك لم يدخل القلعة من الأساس، من المرجح أنه

سمع الرصاص والصرخات قبل أن يدخل ففر بنفسه إلى الشام..

سأل أحد المشاركين بالجولة بتعجب:

- كيف لشخص أن يقتل كل هذه الأنفس وينام هانئًا آخر الليل؟!

يقول المؤرخون: إنه أصيب بمرض "الزهايمر" في آخر أيامه ولم يتذكر شيئًا قط سوى موت ابنه طوسون، ومذبحة المماليك! حتى إنه كان يستيقظ فزعًا من نومه يصرخ تمامًا كما صرخ المماليك!

هنا شعرت بالصداع يشتد، وبدأت أنفاسي تضيق، أسمع صرخات كل مملوك على حدة.. صهيل الخيل.. أصوات الرصاص.. تأوهات النفوس، زهق الأرواح، هذا يجعلني أميل إلى تصديق هذياني بالأمس.. دائمًا ما تسيطر أحداث التاريخ على مشاعري حتى أكاد أعيشها حقيقة.

لكن هذا المجسم الضخم لم يكن له علاقة بالتاريخ.. بل بالكفر والإيمان! ربما بالمجهول.. من يدري؟

***

٧٤٨ هجريًا - ١٣٤٧ ميلاديًا

حدث ما كنت أخشاه، ويبدو أن كلمات مِسكة تتحقق شيئًا فشيئًا، وبدأت تنكشف الأمور تدريجيًا وأنا ألهث وراءها كي أفهم وحدي، أتساءل ماذا كنت سأفعل لو لم تكن مِسكة بجانبي، لقد سيطر الأمراء على الحكم وأداروه بالفعل، ماذا كان عليّ أن أفعل أكثر مما فعلته لأكون المُدبر الحقيقي لأمور السلطنة؟! أمرت بترقية الأمير "بيبغا أروس" فأصبح نائبًا للسلطنة عوضًا عن الأمير "أرقطاي"، ولأني لا أستطيع المجازفة معه أنعمت عليه وجعلته في "نيابة حلب" وهي أكبر من نيابة الشام، وأنعمت على الأمير "أرغون شاه" فجعلته في نيابة الشام"، وكنت كريمًا مع الأمير "منجك اليوسفي" فأنعمت عليه وتعين في الاستدارية العالية إضافة لما بيده من الوزارة، ومع ذلك لا أسلم من الأخوين "بيبغا أروس" و"منجك اليوسفي"! فهما يتصرفان في أمور الحكم ويضعاني في موقف العاجز أمام المصريين، وحتى أمام نفسي، من الواضح أن الأمر أكبر من أن أفهمه في عمري هذا، أتذكر ما شهدته مع أبي في طفولتي المدللة، لم أكن أدرك مستقبل ابن السلطان، ابن الناس، باختصار.. لم أكن أدرك حيل المماليك، وجشعهم، ومكائدهم، وغدرهم.

بناء على أوامري، ومكانتها في القصر، كانت مِسكة الوحيدة المسموح لها أن تراني بدون إذن، دخلت تحمل كوبًا من الحلبة والقلق يملأ عينيها.. أعطتني الكوب دون كلمات فقلت:

- الآن بدأت أفهم القليل مما ملأت به أذني..

- لم أقصد ملء أذنك.. بل عقلك ما أردت..

- لن يحبني المماليك لأنني لست مثلهم..

- هكذا نشأوا وتربوا.. ما يهمني ويشغل ذهني هو حمايتك.

- أعلم كل ألاعيبهم..

- لا تعلم شيئًا صدقني.. سيغدرون إن لم تكن حذرًا.

فاجأتني نبرة صوتها الهادئة الواثقة مما تقول، لا أعلم هل تلك نبوءة لديها أم مجرد خوف زائد عن الحد، فقصدت أن أبعد دفة الحديث عن ما تقول واسترسلت:

- المماليك لا ترى السلطان إلا مملوكًا تربى على القتال واعتنق القوة ونبذ الضعف؛ لذلك لا يكنّون لي الاحترام الكافي داخل أنفسهم، فالظلم في نظرهم أمر ضروري لبقاء القوة، يرون أن اللين والرحمة مع العامة ضعف، ويرون أن أبي السلطان الأعرج كما لقبه المصريون كان رحيمًا مع أولاد الناس.. صحيح؟

- لم يلتفتوا إلى عدله وذكائه ومحاربته الدائمة للفساد، لم يقروا بأن هذه الصفات كانت من أسباب بقائه في الحكم لثلاثة وأربعين عامًا، لذلك لا يحبذون توريث الحكم.

تبدلت ملامح مِسكة من القوة إلى الحيرة وبدت محملة بالهم والغم، استرسلت في حديثي:

- بدأت أعي نظرتهم لي الآن كابن ناس وليس كسلطان ابن سلطان وحفيد سلطان وأخ لسلاطين، لكنني أصر ألا ألقى مصير إخوتي أبدًا، لن أحتمل ما يفعله "منجك اليوسفي" بعد اليوم، وكيف أتحمله بعد أن أهدر أموال العامة والدولة؟!

- لا أظن أن منجك قصد ما فعله حقًا.. لقد تصرف بحماقة لمعالجة مشكلة النيل التي تدبه الأمراء فيها، مغرور لم يحسب حساباته جيدًا.

- لم يحسب شيئًا على الإطلاق، وإنما كان يشتري مراكب ويوثقها بالحجارة ويغرقها بعد انحسار النيل! فلما زاد منسوب النيل من جديد انقلب الجسر الذي صنعه فوق مياه النيل من الجيزة إلى المقياس، كما انقلب الجسر الثاني من الروضة إلى جزيرة أروى، ولم تفد الأربعمائة ألف دينار التي صرفها على عمارة الجسور في شيء.. غير أن الماء هجم على بولاق فسقط من ديارها عدة أماكن، أتعلمين عدد المظالم التي أتتني من جراء أفعاله؟

- مولاي.. لابد أن تهدأ لترى ماذا تفعل بحكمة..

- ماذا أفعل يا مِسكة؟ لن أستطيع رد الأموال والمظالم، أتعلمين أنه فرض على كل دكان بمصر درهمين فضة؟ وفرض على كل نخلة في البلاد درهمًا من الفضة من أجل بناء الجسور؟ ليتني أستطيع سجنه..

- لابد أن تفعل شيئًا ترضي به الناس..

كنت أقطع الغرفة ذهابًا وإيابًا وأشعر بحنق يُشعل رأسي.. وقلت لها بعد برهة صغيرة:

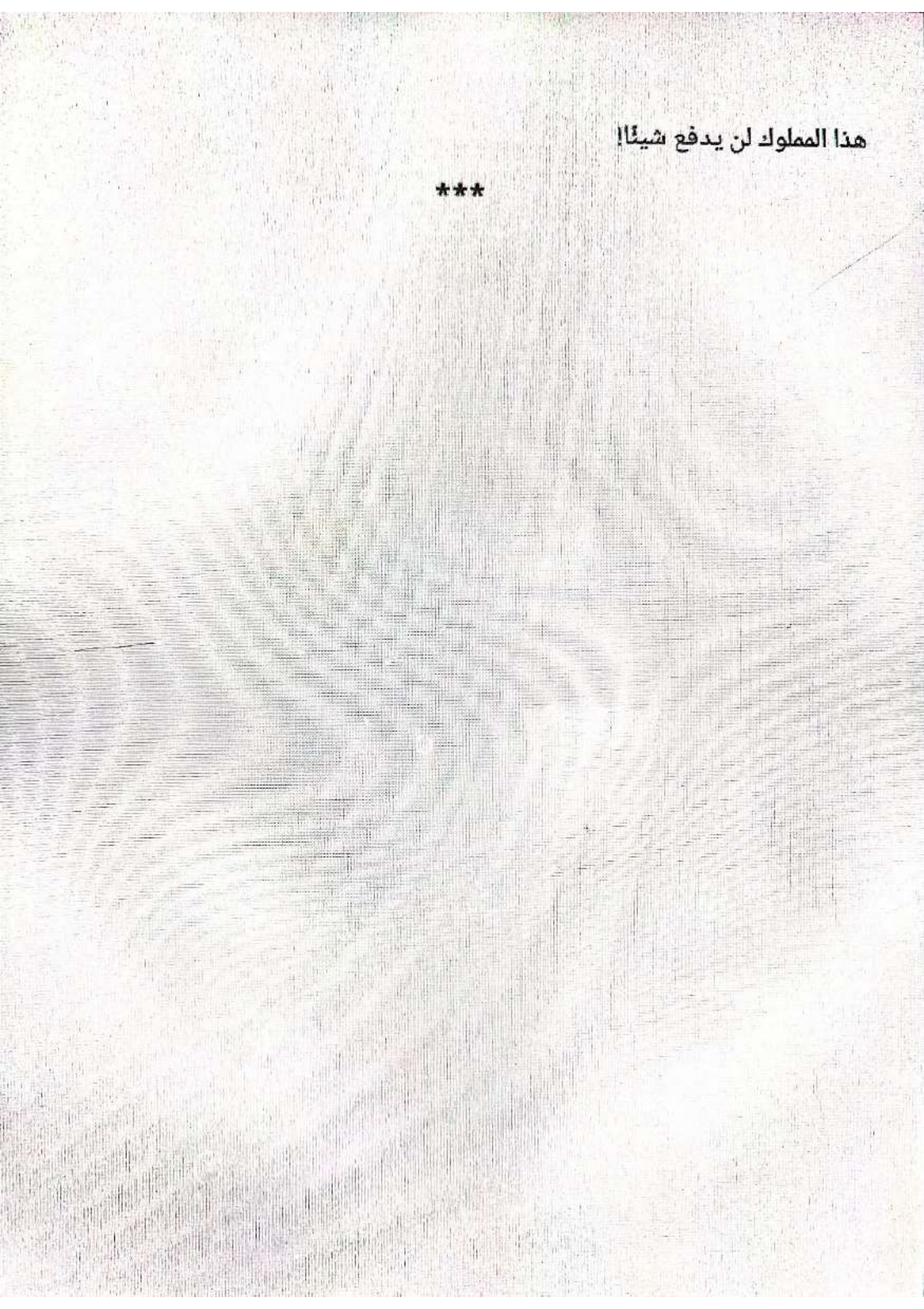
- سأصادر منجك وأعزله من الوزارة، وأقرر عليه مال المصريين حتى يدفعه.. لابد أن أرضي من وقع عليهم الظلم..

- حماك الله من كيد الأمراء.

لوحتُ بيدي في غضب قائلًا:

- سيدفع منجك كل درهم فرضه غصبًا على الناس.

صرفت مِسكة وجهها عني وانصرفت وهي تتمتم بصوت خافت سمعته بوضوح:



هذا المملوك لن يدفع شيئًا!

***

الثالث والعشرون من يناير ٢٠٢٠ ميلاديًا - ١٤٤١ هجريًا

أوقفت رنين المنبه عند الثامنة صباحًا، عندها سمعت صوت باب الشقة يفتح ويغلق، لابد أن لقاء عادت بعد أن أوصلت البنات إلى المدرسة، لقد أصبحت علاقاتنا أكثر جفاء، إذ نلقي تحية الصباح على مضض، كما تخبرني ببعض الأخبار الهامة الخاصة بالبنات إن صادفنا رؤية بعضنا في المساء، لدرجة أنني أصبحت أتلكأ بالخارج كي لا أعود إلى بيتي مبكرًا، لابد أنها ترتاح لعدم رجوعي أيضًا، أتحاشى التفكير في الانفصال الآن ولا أعلم إلى متى يستمر هذا الوضع، لكني سأتحمل فربما تعود المياه يومًا إلى مجراها كما تقول أمي.

لابد أن أستعد لجولتي اليوم في "مسجد ابن طولون" و"بيت الكريتلية"، جولة تكاد تكون في قلب بيتي، ستكون المجموعة جاهزة في الساعة العاشرة صباحًا، أمامي وقت كافٍ.

في طريقي إلى الحمام لمحت الفطور على المائدة، ثم ظهرت لقاء وقد بدت مريضة إلى حد كبير، تسعل وتعطس ثم قالت في وهن:

- اليوم سوف آخذ البنات من المدرسة وأمضي عطلة نهاية الأسبوع عند أمي، أحتاج إلى رعاية.

- ألف لا بأس عليكِ، تأخذين دواء؟

- بدأت اليوم أخذ أدوية البرد، لقد أعددت لك الطعام في الثلاجة..

- لا تحملي همي.. فلتستريحي هناك وتتعافي سريعًا..

لمحت نظرة مودة في عينيها وشعرنا ببعض للحظات فأردت أن أعاتبها، لكنني رأيت أن الظرف غير مناسب فأشحت بوجهي قائلًا:

- سوف أنهي جولتي وآخذ البنات من المدرسة إلى بيت حماتي، لا ترهقي نفسك.

أطالت نظرتها إليّ في امتنان وشعرت أنها تريد الحديث معي لكنها ابتسمت وغادرت البيت، ثم غادرته أنا في التاسعة والنصف، وقفت أمام المسجد في انتظار المجموعة شاردًا، ممتلئًا بمشاعر متضاربة لا تعرف مستقرها، ففي هذا الصباح تولّد عندي أمل أن تنصلح علاقتنا، وكأن مرضها أخبرني أنني لا زلت أخاف عليها، وإحساسي يقول إنها لا زالت تكترث لأمري، هل ما زلت أحب زوجتي بعد كل هذه السنوات؟! سيخبرني الوقت بكل شيء.

التقيت بالمجموعة مرحبًا وعبرنا البوابة الإلكترونية، وقفت أمام محراب المسجد أشرح

للمجموعة:

- منذ ألف ومائة وثمانٍ وسبعين سنة تأسس هذا المسجد، على مساحة ستة أفدنة ونصف، كما ترون مساحة ضخمة، بناه "أحمد بن طولون" مؤسس الدولة الطولونية على الطراز العباسي، طلب من المهندسين بناء جامع لا يحترق إذا احترقت المدينة، ولا يغرق إذا أغرق الفيضان المدينة، لذلك بُني فوق ربوة صخرية كانت تسمى "جبل يشكر"، الكثير من الأساطير الشعبية حوله، يقولون إن الله قد تجلى لسيدنا موسى هنا، وهو أمر مُستبعد بالطبع.

أخذنا ننتقل من مكان إلى آخر، انتهينا ودخلنا حديقة "بيت الكريتلية" فأشرت إليه مُوضحًا:

- في الأصل هما بيتان بينهما قنطرة تصلهما كما ترون، على اليمين بيت "محمد الجزار" وعلى اليسار بيت "آمنة بنت سالم"..

أكملت إلى أن دخلنا الصحن وتفرقت المجموعة يتأملون الجدران وما عليها، حتى ذهب أحدهم عند البئر فجمعت المجموعة عندها ووقفت أشرح:

- يُقال إن اسمه "بئر الوطاويط" وتقول الأساطير الشعبية إن من يريد أن يرى وجه حبيبته بدون برقع أو خمار، يأتي في الأيام المقمرة فيراه في هذا البئر، ومن الأساطير الظريفة أن "ثعبان طيب" كان يسكن هذا البيت، وفي يوم من الأيام وجد آثار تعذيب على أولاده أو وجدهم أمواتًا فأراد أن ينتقم من أهل البيت، فبث سمه في هذا الزير بجانب البئر، فلما جنح الليل سمع رجل البيت يوبخ أولاده الصغار على تعذيب الثعابين الصغار، فعلم الثعبان أن من فعل فعلته لا يدري من أمره شيئًا، عندها دخل في الزير والتف بكل قوته بالداخل كي يكسره فلا يشرب أهل البيت السم.

ابتسم البعض للقصة ولا زالت العيون تتجه للأعلى..

- لنصعد الآن ونبدأ ببيت "الجزار" الذي عاش فيه الضابط الإنجليزي "جاير أندرسون" ونرى ما فيه من تحف مُختلفة لا تقدر بثمن..

الساعة الواحدة ظهرًا انتهيت من جولتي، وقصدت مدرسة البنات لتوصيلهم لبيت جدتهم في مصر الجديدة، البرد قاسٍ والغيوم مُسيطرة، لن أمر على أيٍّ من المقاهي، أريد أن أختلي بنفسي.

دخلت البيت بينما أشعر أنني لا أنتمي إلى أي مكان إلا هنا، ولو في أرقى أحياء القاهرة،

تحممت ورأيت أن لقاء قد طهت حساء العدس الذي أحبه، فرحت رغمًا عني، وأحضرت طبقًا منه وزجاجة ماء، ثم نقلت التلفزيون إلى غرفة النوم، قبل أن أحوّل تليفوني المحمول إلى وضع الصامت، ثم أغلقت باب الغرفة وجلست تحت الغطاء أتنقل بين القنوات، دائمًا أستريح داخل الأماكن ذات الأبواب المغلقة، لا أحب الباب مواربًا.

مع حلول المساء اشتدت أصوات زخات المطر بالخارج، فأطفأت ضوء الغرفة وارتحت في جلستي واسترخت أطرافي، ولأول مرة منذ زمن بعيد أستمتع بمشاهدة التلفزيون والدفء والهدوء، لدرجة أنني لم أعد أراقب الوقت أو أتصفح مواقع التواصل الاجتماعي، أخذني فيلم "Ghost" إلى عالم آخر، فيلم لطيف قادر على ترفيهي بعض الوقت، كما غمرني حساء العدس بدفء مُباغت فشعرت بالنعاس لكن صوت صرير باب أفاقني، لماذا عادت لقاء؟ ناديت بصوت عالٍ متسائلًا:

- لقاء..

لم تجبني، كنت أعلم أن كل هذه الرفاهية لن تكتمل، وكأنها ليست من حقي ولو لليلة واحدة، لابد أن أمرًا ما قد حدث لتعود في مساء مُمطر كهذا، اضطررت أن أترك الدفء خلفي وأتفقدها خارج الغرفة، كان الظلام حالكًا، لم تشعل لقاء أيًّا من الأنوار! صوت صرير باب الغرفة، التفت حولي فوجدته يغلق بعنف! ناديت بارتياب..

- لقاء.. هل عدتِ؟

فجأة شعرت بأنفاسها في أذني وسمعت صوتها تهمس بنبرة غريبة:

- "إن الله يسمع ويرى"!

تلفت حولي.. كيف يسري صوتها في أذني إذا لم تكن بجانبي الآن؟! حاولت أن أنير غرفة الاستقبال لكن يبدو أن النور قد انقطع! نظرت إلى زجاج باب غرفتي وضوء التلفزيون وراءه! شعرت برجفة وتنميل في أطرافي عندما تذكرت هذا المُجسم الأسود.. كنت قد تناسيت الأمر، هذا البيت العتيق مريب! هل كانت لقاء على حق حين رفضت العيش هنا وجاءت على مضض؟!

وفجأة فُتح باب غرفة نومي وسمعت صريره من جديد وصوت لا أميزه يصدر من داخل الغرفة! بدأت أقترب منه إلى أن وقفت أمامه فانغلق بقوة في وجهي! بسملت وتعوذت هلعًا وأنا أتلفت حولي في الظلام، لكني رأيت من خلف زجاج باب الغرفة نورًا أحمر خافت ينبعث من داخلها، وسمعت صوتًا قويًّا يردد أدعية أو ربما كانت ابتهالات، الغريب أن الصوت مخيف ولا أستطيع تمييز الكلمات، لابد أنه التليفزيون، لابد أن أدخل الآن لا مفر من ذلك، أدرت

مقبض الباب في تأنٍ وفتحته فأصدر الصرير الذي سمعته منذ قليل، دخلت الغرفة فتوقف الصوت.. ووجدت التليفزيون مغلق!

بالقرب من النافذة كان مصدر النور الخافت، والذي ينبعث من الأرض، فاقتربت أكثر في الظلام ورجفتي تزداد كلما اقتربت منه، لابد أن أعلم ما يحدث في البيت، إنه بيتي وإرثي الوحيد.

عندما اقتربت ازداد النور توهجًا، إذ كانت هناك سبع شموع حمراء مُضاءة على الأرض في طست نحاسي! تسمرت في مكاني لما رأيتهم، لكن نورهم توهج أكثر حتى أصبحوا كلمبات مضيئة، وعاد صوت الأدعية أو الابتهالات المخيف من جديد بنبرة أقوى! يا ليتني بقيت في الظلام ولم أرَ ما رأيته، كانت سيدة تجلس أمامهم على الأرض في وضع القرفصاء، غطاء رأسها الطويل يتدلى إلى الأمام فلا يكشف عنها، تنطق بكلمات غير مفهومة على نغمة واحدة ويهتز جسدها كالدراويش إلى الأمام وإلى الخلف، لم أرَ إلا ظهرها، بجانبها مبخرة يتدفق منها دخان ملأ الغرفة، وأمامها طست نحاسي آخر به خليط بني اللون يشبه الحناء وبجانبه إبريق وأشياء أخرى لم أميزها، بدأت تنقل الشموع وتغرسهم في خليط الحناء ولا زالت تتمتم بكلمات غير مفهومة! اقتربت قدمي الحمقاء منها، فشعرت السيدة بخطواتي وتوقفت عما تفعله وتقوله، والتفتت للخلف في بطء فأخذت أتراجع في بطء، لكنها التفتت فجأة فانتابني الفزع وصرخت، كان لها وجه شاحب غاضب مخيف، وأنا أرتعش أمامها وأبسمل، فصرخت في وجهي في حنق:

- لماذا جئت الآن؟! هل أتممت مهمتك؟!

وقعت مغشيًا علي، وبعد برهة من الزمن أفقت على شهقة عظيمة وكأنني طفل صغير راوده كابوس، ضوء التليفزيون كان كافيًا لأشرب قليلًا من الماء، كان بطل الفيلم قد أدرك أنه ميت وسيذهب إلى الجنة، بعد أن علقت روحه في الدنيا بعد مقتله، كان مشهدًا أقرب إلى أفلام الرسوم المتحركة وهو يودع زوجته أخذت أجفف جبيني وقد غرقت في عرقي.. الحمد لله أنه كابوس فحسب.

لكنني في نفس اللحظة رأيت نور الشموع الحمراء وطيف السيدة خارج الغرفة عبر بابها الزجاجي!

***

٧٤٩ هجريًا - نهاية الخريف - ١٣٤٨ ميلاديًا

الوباء..

استند التاجر الرومي على مقعد جانبي في مركب آتٍ من "بلاد الروم" يمتلئ بالتجار، ينظر إلى الأمواج المتلاحقة، ويسرح بخياله بعيدًا عن الدنيا، لطالما شهدت هذه الأمواج على قصة حب تمنى تتويجها بالاستقرار، وها هي الأمواج تقربه من أمنيته وأحلامه، يترك الأمواج تتلاقى وتبتعد ثم ينظر إلى السماء كأنه يختبرها، الجو مشمس مُنعش لكنه لا يشعر بشيء، رُبما كانت آثار الزكام الذي يلازمه منذ البارحة، لكنه الآن يعاني من ألم لعين في ازدياد سريع، يضع كفه فوق ملابسه بتلقائية، وتتحسس أنامله مكان الألم تحت إبطه، ويستشعر زائدة مؤلمة، يبدو أنه دمل كبير، لم يُبالِ، حاول أن يتجاهله حينما لاح مرفأ الإسكندرية لعينيه في الأفق، تناسى كل شيء وابتسم ابتسامة واسعة وصاح بعربية فصحى ركيكة:

- غدًا أتزوج حبيبتي..

نظر إليه البعض في لا مبالاة، وضحك البعض الآخر، لكن صوت أحد الصيادين اقترب منه صائحًا:

- مُبارك إن شاء الله..

عطس الرومي ثم أخرج منديل قماش كبيرًا أبيض من جيبه فرشح فيه وأبقاه في يده، وقال بلكنته الفرنجية:

- هل ستحضر العُرس؟

- ليتني أستطيع.. سأقضي أموري وأسافر باكرًا إلى دمياط..

شرد الرومي يفكر في حبيبته التي هجر "البندقية" بلده وأهله وحياته لأجل عينيها، يُمني نفسه بالعيش معها، ثم ظل يفكر في مصر، كيف سيعيش فيها؟ يرى هذا البلد كنسيج قادر على ابتلاع كل الثقافات بداخله، دون أن يترك أثرًا لهم، لقد مر أقل من عام حينما دخلها لأول مرة، وها هو يتحدث العربية المصرية الآن، أما لغته فحاول عبثًا أن يُدمجها في حديثه دون فائدة، فالمصريون شعب يختلف عن شعوب الأرض، شعب يصهر كل ما حوله في عُمق مصريته، وهذا ما أحبه الرومي في هذا البلد.

نظر الصياد إلى الرومي المُتأمل في اللاشيء قائلًا:

- صحيح.. يقولون إن الشرب من ماء النيل يُنسي الغريب وطنه..

اقتربت المركب من الميناء، بعد أن كتب له الله النجاة من غدر أمواج البحر المتوسط، نظر خلفه مرة أخيرة وكأنه يودع ماضيه مُتجاهلًا كل شيء، ويستعد لاستقبال مستقبل مشرق جنبًا إلى جنب مع رفيقة عمره القادم.

انطلق خارج المركب بعد أن تفرق الأصحاب والأغراب، لا زال الأمل يعبث بعقله وقلبه معًا، لا يُصدق اقتراب حلمه من الحقيقة، يؤمن أن الصدق مفتاح كل عسير، وهو صادق في حبه ولا شك يخالجه.

كانت خطواته أقرب لوثبات فرِحة، وثبات قلبه للمحبوبة، لكن ما يثقل عليه رحلته الشاقة الطويلة لم تكن الهدايا التي يحملها، وإنما الألم العجيب الذي يزداد تحت إبطه بسرعة لم يتوقعها، وعندما تحسس الدمل تحت إبطه وقد اشتد سعاله فوجد حجمه قد تضخم! ورغم أنه حاول تجاهله مرة ثانية، لكنه أحس بسخونة مُباغتة تملأ جسده، فبدأ يمسح عرقه، وقرر أن يمر على "بيمارستان قلاوون"، ثم فكر أنه لا داعي لذلك، وأنه ربما يحل الموقف أحد العطارين بخلطة سحرية تداوي هذا الدمل الغبي، وبالتالي تُحل مُشكلة الحرارة السخيفة التي ارتفعت قبل فرحته بساعات قليلة!

وصل لغايته أخيرًا، ثم وقف أمام بيت خطيبته ينظر للمشربية القريبة أعلاه، التي تخيل نفسه ينظر منها إلى العالم الجديد في المستقبل القريب، وقف يحاول رسم ابتسامة لا تقبل رسمها على وجهه، لكن قبل أن يصعد للقاء محبوبته أخذ يسعل ويسعل دون توقف، إلى أن بصق دمًا في منديله فأخذ ينظر له فزعًا، ألقى الهدايا بيده المرتعشة على الأرض، فارتمى منديله المغطى بالدم معهم، وقبل أن ينحني ليلتقطهم، أحس ببرودة تسري في أوصاله، وكأنها تصعد من أخمص قدميه إلى رأسه، بدأت أطرافه في تشنج لم يختبره من قبل حتى تملكه خوف شديد، تحسس إبطه مصدر الألم المُتزايد فصاح صيحة عظيمة أثارت ذعر المارة فتجمعوا حوله سريعًا، ووسط نظراته الهلعة وألمه الشديد جحظت عيناه وسقط ميتًا في ثوانٍ معدودة.

***

اقتربت المركب من الميناء، بعد أن كتب له الله النجاة من غدر أمواج البحر المتوسط، نظر خلفه مرة أخيرة وكأنه يودع ماضيه متجاهلًا كل شيء، ويستعد لاستقبال مستقبل مشرق جنبًا إلى جنب مع رفيقة عمره القادم.

انطلق خارج المركب بعد أن تفرق الأصحاب والأغراب، لا زال الأمل يعبث بعقله وقلبه معًا، لا يُصدق اقتراب حلمه من الحقيقة، يؤمن أن الصدق مفتاح كل عسير، وهو صادق في حبه ولا شك يخالجه.

كانت خطواته أقرب لوثبات فرحة، وثبات قلبه للمحبوبة، لكن ما يثقل عليه رحلته الشاقة الطويلة لم تكن الهدايا التي يحملها، وإنما الألم العجيب الذي يزداد تحت إبطه بسرعة لم يتوقعها، وعندما تحسس الدمل تحت إبطه وقد اشتد سعاله فوجد حجمه قد تضخم! ورغم أنه حاول تجاهله مرة ثانية، لكنه أحس بسخونة مُباغتة تملأ جسده، فبدأ يمسح عرقه، وقرر أن يمر على "بيمارستان قلاوون"، ثم فكر أنه لا داعي لذلك، وأنه ربما يحل الموقف أحد العطارين بخلطة سحرية تداوي هذا الدمل الغبي، وبالتالي تُحل مُشكلة الحرارة السخيفة التي ارتفعت قبل فرحته بساعات قليلة!

وصل لغايته أخيرًا، ثم وقف أمام بيت خطيبته ينظر للمشربية القريبة أعلاه، التي تخيل نفسه ينظر منها إلى العالم الجديد في المستقبل القريب، وقف يحاول رسم ابتسامة لا تقبل رسمها على وجهه، لكن قبل أن يصعد للقاء محبوبته أخذ يسعل ويسعل دون توقف، إلى أن بصق دمًا في منديله فأخذ ينظر له فزعًا، ألقى الهدايا بيده المرتعشة على الأرض، فارتمى منديله المغطى بالدم معهم، وقبل أن ينحني ليلتقطهم، أحس ببرودة تسري في أوصاله، وكأنها تصعد من أخمص قدميه إلى رأسه، بدأت أطرافه في تشنج لم يختبره من قبل حتى تملكه خوف شديد، تحسس إبطه مصدر الألم المُتزايد فصاح صيحة عظيمة أثارت ذعر المارة فتجمعوا حوله سريعًا، ووسط نظراته الهلعة وألمه الشديد جحظت عيناه وسقط ميتًا في ثوانٍ معدودة.

***

الرابع عشر من فبراير ٢٠٢٠ ميلاديًا - ١٤٤١ هجريًا

انتهيت من صلاة الجمعة بمسجد "ابن طولون"، فشعرت بسلام وطمأنينة أفتقدهما، ورغم أنني أحاول بعد كل جمعة أن أواظب على صلواتي إلا أنني لا أستطيع.. وعلى مدخل الزقاق جلست في مقهى "كُنكُن" وصوت قرقعات لعبة "الدومينو" من الداخل تصك أذني، أخذت أفكر في تدهور حالتها الصحية وإصابتها بالتهاب رئوي حاد، ونقلها ودخولها غرفة العناية المركزة لعدة أيام، لم يحدد الأطباء نوع الفيروس الذي هاجم رئتيها، وإنما قالوا إننا يجب أن نعقم أيدينا لأنه مُعدٍ، كما أن والدة لقاء أصرت أن تكمل علاجها عندها، فأصبحت أزورها كل عدة أيام.

ثم اعتادت الحياة بدوني رغم تحسن حالتها الصحية، واعتدت أنا على غيابها، وتذكرت كيف كانت أمي تنصح أخواتي البنات بعدم ترك بيت الزوجية؛ لئلا يتعود الزوج على غياب زوجته، للتعود قوة لا أستطيع تجاهلها، لدرجة أنني أطعن أحيانًا في حقيقة شعور الحب بين الطرفين، ربما كان تعودًا، عِشرة، أو احتياجًا وليس حبًا كما نظن، ومع ذلك لا أنكر أنني ما زلت طفلًا بهيئة رجل، ولا أعلم إلى متى ستمتد هذه الطفولة؟ فالحقيقة أنني أستمد من زوجتي الشعور بالأمان، وتظن هي العكس وأنا لا أصحح لها ما تظنه!

جاء سعيد بالسحلب المخصوص، فشكرته وأنا أتذكر رغمًا عني أحداثًا يرفض عقلي الدخول في عالمها، ربما كنت أتخيل كل شيء، ولذا أخذت أرتشف السحلب وأنا أراقب المارة كي أذهب بعقلي بعيدًا عن الخزعبلات، ثم أنظر إلى بيتي وأشلاء الآثار من حولي، لا شيء جديد.. مشهد يعيد نفسه تلقائيًا كل يوم بلا ملل، الناس يسيرون على نفس الدرب ظاهريًا ودروب مختلفة في مقصدهم، وجوه بائسة حفرتها تجاعيد الشقاء بقسوة، ماذا يريد الناس من الدنيا؟! بل ماذا أريد أنا من حياتي؟! هل أردت أن أتخرج ثم أتزوج ثم أنجب وأستمر في طاحونة العمل حتى الموت؟ هل هذه الحياة التي أردتها منذ البداية حقًّا؟! الرياح تشتد والسماء غامضة، أتى سعيد ونظر إلى السماء وقال:

- ستمطر بلا شك.. سأنقل جميع الكراسي بالداخل.

انتقل رواد المقهى للداخل، وعندما وجد سعيد الأخبار تبدأ أوشك أن يغير القناة لكنني طلبت منه أن يتركها فجاء الخبر مُقبضًا:

"أعلنت وزارة الصحة والسكان المصرية، ومنظمة الصحة العالمية في بيان مشترك، تأكيد أول إصابة بفيروس كورونا المستجد، لافتين إلى أن المواطن أجنبي وليس مواطنًا مصريًا".

تقدم مني سعيد في بطء وقال بنبرة يملؤها الشك:

- يقولون إنهم سيعزلونه..

- إجراء وقائي لابد منه..

- يقولون أيضًا إنه لم يظهر عليه أعراض!

- وهذا أخطر ما في الموضوع.. لابد أنه نشر الفيروس..

حينها دخل شيكو المقهى، صفَّر له سعيد فهز الكلب ذيله فرحًا، قال سعيد في جدية:

- لا مؤاخذة يا أستاذ.. سأطعم شيكو..

دون أن أجيبه هرع ليحضر طبقًا كبيرًا ووضعه خارج المقهى، وكأن الكلب يعلم ميعاده بدقة وسعيد ينظر له في حنان ويربت على ظهره، ثم تركه ودخل ليكمل أسئلته:

- وهل يطولنا الفيروس؟

- الأمور ليست واضحة.. لكن في أغلب الأمر سيطولنا بلا شك..

- يا ستار.. يقولون إن أعراضه تتشابه مع الإنفلونزا.. كيف سنميز بينهما؟!

- الفحص الطبي يميزه، ما يخيفني أن تاريخ الأوبئة يقول إنه سينتشر ولن يسلم أحد منه..

- لكن بعض الفيروسات في أوروبا لم نشعر بها في مصر.

- أتمنى ذلك... بالمناسبة خُذ حذرك من الحيوانات هذه الأيام، فلا ندري من أين تأتي العدوى.

- لا.. شيكو هذا نظيف، إنه يستحم مرة في الأسبوع بالماء والصابون.

نظرت له مُتعجبًا وهو ينظر إلى الكلب برفق ثم إلى التلفزيون ويقول:

- ربنا حامي البلد يا أستاذ.. لا تقلق.. خليها على الله.

تذكرت لقاء، أعراض إنفلونزا.. البنات! هل أصابها الفيروس؟ لكنها بدت طبيعية الأسبوع الماضي! هل كانت أول الإصابات؟ هل الفيروس وصل مصر مُبكرًا ولم يكتشفه أحد؟ هاتفتها وأنا أحاول أن أبقى هادئًا وأخيرًا جاء صوتها مُتعبًا..

- ألو..

- لقاء.. هل أنت بخير؟

- تحسنت حالتي قليلًا.

- أخبريني هل ظهرت عليكِ أية أعراض برد منذ خروجك من المستشفى؟

بدت مُتفاجئة قليلًا..

- أعراض طفيفة.. أشعر بإرهاق أغلب الوقت، لا أستطيع عمل بعض المهام، أشعر أحيانًا بدقات قلبي سريعة، أحيانًا هبوط، لكن ليس كل الوقت يا دكتور..

إنها تهزأ بي لكن هذا لا يهم الآن، وتستهين بأمر الفيروس مثل سعيد، أكملت:

- والبنات؟

- في أحسن حال الحمد لله..

- أخبريني في الحال إذا حدث شيء غير معتاد لأي فرد من الأسرة لا قدر الله.

أغلقت الهاتف قبل أن أبوح بما في قلبي، أردتها أن تعود بشدة، أردت أن أقول لها: "أحبك" في عيد الحب، لكن شيئًا ما بداخلي منعني، ربما شيئًا غير ناضج، اطمأننت على أبي وأمي وإخوتي، وأردت أن أريح عقلي.

دخلت البيت وبعد أن تحممت وتناولت غدائي ووقفت أمام مكتبتي أتفقد مجموعة من الروايات ابتعتها من معرض الكتاب، هذا ما أنشده الليلة، بدأت القراءة، كانت رواية هادئة حالمة، أخذتني إلى مكان اشتقت إليه في نفسي، وانغمست في حالة من الهدوء والسكينة.

بدت الليلة هانئة هادئة، ارتخت أعصابي وأوشكت جفوني أن تستسلم لنوم عميق طال انتظاره، عندها جاءني صوت "هون" هائل وقريب، انتبهت له! نعم! هذا صوت دق "هون" قوي، نظرت في الساعة لأجدها التاسعة مساءً، تساءلت مَن مِن الجيران يطهي طعامه الآن؟ لكني تذكرت أنني الساكن الوحيد والبيت كله خالٍ! فنهضت من مكاني والصوت لا يزال في أذني يضغط على أعصابي، خرجت إلى المطبخ لأتبين من المنور مصدر الصوت، استرقت السمع أكثر، يبدو أن الصوت يأتي من الأسفل.. من الأسفل! من شقة جدتي التي لم تُفتح منذ أشهر.. لا أدري هل فتحتها لقاء لتنظيفها؟ لكن في كل الأحوال لا شيء يفسر صوت الهون بالأسفل، ماذا أفعل؟ هل أتقصى مصدر الصوت أم أتجاهله؟ أنا في ريبة مما يحدث معي!

اتخذت قرارًا بإكمال الرواية وتجاهل الصوت، عدت إلى مكاني وعبثًا حاولت القراءة، لكن محاولتي لم تفلح؛ لأن الصوت ازداد وانتقل داخل شقتي!

أخذت مفاتيحي وهاتفي وهبطت إلى الأسفل، عندما وقفت خارج شقة جدتي تأكدت أن

الصوت بداخلها، انتابني شعور سيئ لم أقاومه، بسملت وأدرت المفتاح في الباب ودخلت، حينها انفتح نور الشقة دون أن ألمسه، وتوقف الصوت، تسمرت مكاني، هل ربط أبي إضاءة الشقة بفتح الباب؟ لم أعهد في أبي هذا التطور من قبل، خاصة في شقة شبه مهجورة لا نسكنها!

دخلت على استحياء أنظر حولي ولم أغلق باب الشقة، الكثير من الكراتين المتناثرة تعج بالفوضى، هذه ممتلكات جدتي، دخلت غرفتها فوجدت كرتونة بها أوراقًا قديمة مهترئة، بجانبها منضدة نحاسية صغيرة عليها نقوش مميزة ظمس الكثير منها، فوقها طست نحاسي قديم، هاتان القطعتان لعائلة زيزو، أتذكر جده عندما أعطاهما لجدتي مع مشكاة زجاجية وبعض الكراتين لتحفظهم عندما قرر تجديد بيتهم في باب البحر، لكننا مع الزمن فقدنا المشكاة ولم نبحث عنها، تفقدت الطست جيدًا، يا إلهي.. إنه يذكرني بالطست في الكابوس الذي رأيته في منامي!

وفجأة ساد الظلام مرة أخرى وبدأت رائحة عطارة تتسرب إلى أنفي! رائحة قوية أميزها عند مروري في "حي الحسين"، وحين خرجت من الشقة رأيت أن النور انقطع من البيت كله فاطمأننت قليلًا، وعلى إضاءة هاتفي هممت بإغلاق الباب لكنني سمعت صوت نور ابنتي تضحك! فتسمرت مكاني مشدوهًا، وبعفوية ودون تفكير تركت باب الشقة مفتوحًا ودخلت أبحث عن نور، ثم تنبهت إلى أنني الوحيد بالبيت! وعندما بدأت أخطو خارج الشقة ضحكت نور ضحكة أخرى عالية هذه المرة، عندها تلفت ورائي بسرعة فرأيت ضى أبيض بالشقة لا أعلم مصدره وابنتي نور تجري أمامي وتنظر إلى بملامح مُخيفة! كُنت أعاني من صدمة لم أحسب لها حسابًا من قبل ولم أستطيع حتى الكلام، حينها اقتربت مني الطفلة وهي تنظر إلي وتضحك بسخرية، هذه ليست نور، وبدأت أرتعد مكاني فأشارت إلى الداخل فرأيت جدتي تمر من أمامي باتجاه المطبخ! تنظر إلي كأنها تحذرني من شيء أو ربما من الاقتراب! فذهبت الطفلة إليها مُسرعة وأمسكت بيدها ثم نظرا إلي بتوعد، سرت قشعريرة شديدة في جسدي وتعرقت بشدة، لا داعي لأن أبقى هنا سأمكث في "مقهى كُنكُن" حتى تعود الكهرباء.

هل ما أراه حقيقة؟ هل هذه جدتي أم عفريتة من الجن؟! ولماذا تتشبه عفريتة أخرى بنور ابنتي؟! أم أنهما تجمع مُجسد لمشاكلي يمشي أمامي؟ هل أمر بفترة عصيبة في حياتي فاستلهم عقلي خرافة يلهيني بها؟

سوف أثبت لنفسي أنني أهذي، خطوت خطوة واحدة بالداخل فجاءني صوت الهون مُدويًا يصك أذنيّ، وارتج الطست النحاسي فوق المنضدة واندلعت رائحة غير مألوفة لبخور كثيف!

خرجت على الفور وأغلقت الباب بسرعة وقلبي يخفق حتى كاد أن يتوقف من الخوف.

***

شهر صفر - ٧٤٩ هجريًا - ١٣٤٨ ميلاديًا

بعد موت زوجة أبي، استعدت أحداث موت أبي عليه رحمة الله، وملأت الكآبة نفسي، أردت بشدة التجول في القاهرة لأخرج قلبي من هذا الحزن، لم يكن أحدٌ ليساعدني على ذلك دون علم أمراء المماليك سوى يلبغا العمري، لم أندم على شراء هذا المملوك قط، رغم هيئته المضحكة إلا أنه ذكي لا يهاب شيئًا، ويقضي أغلب وقته معي، تخفيت كما نصحني في زي العرب، لأنه بذلك لن يميزني العامة، ولن يدروا من أمري شيئًا، لكن ما هذا الذي يفعله، حدقت في عينيه بدهشة وكظمت غيظي قائلًا:

- ثيابك المطرزة المزركشة تُفصح أنك حارس السلطان الخاص! أين التخفي في ذلك؟ سيعرفك العامة من هيئتك، أقراطك الذهبية، وهذه النعال الطويلة.. أهذا ما اتفقنا عليه؟

ابتسم ابتسامة هادئة وقال..

- صحيح أنني مملوك خاص، أنعمت علي بهذا الشرف يا مولاي، لكن صدقني المصريون لن يأبهوا لي كثيرًا في الأسواق، لست أميرًا كبيرًا يخشونه، ورؤيتهم لي مع صديق منهم ستجعلهم يثقون بي.

لم أقتنع كثيرًا بما قال لكنني خشيت أن يسمعنا العامة فلم أخض في الأمر أكثر، كان يلبغا يعاملني تمامًا وكأنني من العامة حتى لا يلفت إلينا العيون اليقظة، أحببت أن أتجول حتى صلاة العصر حتى أصليها بين الناس، عند سوق النحاسين انبعثت رائحة المستوقد المجاور لحمام جدي "قلاوون"، قال يلبغا:

- تُسوى في هذا المستوقد قدور الفول المدمس الشهية.. بدأت عصافير بطني تزقزق يا مولاي..

نظرت له في لوم فضحك وأكمل:

- انستني رائحة الفول كل شيء..

- تأكل كثيرًا ولا يسمن عودك أبدًا.

تضاءلت ابتسامته وتوقف عن الضحك، ولم تعجبني نظرته التي حاول كثيرًا ألا ألحظها، لكنني لم أعلق، مررنا في دربنا، وبدأ عقلي ينشغل بوجوه العامة، حيث لم ألمح السعادة في وجه أحد إلى الآن، وتعرفت على مظاهر الحياة التي لم أرها ولم أختبرها أبدًا، أرى السقَّاء نظيف الهيئة رغم كونه حافي القدمين، يطرق الأبواب فتُفتح له في أمان، علمت من يلبغا أن جميع السقائين شديدو النظافة والأمانة، هذه شروط مهنتهم، كانت عيناي تلتهم كل شيء،

الأسواق، حركة المشترين والباعة، الحواري والأزقة، البيوت.. المساجد.. الحمامات.. الخانقاوات(21) والبيمارستانات(20)، كل شيء، الآن أشعر بالحرية، وأشعر بحب القاهرة العامرة.

اقتربنا من وجهتنا فرأيت رجلين يسويان هندامهما وعمائمهما عند خروجهما من أحد الحمامات، ثم وقف الرجلان يتحدثان بصوت عالٍ، فأمسكت يد يلبغا ليقف، وتظاهرت أن شيئًا علق بحذائي لأستمع لحديثهما، وقفنا على مقربة وسمعتهما..

- صدقني.. هو لا يستحق كل هذا الحنق منك.

- كيف يا رجل؟ هل نسيت مظالمنا العام الماضي في واقعة الجسران؟ هل نسيت عزله لمنجك اليوسفي حتى يرد أموالنا، حينها قلنا هذا سلطان عادل كأبيه أعاد لنا الأمل، وبقينا ننتظر وننتظر بلا فائدة، وبعدها أعاد منجك إلى الوزارة وراحت علينا أموالنا بدون طائل.. هذا ما أتذكره الآن والأحداث كُثر. صدقني هو واجهة لأمراء ظالمين يفعلون ما يحلو لهم.

ثم تلفت حوله في ريبة وأمسك بيد الآخر وقال بحدة:

- والآن اخفض صوتك يا رجل فلا تدري من يستمع الآن.

علا صوت الرجل قائلًا:

- يا ليتهم يستمعون حقًّا لنا، لقد سئمت منهم جميعًا.

- دعك من هذا الآن، لن تأخذ حقك في كل الأحوال، هل سمعت أن هناك وباء ضرب دمياط؟

- ما هذا الهراء؟

- نسيبي لا يكذب، لقد أتى من هناك خائفًا..

- هل رأيته؟

- نعم.

- إذن أنت موبوء الآن؟

- لا قدر الله.. أحسن القول رحمك الله.

- لا تصدق.. إنهم يكذبون بشأن أخبار عظيمة لكي لا نفكر فيما يفعلون.

أجابه الرجل بعطسة قوية جعلته يبحث في جيوب جلبابه عن منديله القماش، نظر إلى

يلبغا وقد بدا عليه الغضب وهم أن يتوجه إليهما لكنني أمسكت ذراعه بقوة، كنت مشتتًا لا أدري ماذا أفعل، لكنني آثرت ألا أفعل أي شيء.

حينها بدأ صوتًا مألوفاً ينحدر إلى أذني من آخر الشارع، ثم أخذ الصوت يعلو شيئًا فشيئًا، وبدأت أسمعه وكلما مشيت أكثر زاد الصوت وضوحًا وهو يقول بلغة تحذيرية تختلط ببكاء يحاول كبحه:

- يا سادة.. اسمعوا مني ولا تنظروا لهيئتي، توفي إلى رحمة الله الريس الطبيب شمس الدين محمد بن الأكفاني، ومن بعده توفي الريس الطبيب شمس الدين محمد بن صغير.. ألا تفقهون؟! اقترب الموعد يا سادة.. سيكون فناءٌ عظيمٌ.. قريبًا.. قريبًا جدًا.. توبوا إلى الله.. توبوا توبة تُصلح الأحوال.. لعل الله يتقبل ويعفو.. يا سادة...

كان المتحدث شيخًا ليس طاعنًا في السن، يتوكأ على عصا غليظة، رغم قوة بنيته وطول هيكله، يرتدي ما يرتديه أمثاله من الدراويش، جلبابًا وجُبة وقفطانًا، لكن عمامته الخضراء كانت أكبر وأعلى من سائرهم، ومِسبحة فيروزية مُعلقة على صدره لم أرَ لها مثيلًا، على وجهه وقار شديد، وله هيبة لا تنكرها العين ولا يغفلها القلب، انقبض قلبي لما سمعت كلماته ولهجته الحاسمة وكأن الأمر قد قُضي!

لكن هل حديث الرجل عن الوباء صحيح؟ لابد من تقصي الأمر، ظل الدرويش يتحدث على مقربة منا فوقفنا نراقب الناس تغدو وتروح ولا تبالي بما يقول، حتى سقطت عيناي على فتاة تقف على مقربة منه، متوسطة القامة، يحيط ملابسها الفضفاضة حزام مزركش عند خصرها النحيل، وعندما رفعت البرقع على رأسها، أمهلني القدر بضع دقائق أتأمل جمالًا يأخذ الأنفاس، لم أرَ في حُسنها من قبل، بشرة بيضاء رائقة، عيون واسعة بنية اللون كحلتها صاحبتها بعناية، وشامة فريدة على خدها الأيمن تميزها، لها أنف مستقيم كالأميرات، شفتاها غليظتان تملؤهما حُمرة خفيفة، كانت تُمسك بمسبحة وتُصغي للدرويش باهتمام وقد بدا عليها القلق، وسمعتها تردد بصوت عالٍ:

- اللهم سلم.. اللهم سلم.

سخر يلبغا من الدرويش..

- هذا "شهاب الدين" الدرويش، يعيش في خانقاه مولاتي "خوند طُغاي" رحمها الله، منذ فترة يحذرنا من غم قادم.. يردد الفناء والغلاء.. رجل خرِف.

هززت رأسي له ولم أستطع أن أتخلى عن النظر إلى الفتاة، لاحظ يلبغا ذلك وتبسم في خبث، لاحظت هي ثبات عينيَّ عليها فأسرعت في إنزال البرقع، وعيناها لا زالت تلومني وأنا

على شاطئ بحر لا أدرك مُنتهاه.

مضى الدرويش في طريقه فاقترب من جهة الطريق المقابلة لنا، ثم تجاوزنا وهو يردد كلماته وقد تعلقت عيناي بالفتاة، نظر لها يلبغا نظرة أخيرة ثم مال عليّ وقال:

- لكن قل لي.. هل تصدق الدرويش؟

- وكيف أعلم إن كان صادقًا؟

بدا مهتمًا هذه المرة وهو يقول:

- تعلم ما الغريب في أمره؟ إنه ردد هذا الهراء قبل أن يتوفى الطبيبان.. وسرد على الناس رؤية بمنامه فسرها بأن قطبان من أقطاب الطب سيموتان في عدد ساعات محدودة! وهذا ما حدث!

- تقصد أنه تنبأ بموتهما؟

- لا أدري.. في كل الأحوال هذا هراء وشعوذة..

اختفت حدقتا الدرويش إلى الأعلى وشهق شهقة جعلت الفتاة ترتعد وصوته يصدح في الآفاق..

- لا إله إلا الله.. سينتقل العالم الزاهد.. شيخي الجليل "عبد الله محمد المغربي".. يا حبيبي وسيدي.. رحمك الله.. إنا لله وإنا إليه راجعون..

لم أشعر أن كلامه هراء، وإنما شعرت أنه على يقين! كما أحسست بألفة نحوه ونحو الفتاة، وكأنني التقيت بهما في زمن آخر!

***

العشرون من فبراير ٢٠٢٠ ميلاديًا - ١٤٤١ هجريًا

المطر ينهمر بينما أجلس داخل مقهى كُنكْن أحتسي مشروبًا دافئًا.. فقد قررت ألا أعمل اليوم، أريد أن أريح قدميّ، لكن عقلي لم يسترح وأنا أفكر في إبنتي نور وتلك السيدة الشاحبة الغاضبة أو جدتي، والتي بدأت تغزو أحلامي في لقطات متفرقة، مرة تدق الهون ومرة تشعل البخور، ومرة تصرخ، لقد سيطرت على عقلي، ولكن ماذا لو أخبرت لقاء؟ حينها سيكون تصريحًا بالاحتياج، تصريح بوحدتي التي لم أعتدها، ربما كان كل ما أراه من أثر الوحدة، رحمك الله يا جدتي كنتِ نورًا يمشي على الأرض، خرب البيت بعد رحيلك وملأته العفاريت، حتى أخواتي ولقاء لم ينظفن شقتك منذ زمن.

ما يهمني الآن أنني لا أريد رؤية هذه السيدة أبدًا، وفي الوقت نفسه لابد أن أصارع خوفي وهروبي، هل أدخل شقة جدتي مرة أخرى؟ هل أود أن ألقى هذه السيدة لأعلم ماذا تريد؟ كل ما أفعله الآن هو البحث داخل نفسي، لم أكن أبدًا بهذا الجُبن من قبل، لابد أن أواجه قدري، وحدتي جعلتني أكتشف أشياء لم أكن أعلمها في نفسي، كانت المواجهة نقطة هامة من نقاط ضعفي، أنا لا أواجه.. أهرب دائمًا، أفضل البعد عن المشاكل، هل حان الوقت للتغيير؟

نظرت من نافذة المقهى، الجو يبدو غاضبًا كما السيدة الشاحبة، والساعة قد تجاوزت السادسة مساءً، تركت الحساب وأغلقت الجاكيت الجلدي وأنا أنظر إلى بيتي الأثري في تحدٍّ، عبرت الجزء الصغير بين البيت وبين المقهى مهرولًا، ثم أخذت نفسًا عميقًا استعدادًا لما قد يحدث، وما إن وصلت لباب شقة جدتي حتى بدت لي كل الأمور طبيعية، أدرت المُفتاح في الباب وأنا أبسمل ودلفت إلى الشقة سريعًا وأضأتها وأغلقت الباب.

وبدأت أتجول في الغرف وكأنني أبحث عن السيدة، لم يبدُ أي شيء على غير طبيعته، لا أصوات ولا أنوار تنقطع ولا هون يدق، جلست في غرفة جدتي أتذكر طفولتي البريئة، أشتم رحيق أيام في مخيلتي لن تعود، أيام لا تبخل عليّ بذكرى لطيفة كلما تعثرت.

وبينما أنا شارد أتذكر كل الصفاء والحب الذي تمتعت به صغيرًا، لمع وميض شيء ذهبي في عيني للحظات، أفقت من شرودي وبدأت الرؤية تتضح أكثر فأكثر، إنه الطست النحاسي، كيف يلمع هذا الطست وقد انطفأت لمعته منذ زمن؟ أمسكت به أتفحصه من جديد، لا شيء هام، مجرد قطعة نُحاسية مُهملة، ونقوش طُمست منذ زمن، لكن كيف يلمع الآن؟! ما حكايتك يا قطعة الخُردة؟! هذا البيت بكل محتوياته عجيب، أحيانًا أشعر بالجماد فيه يريد أن يحكي شيئًا، لكني أتذكر سخرية لقاء في إحدى المرات عندما حدثتها أنني أشعر بالجماد، هل أتراجع عن تصديق إحساسي؟

ألقيت نظرة أخيرة على البيت وأطفأت أنواره وصعدت إلى شقتي لأكمل قراءة الرواية، حينها سمعت صوت سعيد عاليًا..

- حاول أن تطلبه مرة أخرى فربما هناك مشكلة في الشبكة..

تركت الرواية ونظرت من البلكون فوجدت زيزو وسعيد يقفان تحت البيت، صحت:

- تركت الباب الرئيسى مفتوحًا.. يمكنك الطلوع.

شكر زيزو سعيد ودخل البيت، وفتحت باب شقتي أستقبله، في غضون ثوانٍ كان يقفز صاعدًا، قال:

- هاتفك غير متاح منذ الصباح الباكر!!

دخل وجلس في غرفة المعيشة ينهج وأردفت:

- لا يوجد أحد غيري، لقاء مريضة في بيت والدها.

- عافاها الله.. ولماذا لا ترعاها أنت؟!

- وماذا أفعل مع البنات والعمل؟!

- آااه.. على الأقل لا تغلق هاتفك، لعلهم يحتاجون مُساعدتك في أمر.

قمت من مكاني قائلًا:

- شاي؟

أمسك ذراعي يجذبني قائلًا:

- ولا شيء.. أريد منك خدمة، معي مجموعة تريد جولة طويلة، وأنا لا أملك وقتًا كافيًا هذا الأسبوع، وأريدهم مع من أثق فيه.. هل تصحبهم أنت؟

- لا تحمل همًا.. سأعدل جدول الأسبوع.

ابتسم وربت على كتفي مُمتنًا..

- عشمي دائمًا في محله.

قام زيزو في الحال ليغادر لكنه لمح كتاب "إغاثة الأمة بكشف الغمة" للمقريزي فأمسك به وقال:

- بحثت عنه في كل مكان، من أين أتيت به؟

- يمكنك استعارته.. لكن..

- سأعيده لا تقلق.. عيب.

اتجه ناحية الباب والتفت إليّ بعيون واعظة وهو يربت على كتفي قائلًا:

- حكيم.. لا تغلق هاتفك هكذا، هناك فتاتان وأمهما معلقون في رقبتك حتى لو كانوا في بيت أبيها..

علمت أنه استشعر ما أخفيه، هبط الدرج في عجالة وأغلقت الباب، تمددت على سريري مرة أخرى، لكن لقاء والبنات سيطرن على أفكاري ومشاعري فلم أستطع مواصلة القراءة، شردت أفكر كيف أتقبل وضعي هذا، وكيف أرتاح له، بل كيف تستسيغه لقاء، في الماضي لم تستطع أن تتركني ليلة واحدة! وبينما أنا شارد شعرت بحركة بجانبي، وقبل أن ألتفت لمحت يدًا لسيدة عجوز، انتفضت من مكاني ونظرت إلى السرير فصحت مذعورًا:

- بسم الله الرحمن الرحيم.. لقاء؟

كانت مُمددة في استرخاء على السرير تنظر لي بدهشة، وبدت يدها طبيعية! تلفتت حولها وقالت:

- ماذا بك؟

بقيت صامتًا مشدوها أنظر إليها غير مصدق عينيّ، بدأت أمسح وجهي مرات وأنظر إليها، بدا عليها التعجب وأردفت:

- كيف جئت فجأة؟ وأين البنات؟ وكيف لم أشعر بوجودك؟

- جئت البارحة، ثم أنت نائم طوال الوقت.. اجلس واهدأ لو سمحت، ستستيقظ البنات.. لقد تجاوز الليل نصفه..

نظرت إلى ساعتي فوجدت كلامها صحيحًا! خرجت من الغرفة باتجاه الحمام لكني لمحت كتاب المقريزي على السفرة! رجعت إليها وقلت:

- ألم أعطِ زيزو كتاب المقريزي منذ بُرهة؟!

مدت شفتيها للأمام وهزت رأسها نافيه وهي تقول:

- متى حضر زيزو؟

كيف غفوت ومتى؟ هل كان حلما رأيته؟ تركتها ودخلت الحمام، غسلت وجهي عدة مرات،

فكرت أن أهاتف زيزو لكن ماذا سيظن فيّ؟ هل بي هلاوس أم جُننت؟ أفرغت بعض الماء على رأسي ونظرت إلى المرآة فرأيت هيئتي مُزرية، أحتاج لراحة، حسنًا سأتجاوز الأمر، قصدت غرفة البنات لأطمئن عليهما لكني لم أجدهن! هرعت إلى غرفتي ووجدت لقاء تتصفح الرواية في برود، قلت في غضب:

- أين البنات؟

نظرت لي وابتسمت ثم وضعت الرواية بجانبها واعتدلت في جلستها..

- أريد أن أتحدث معك في أمر هام..

- أين نور وآية؟

- نائمتان.. عند والدي.

- ولماذا تكذبين؟ وما الذي أتى بك في منتصف الليل بمفردك؟

- جئتك لأمر هام، يخصنا..

- إذن لم أكن نائمًا؟

نظرت نظرة لم تُرِحني، ثم قامت من مكانها وبدأت تمشي في اتجاهي بخطوات ثابتة بطيئة وقالت:

- أنت حقًا غبي يا حكيم، حسبتك فطنًا!

ثم أمسكت بوجهي برفق، وفجأة شعرت بأناملها باردة تضغط على وجهي بقسوة وملامحها ويدها تتبدلان إلى سيدة عجوز وهي تردد:

- الأصل ثم الفرع.. الأصل ثم الفرع.. الأصل ثم الفرع..

فزعت وابتعدت، قُمت من نومي غارقًا في عرقي في طقس بارد، تلفت حولي فوجدت الرواية بجانبي، خرجت إلى غرفة المعيشة فلم أجد كتاب المقريزي، هذا كابوس وأنا بالفعل أعطيت الكتاب لزيزو مما يعني أنه كان هنا.

غسلت وجهي ودخلت مرة أخرى إلى غرفة النوم، لكني لمحت كتاب المقريزي بجانب السرير على الكوميدينو! أمسكته وحدقت به في ذهول وحينها سمعت صوت سعيد عاليًا:

- حاول أن تطلبه مرة أخرى فربما مشكلة شبكة..

تركت الكتاب ونظرت من البلكون فوجدت زيزو وسعيد يقفان تحت البيت، صحت بنبرة

مُرتعشة:

- تركت الباب الرئيسى مفتوحًا.. يمكنك الطلوع.

شكر زيزو سعيد ودخل البيت، وفتحت باب شقتي أستقبله، في غضون ثوانٍ كان يقفز صاعدًا، قال:

- هاتفك غير متاح منذ الصباح الباكر!

نظرت إليه وكدت أجن.. هل كل ما رأيته سيحدث حقيقة؟ أردفت مضطربًا..

- اجلس.. سأروي لك أحداثًا تنهش في عقلي!

***

شهر شعبان - ٧٤٩ هجريًا - ١٣٤٨ ميلاديًا

انفرد الأميران منجك اليوسفي وبيبغا أروس بتدبير أمور المملكة انفرادًا تامًا، وفرضا الكثير من الإتاوات على الرعية، حتى إنهم اتفقوا مع الأمراء على تخفيف الكُلف السلطانية وتقليل المصروفات، ومُراقبتي أنا سلطان البلاد، أشعر أنني وحيد لا أجد بين الأمراء من يوجهني بنصحه وإرشاده، ويفيض عليّ من خبرته، رغم كثرة عددهم وتدخلاتهم التي لا تنتهي، إلا أنني أعود وأتذكر الأمير "شيخوا العمري" الذي هو أحد أمراء المشورة ورسولهم، ولولاه لوثبت أحزاب الأمراء بعضهم على بعض، لكن الحدث الأهم الذي كان قد سيطر على عقلي، هو هذا الوباء.. الطاعون.

بتُّ أسيرًا وحيدًا في شوارع المحروسة بدون يلبُغا لأول مرة، بعد أن أصبح أمر التخفي يسيرًا علي وعسيرًا عليه، صدق الدرويش "شهاب الدين" في نبوءة الفناء، لقد تزايد أمر الطاعون في الديار المصرية، وهجم جملة واحدة وعظم أمره، لدرجة أنه لم يستطع أحد أن يحصي عدد الموتى إلى الآن، الناس مُنشغلون بدفن موتاهم فُرادى وبالجملة، والطاعون لا يُمهل الأدوية أن تفعل مفعولها، إذ لم يصمد مصابٌ بالمرض أكثر من ثماني وأربعين ساعة على الأكثر.

والآن عمّ الطاعون سائر البلاد قاطبة، وكنت على علم بأشهر ويلات هذا الوباء في بلاد الفرس والشام والكوفة والبصرة، لكنني لم أسمع بما أراه الآن في المحروسة قط، قلبي ينفرط كالمسبحة، إن للموت رهبة ورجفة، لكني أرى الناس لم تعد تهاب الموت كسابق عهدهم، بل يستسلمون في هدوء أو فزع، لذلك يُسرع الناس لتقديم الصدقات في الشوارع ويقبلون على الطاعات كما لم يفعلوا من قبل، إنهم يستعدون.

قادتني قدماي إلى شارع "أحمد بن طولون" ولم أخطط لأن أصل إلى مكان بعينه، وسمعت أصوات البكاء في كل مكان، الناس تبكي فقد الأحبة وتبكي أنفسها أيضًا، وأنا أسير تائهًا أبحث عن شيء لا أعلمه، وأرتاح لإخفاء نصف وجهي بطرف العمامة وكأنني أخاف عدوى الطاعون.

عند بوابة أحد البيوت رأيت كلبًا مطروحًا على الأرض ينازع ما تبقى له من أنفاس، وقد بدا لي مرضه جليًا، تهيأ لي أن الكلب التفت والتقت أعيننا للحظات، وكأنه يستمد من وجودي القوة، بينما كان الألم ينطق من عينيه، توقفت بعيدًا أراقبه في شفقة، إلى أن زفر زفرة طويلة أراحته من عناء الطاعون، عذاب وموت، هكذا الأمر إذن!

عندها سمعت صوت عويل ونواح من نفس البيت وخرج تابوت يحمله بعض الرجال،

وخرجت وراءه حفنة من النساء يتشحن بالسواد يبكين بحرقة، لم يستطع قلبي أن يعتاد المشهد رغم تكراره لعشرات بل مئات المرات في اليوم الواحد، وقفت أنطق بالشهادة وأقرأ الفاتحة لجميع موتى الطاعون، وصوت صراخ النسوة يصك أذني، نظرت لهن فوجدت صاحبة الشامة تنظر إليَ وقد غطت الكآبة وجهها الجميل، أظنها في مثل سني أو أصغر قليلًا، خفق قلبي لها رغم كل شيء، رغم الموت والطاعون، رأيت في عينيها أملًا فريدًا كحُسنها.

نظر أحد الرجال إليهن وصاح بحدة قبل أن يُكمل مسيرة الرجال وراء التابوت:

- التزمن البيت، لن أصطحب النسوة إلى المقابر.. سأبعث لكم بالخل.

يظن الناس أن استنشاق الخل يمنع الطاعون، وبعد بُرهة صغيرة من الخجل والنظرات والأمل، لمحت طفلًا صغيرًا يمسك بقارورة زجاجية ويعطيها إليها صائحًا:

- الخل يا طولوبية.

أخذتها منه على عجلة وتلاقت أعيننا، فتساءلت في نفسي إذا ما كانت تتذكرني، وهل تستطيع التعرف عليَ من خلال عيني فقط؟ أم أنها تنظر إليَ كشخص آخر؟ أفقت من تساؤلاتي وخطر لي أن أحدثها ولو بكلمة عزاء، أردت أن أعلم من تكون، لكنها دخلت البيت مع باقي النسوة وحال الطاعون بيني وبينها.

***

السادس من مارس ٢٠٢٠ ميلاديًا - ١٤٤١ هجريًا

كثير من الدوائر المتشابكة التي لا تنتهي، ثم هدوء مفاجئ لا يوحي بالاستقرار، بل يبشر بدوائر أخرى في طريقها إلى حياتي، جلسنا صامتين على مقهى "كُنكُن" أقلب ملعقة من السكر في كوب الشاي، وأنظر إلى حبات السكر التي تذكرني بنفسي، فأنا أشبه حبة سكر صغيرة ضعيفة قابلة للذوبان تحت وطأة ضغوط الحياة، ليس لي من أمري شيء سوى الدوران حول نفسي في كثير من دوائر الحياة.

جلست أنظر إلى السماء التي لم تفصح عن نيتها بعد كل هذه الغيوم، وأنظر إلى صديقي "عبد العزيز" الذي يجلس بجانبي يدخن سيجارته في سلام، لا يبالي بي ولا بمزاجي العكر، ولا يصدق ما سردته عليه من أحداث لا تفسير لها، بقيت أتخيل حياته كرجل أعزب، بلا مسئوليات، بلا تضحيات، بلا أحكام مسبقة من أحد، وكثير من الحرية تحيط به دون ضجر، لقد تخطى زيزو الخامسة والثلاثين في هدوء، دون أن يلتفت إلى تعليقات الأسرة والأقارب والجيران والأصدقاء، ودون أن يُبقي على حب عمره "منى كيدا"، ودون أن يرى الكثير من عرائس الصالونات أيضًا.

أعجبت بالفكرة رغم عدم اقتناعي بها، فلا مثيل للحرية، لكني مع ذلك أعشق الأسرة، ورغم هذا فقد بدأت أعتاد حياتي كرجل وحيد شبه أعزب، بشرط الإنفاق على أسرة مكونة من أم وابنتين، وبدأت أستلذ نمط هذه الحياة وأفتقد أسرتي في آنٍ واحد، لا أعرف تحديدًا ماذا أريد؟ أتذكر مقولة جدتي الشهيرة "عليك بالرضا فالحياة لا تُعطينا كل ما نتمناه"، فأحاول أن أرتضي حالي.

جاء سعيد ووضع القهوة أمام زيزو، فقطع أفكاري صوت زيزو وهو يضع هاتفه المحمول على المنضدة الصغيرة..

- اكتشفوا اليوم اثني عشر سائحًا مُصابًا على مركب نيلي في أسوان.

فانتبهت قائلًا:

- عدد كبير.. الله يسترها.

أشعل زيزو سيجارته وقال في عدم اكتراث:

- أنا لا أصدق هذه التمثيلية.. هذا فيروس تم تصنيعه خصيصًا، أظن أن العائلات الأكثر نفوذًا ومالًا في العالم قررت أن تتخلص من ضعفاء المناعة وكبار السن في العالم لأنهم غير منتجين، إنهم يملكون المصل والدواء مُسبقًا، عالم مليء بالتمثيليات الدولية لجني الكثير من

المليارات.

- تعتقد هذا؟

- بلا أدنى شك.. دعك من هذا الموضوع، قل لي.. ما زالت زوجتك غاضبة من ترك وظيفتك؟

كُنت أعلم أن زيزو لم يصدق أمر مرضها، كما لا أصدقه أنا، فابتسمت في بلاهة وأجبته:

- لا عليك..

ربت على كتفي قائلًا:

- مهنتنا لا يفهمها الكثيرون وإن عشقوا تراب البلد، أعذرها، سوف تنصلح الأمور.. النساء مجانين صدقني، ترفض الأمر الآن وتتحمس له غدا والعكس، الهرمونات يا صديقي تلعب بهن وبنا.

- الحياة تبتلع الكثير من المال، أحيانًا أفكر أن لقاء على صواب فيما تظنه.

- هل ستعود للوظيفة؟

- لا.. مستحيل.

- تريد الحق؟ لقاء من أبناء مصر الجديدة ونادي هليوبوليس، لو كنت مكانها ما رضيت السكن في "زقاق المستكفي"، خاصة أنه وضع جديد فرضته أنت عليها، عليك أن تقدر هذا، لكن في النهاية طالما أنها تحبك ستعتاد الأمر وتدبر له الحلول معك.

مسني الغضب وقلت:

- ولهذا لم تتزوج "منى"؟!

تجاهل سؤالي وأطفأ سيجارته ليشعل أخرى وقال في ثقة:

- ثم أنت تحبها.. لذلك عليك إرضاءها من أجل بناتك وحياتكم، مع كل هذا لا تجعلها تطمئن..

نظرت إليه مُتعجبًا وقلت:

- أنت تقول الشيء وعكسه!

- حكيم.. أنت رجل تزوجت بأول حب بعد تخرجك مُباشرة، لم يسبق لك تجربة واحدة، زوج مخلص، لا تشرب الخمور ولا تدخن، لا تذهب إلا لعملك أو بيتك أو أهلك! أصدقاؤك

محدودون رغم صغر سنك، هذا ليس نمطيًا، أنت شخص نادر وهذه مشكلتك.

- وهل أصبحت الاستقامة والإخلاص شبة في جبيني؟ ثم أليس الأمان هو كل ما تبتغيه المرأة؟!

ابتسم زيزو في خبث ونظر أمامه وهو ينفخ دخان سيجارته..

- يا ليتني مثلك، ثبتك الله، الأمان المُطلق يقضي على الحب، والمرأة في النهاية إنسان، هل تُقدر أنت ما تملكه بالشكل الذي يستحقه؟ إنها تملكك، اسمع كلامي لا تجعلها تطمئن، حينها ستعود إليك وستحاول إرضاءك، لابد أن تشعرها بالخطر كل فترة.. هل تفهمني؟

حينها رأيت لقاء آتية باتجاه البيت، رأيتها بمثل هيئتها أيام الكلية، وديعة، رقيقة، أنيقة، رشيقة، ابتسامتها تكفي لملء الحياة بأمل يتجدد كل يوم، لم أستطع النظر إلى أي اتجاه آخر، ابتسمت لي ودخلت البيت، لكني شككت أن تكون هي فتجاهلتها ونظرت إلى زيزو قائلًا:

- تلعب شطرنج؟

سألني زيزو:

- ألن تصعد إلى لقاء؟

نظرت إليه سائلًا:

- هل رأيتها أيضًا؟

ضحك ضحكة عالية سمعها المارة وأردف:

- لاا.. حالتك أصبحت صعبة، ما حدث في هذه الليلة كان كابوسًا، لا تدعه يسيطر عليك، قم يا رجل لترى زوجتك ربما كانت تطلبك وهاتفك خرب كالعادة.. الحمد لله على سلامتها، لكن لا تترك عواطفك تندفع كما نصحتك.

نظرت إليه مُتوترًا ونظرت إلى البيت في حيرة، ودعته ودخلت البيت ملهوفًا لرؤية زوجتي الحقيقية!

***

شهر رمضان - ٧٤٩ هجريًا- -١٣٤٨ ميلاديًا

هناك في الخلاء، وسط القباب الضخمة المُزخرفة، والمآذن الشاهقة، بين الزفات التي لا تُحصى، وسط العدم والفناء، وسط الأبدية، بين الحقيقة وألم الفراق، هناك عند واحة السكينة والنقاء وآخر الشقاء، حيث لا مكان للنفاق والكذب، المشهد جلل في صحراء المماليك، عند ضريح فخم تقف "ست مِسكة" بملابسها البيضاء الفضفاضة وغطاء رأسها الطويل الأخضر بجوار الدرويش "شهاب الدين" يقرءان القرآن ويبكيان بحرقة ولوعة أستشعرهما من مكاني البعيد.

لم أصدق يلبُغا في بادئ الأمر عندما أبلغني بأن ست مسكة تقابل الدرويش، لكنني الآن أراهما بعيني، أتساءل ما الذي يربط مِسكة بمثل هذا المشعوذ؟ يقول يلبُغا: "تربطهما علاقة مُريبة" لكنني نهرته لثقتي بمسكة قبل كل شيء، ولإحساسي بطُهر الدرويش رغم عدم معرفتي به.

رغم تفشي الوباء يلتقيان كل سبت عند ضريح شيخهما الصالح العالم الزاهد "عبد الله محمد المغربي"، المالكي المذهب، هو ليس بشيخهما فقط، إنه أحد كبار الأولياء، إذ يحبه العامة والمماليك على حد سواء، يقولون إن له كرامات خارقة.. يقف كلٌ من مسكة والدرويش وسط الكثير من زائريه المحبين، والكثير ممن لهم حاجات يصدقون أنها ستُقضى على يد الشيخ المغربي حتى ولو كان راقدًا في قبره! ومن ثم تقوم ست مسكة بتوزيع الصدقات المُعطرة كما تعودت قُبيل مغادرتها الضريح، فتتجمع الناس حولها يضجون بالدعاء، حتى إنني لم أعد أراها من كثرة الأعداد حولها.

لكنني أتجاهل كل ذلك وأقاوم أسئلة في رأسي كثيرة بلا إجابات، كيف تنبأ الدرويش بأحداث جسام في البلاد؟! لقد تنبأ بالفناء والغلاء.. وجاء الطاعون يأخذ الناس بغتة في قسوة، وهذا يعني أننا ننتظر الغلاء!! لقد تنبأ الدرويش بموت شيخه "المغربي" أمامي قبل أيام! ومات الشيخ بالطاعون! كيف أصدق هذا؟! وإذا كانت مِسكة على درجة من هذه الكرامات فإن نبوءتها بأن مُلكي سيزول قريبًا على يد المماليك أمر لا مفر منه! أم هي نبوءة الدرويش بالأساس؟! عقلي سيطير.

رويدًا رويدًا تنقشع غمامة الناس عن مِسكة وأراها تُمسك بيد فتاة مليحة، مهلًا.. إنها الفتاة صاحبة الشامة! "طولوبية"، يبدو أنها كانت تساعدها في توزيع الصدقات، تتحدث معها ومع الدرويش أمام الضريح، يبدو أنها على صلة قوية بهما، هذا سيسهل عليّ الكثير، عجيب أمر هذه الفتاة، أخذت جزءًا من عقلي.

وبينما أنا شارد أفكر في كل تناقض بداخلي، ربت على كتفي أحد المارة، التفت إليه فكان يلبغا يبتسم قائلًا:

- ظننت أنني لن أعرفك.

- ماذا الذي جاء بك إلى هنا؟

نظر يلبغا إلى الفتاة وابتسم في خبث وقال:

- أحمي مولاي..

- لم أطلب الحماية!

- أفعلها بحب فلا تبخل علي.

شعرت أنه صادق في حبه لي، ربما يحاربه فضوله في معرفة أمور السلطان، زفرت نفسًا عميقًا فأكمل وهو ينظر إلى الناس..

- خرج أمر الطاعون عن الحد..

نكست رأسي وتمتمت..

- ليس بيد العبد من شيء..

- سيصلي الناس مُجتمعين غدًا بعد صلاة الجمعة كما يفعلون في صلاة الاستسقاء كي يرفع الله عنا الوباء..

- أين؟ أريد أن أصلي لله معهم.

- يقولون في الصحراء.. تحت الجبل الأحمر.

نظرت إلى السماء خاشعًا..

- ليس لها من دون الله كاشفة..

***

الخامس عشر من مارس ٢٠٢٠ ميلاديًا - ١٤٤١ هجريًا

أنا إنسان غير منطقي بالمرة، وهذا ما يجعل للأحلام وجودًا ملموسًا من حولي، وطعمًا لن يستسيغه أحد غيري، طعم أشعر به في حلقي، وتشمه أنفي بوضوح، وتسمعه أذناي كطفل عنيد يلهو سعيدًا.

عندما رأيت لقاء أمامي نسيت كل شيء، دق قلبي بعنف وكأنها ليست زوجتي، كأنها حبيبة صعبة المنال؛ ألأنها بعيدة! كل شيء معها صار مختلفًا حتى خلوتى بها، أوحشتني بشدة، غريب هذا الإحساس وممتع أيضًا، لكني رغم ذلك حين لم تعد إلى البيت لم أشأ أن أضغط عليها، وعندما جاءت بغتة بحجة تافهة لتتأكد أنها لا زالت الوحيدة في حياتي! شعرت بحبها في رعشة يدها، واحمرار أذنها، في بحة صوتها وهروب عينيها، لدرجة جعلتني أتساءل هل آراء زيزو حقيقية؟ وهل رأيه عن لقاء حقيقي أيضًا؟ لكني أصبحت مُمتنًّا للعقبات وللصعاب، بفضلهما أتعرف على نفسي من جديد، أنا لست الشخص الذي ظننته، لذلك قررت أن أعيد اكتشاف أحلامي.

احتوتني أشعة الشمس الدافئة تشير لبداية اليوم، وعبرت الزقاق إلى "شارع ابن طولون" ومنه إلى العالم الرحب، عالم القاهرة العتيق المليء بالأسرار، عالم صلب لا يحركه مرور الأزمنة وتعاقبها، عالم أحبه وأحذره.

يومها كان ميعاد جولتي في مقابر المماليك، في مسجد "فرج بن برقوق"، استقللت أول ميكروباص متجه له، بعض الناس واجمة تُمسك بالهاتف المحمول يتابعون أخبار الوباء في قلق، القليل يرتدي الكمامات، البعض يستكمل نومه في الطريق، ماذا يحدث لو أن أحدهم أصابه الفيروس؟! لا أريد أن تنتهي حياتي بفيروس، لم يخطر ببالي أن أشهده أبدًا بعد كل ما شهده جيلي من تحديات في كل شيء..

بقيت أراجع التاريخ داخل عقلي، فرج بن برقوق السفاح سفاك الدماء، تفاصيل القرافة وسلاطين وأمراء لم يتبقى منهم سوى زفات وشهود مقابر وحجر، ترجلت من الميكروباص في ميدان "السيدة عائشة"، حيث الزحام الذي يمحق كل الأفكار، لكني لا زلت أتساءل هل ستلجأ الحكومة إلى الإغلاق مثل دول أوروبا التي انتشر بها الوباء؟! ثم أقاوم التفكير ليحافظ عقلي على ثباته وتركيزه في التاريخ، في حين يستقل جسدي ميكروباص آخر إلى "قرافة المماليك"، أفكر في سر السيدة الشاحبة، وأنهى عقلي عن ذلك فلدي جولة أريد أن يحبها الناس.

ها أنا أصل إلى حيث يشهد الحجر على سيرة تبقى بعد فناء الجسد، المجموعة تنتظر عند

"مسجد الأمير قُرقُماس" على يُمنة السالك من منطقة السيدة عائشة إلى منطقة مصر الجديدة، هذه التحفة المعمارية التي تجسد فيها مسجد ومدرسة وقبة دفن وسبيل وكُتاب، هذ النموذج المعماري لم يتكرر لكنه للأسف مُهمل، كان الحظ معي إذ كان الحارس موجودًا لنبدأ الجولة، لم تفارقني السيدة الشاحبة وكل ما رأيته! لكن بعد صعودي المئذنة والنظر إلى "مدينة الأموات" مترامية الأطراف نسيتها، واستصغرت الدنيا بكل جمالها وصعابها وابتسمت.

بعد انقضاء اليوم في سلاسة كُنت في مزاج صافٍ، ذهبت إلى مقهى كُنكُن أنتظر زيزو، جلست بداخل المقهى لأتابع الأخبار عبر التلفزيون..

- "من أجل التصدي لانتشار فيروس كورونا، أعلن رئيس الوزراء المصري مصطفى مدبولي إغلاق جميع المطاعم والمقاهي والملاهي والنوادي الليلية والحانات والمراكز التجارية ابتداء من السابعة مساء وحتى السادسة صباحًا في كافة أنحاء البلاد حتى ٣١ مارس/ آذار، وأكد رئيس الوزراء أن على أن جميع الأماكن التي تبيع السلع الغذائية مثل المخابز ومحال البقالة والصيدليات والسوبر ماركت ستظل مفتوحة".

حينها رأيت سخط سعيد لأول مرة، وضع الشاي أمامي وقال غاضبًا:

- هل كنا بحاجة إلى فيروس ينهي على ما تبقى لنا من فُتات؟!

حينها جاء زيزو في نشاط وقد سمع حوارنا، وضع حقيبة يده على المنضدة وربت على كتف سعيد قائلًا:

- لا يوجد ما يستدعي القلق يا سعيد.. ستجد الناس طريقة لكسب العيش مع الإغلاق.

تعجب سعيد وقبل أن ينطق قُلت:

- لا تسمع كلام زيزو يا سعيد.. توخَّ الحذر أنت وأهلك..

قال زيزو ساخرًا:

- أنا أستقل المواصلات يوميًا، هل تراني أرتدي كمامة طبية؟! هل تعقل أن هذه الجموع الغفيرة لم يُصب واحد منهم فقط على الأقل؟! ولو كانت خطورة الفيروس كما يروجون لفتك بنا الوباء جميعًا، أنت تعلم تاريخ الأوبئة يا حكيم..

انصرف سعيد إلى عمله وزفرت في حيرة، أحيانًا تبدو لي كلمات زيزو منطقية، نظرت بعفوية نحو البيت وشعرت ببرودة تسري في جسدي، السيدة الشاحبة تقف في بلكون غرفتي تراقبني! أشعل زيزو سيجارته ونظر إليّ فقلت:

- هل ترى السيدة الآن؟

نظر زيزو إلى حيث أنظر وقال:

- هل ترى شيئًا؟

ابتسمت السيدة في تحدٍّ واستدارت ودخلت الغرفة! هل يظهر الجن في وضح النهار؟!

***

شهر رمضان - ٧٤٩ هجريًا - ١٣٤٨ ميلاديًا

تجمهرت الناس أمام بيت شيخ الإسلام "سراج الدين البلقيني" في حارة بهاء الدين، الناس على أمل ورجاء، الكثير يبكي حاله وحال الأحباب الذين ظعنوا فرحلوا سريعًا، وقف الجميع يملئون نظرهم من بعضهم البعض فربما كانت النظرة الأخيرة، وما إن خرج عليهم الشيخ البلقيني حتى ضجوا بالدعاء والتفوا حوله، فمشى بصعوبة بينهم، وسرنا أنا ويلبغا خلفهم متجهين إلى الصحراء، رأيت بين الناس الدرويش شهاب الدين، كان الجمع غفيرًا والجميع يردد بصوت جهوري:

- لا إله إلا الله..

سنصلي إلى الله لعله يتقبل دعاءنا، وسيطرت على رأسي الأسئلة، لماذا أشهد كل تلك المآسي في حياتي؟! لقد شح النيل في أول عام بولايتي، حتى الوباء اختار عهدي، يقول الناس إن الوباء جاء كعقاب نتيجة لأفعالنا وشرورنا، لكني لا أعلم صحة ما يقولون، أليس بيننا صالحون على الإطلاق؟ تقول مِسكة إن الوباء عظة كبيرة، فقط لمن يتعظ.

سرنا بخفة يملؤها الأمل والقلوب تخفق في وجل، يا ليت الوباء ينتهي ونعود إلى حياتنا الطبيعية التي لم نُقدرها يومًا، قال يلبغا وكأنه يُذكر نفسه:

- لا تثق بالحياة طرفة عين

في زمن طاعونه مستطير

فكأن القبور شعلة شمع

والبرايا لها فراش تطير

نظرت له وقلت:

- هذا الصلاح الصفدي.. وقال آخر:

ثروعنا الجنائز مُقبلات

ونلهو حين تذهب مُدبرات

نظر إلي يلبغا مُندهشًا وقال:

- أيسمع مولاي الشعراء؟

- تعلم أن مولاك يحب العيش بين الناس وليس فوقهم.

نظر لي يلبغا بريبة لكنه لم يعلق، وجدت نفسي عند "الجامع الأزهر" وخشعت القلوب جميعًا مرة واحدة، توقف الناس عن الكلام، واتجهوا بأبصارهم إلى الشيخ البلقيني، فصلى الشيخ بنا ركعتين، بكى فيهما الناس بلوعة لم أرها من قبل، وسط أصوات البكاء اقترب يلبغا مني قليلًا وأشار برأسه بعيدًا وقال:

- هل ترى شيخوا العمري ومنجك اليوسفي هناك؟ قد جاءا من سرياقوس بملابسهم الفاخرة المطعمة بالذهب! بربك هل هذا وقت تفاخر؟

لمحت في عينيه غيرة بينة لكنني أومأت برأسي لكي لا يُطيل حديثه، بعدها وقف الشيخ يخطب فينا خطبة بليغة تليق بعلمه الغزير وبالحدث الجلل، وكرر على مسامعنا كثيرًا:

- توبوا إلى الله توبة نصوحًا.. توبوا من ذنوبكم لعله يرحمنا..

بحثت عن الدرويش لكنني لم أره مرة ثانية، وضج الناس بالبكاء والدعاء، وظلوا يبتهلون إلى الله أن يرفع الوباء إلى أن أنهى الشيخ خطبته، وغادر من غادر من الناس إلى بيوتهم وبقي من بقي مع الشيخ يطلب منه الدعاء ويسأله في أمور الدين.

ومضينا ونحن ننتظر العفو من الله ولا نتخيل غير ذلك.

***

الرابع والعشرون من مارس ٢٠٢٠ ميلاديًا - ١٤٤١ هجريًا

أنهيت جولتي مع "مآذن شارع المعز الفاطمي" أو "عرائس السماء" كما نسميهم، بينما لا تزال الواحدة ظهرًا، سأقابل هاني وزيزو لنلعب البلياردو في البيت الخرب أمام بيتي، ثم أزور لقاء والبنات في بيت والدها وأعطيها المصروف الأسبوعي، لا أفهم لماذا لا تعود إلى البيت خاصة بعد زيارتها الأخيرة! استقللت ميكروباص متوجهًا إلى جامع البنات، قدماي تؤلمانني من كثرة الجولات لتدبير مصروفات البنات لو حسبت خطواتي بنقود لكنت أغنى رجل في العالم بلا منازع، أتذكر إصرار لقاء على التحاق البنات بمدارس خاصة، لم أحظ بفوز رأيي بأن يلتحقا بمدارس تجريبية أقل في المصروفات، نزلت من الميكروباص لأستقل آخر إلى السيدة عائشة، زفرت في حنق من كثرة التفكير في الأمور المالية قائلًا:

- شارع الصليبة لو سمحت.

نزلت من الميكروباص أحاول أن أزيل ما علق بعقلي ووجهي من غم، وبدأت أوجه تفكيري نحو اللعب مع الأصدقاء.

عند ميدان "ابن طولون" كان هنالك جمع كبير من الناس ينظرون نحو شارعي، دلفت إلى الشارع ورأيت أصحاب المحلات يقفون على أعتابها ينظرون نحو المقهى، لم أضطر إلى رد تحيتهم عند كل محل فالجميع مُنشغلون، لكن بماذا؟ بدأت أقترب من البيت، وانتبهت إلى وجود سيارة إسعاف تقف عند المقهى وتسد الشارع والزقاق، وها هو سعيد يقف على أعتاب المقهى ويعقد ذراعيه واجمًا وبجانبه العم بهاء حزين، ثم لمحت موتوسيكل هاني يقف وراء السيارة الخربة عند مكان البلياردو، هممت أن أدخل الزقاق لكن يدًا استوقفتني وسمعت صوتًا حازمًا يقول:

- أفسح الطريق يا أستاذ..

نظرت للخلف فوجدت رجلًا يرتدي ملابس بيضاء تغطيه بالكامل حتى رأسه، وحذاء طويلًا أبيض، قفازات سميكة، وكمامة كبيرة على وجهه وفوقها غطاء شفاف للوجه بحيث يسمح له بالرؤية، ظل الرجل يردد نفس الكلمات للجميع، وما هي إلا لحظات ورأيت رجلين في مثل هيئته يحملان "العم أسعد" وقد وضع كمامة على وجهه الشاحب، وشعرت بخوف لما رأيت صدره يصعد ويهبط في تسارع وعيناه الجاحظتان تنظران إليّ في فزع، أدخلاه إلى عربة الإسعاف وسط جمهورعريض من السكان والمارة، ووقفت زوجته تبكي على مدخل الزقاق بحرقة وبجانبها هاني وزيزو واجمين..

اقتربت منهما فقال زيزو:

- أول حالة بالمنطقة.. أصيب جارك بكوفيد-١٩ وسينقلونه إلى مستشفى العزل.

حينها انطلقت سيارة الإسعاف وسمعت صوتها يحرك الشارع بأكمله، نظرت إلى زوجته التي يفصلني عنها متر واحد فابتعدت عنها، قال هاني وهو يغطي فمه وأنفه بمنديل ورقي وينظر إلى الجموع التي بدأت في الانتشار كُل إلى وجهته:

- لا مجال للعب يا صديقي.. سأهاتفك.. هيا يا زيزو..

غادرا واقترب سعيد مني قائلًا:

- الحكومة حظرت حركة المواطنين من الساعة السابعة مساء وحتى السادسة صباحًا، وإغلاق كافة المحال التجارية والحرفية وكل شيء من الساعة الخامسة مساء وحتى السادسة صباحًا.. من الغد الأربعاء ولمدة أسبوعين، سنموت من الجوع..

تركته وهرعت إلى بيتي لأستعد لمقابلة لقاء، وجدت الباب مفتوحًا! هل تركته هكذا؟ دارت برأسي الظنون، ربما أحد إخوتي أو أبي، لكنهم يعلمونني قبل وصولهما، ربما لص، مستحيل، لن يجرؤ لص على الاقتراب، لمحت أحدًا يصعد الدرج بسرعة! صعدت وراءه في حذر وعندما وصلت للشقة كان النور بداخلها مضاء! وقفت للحظات أسترد أنفاسي، أدرت المفتاح وفتحت باب الشقة، صحت مندهشًا..

- لقاء!

كانت جالسة تنظر في ساعتها، نظرت إلي في برود وأجابت:

- هل أثرت فضولك؟

أغلقت الباب وقلت:

- ألسنا على..

قاطعتني..

- أردت أن أراك على حريتنا..

ابتسمت واقتربت منها متوددًا فأوقفتني وأشاحت بوجهها، ابتعدت عنها مندهشًا وأفرغت ما بجيبي على منضدة السفرة ودون أن أنظر إليها سألت:

- وأين البنات؟

قامت عاقدة ذراعيها وقالت في جدية لم أعهدها عليها معي:

- جئت لأقول إن هذه البيئة لا تناسبني ولا تناسب البنات.

فغر فاهي مندهشًا.. لقد تحقق كلام زيزو، استرسلت وكأنها تبث نشرة أخبار:

- حكيم.. دعنا ننطق بالحق، لم نكن على وئام وتفاهم لفترة طويلة، أنت تغيرت وأصبحت حكيم آخر.. أنت تعلم ما أعنيه جيدًا.

- حقًا؟ وكيف أصبحت حكيم آخر؟

- لا تسخر من الحقيقة، لم نعد نتشارك الحياة، أنت تعيش وحيدًا وتفعل أشياء مريبة، لكنك لا تكترث بالاهتمام أو حتى الاعتراف، ثم هبت العواصف على علاقتنا ولم تفعل شيئًا، بل زدت الأمر بتركك عملك وانتقالنا من الدقي إلى هنا دون مشورتي..

فهمت مقصدها فقلت:

- هذا هو مربط الفرس.. دون مشورتك، أنا رب هذه الأسرة وأنا من يقرر.

عقدت حاجبيها ونظرت في نفور قائلة:

- كُف عن هذه الأنانية، أنت لم تفكر بنا، هل فكرت يومًا في البنات؟! زميلاتهن؟ أتوبيس المدرسة الذي رفض أن يمر عليهما هنا؟ هل فكرت حينما يكبران من سيتقدم للزواج بهما؟ هل فكرت في زوجتك التي لم تسلم من عيون المارة كلما خرجت؟!

قلت مصدومًا:

- أنتِ تسخرين من أصلي ومنشئي الآن!

- أنا أبصرك بمستقبل بناتنا الذي هو بالفعل مختلف تمامًا، أنت حقًا لا تفهمني، أرأيت أننا لسنا على وئام؟!

- أنا لا أصدق! كنا على وئام وحب عندما جئتِ إلى زيارتي منذ أسبوعين تقريبًا!

أشاحت بوجهها وقالت في تلعثم:

- أنت أغويتني..

- أغويتك!

- الخلاصة.. إما أن تعود لعملك ونعود لإيجار شقة مناسبة لنا وإما..

قاطعتها بحدة:

- وإما ماذا؟

- حكيم.. أنت لا تلقي بالًا أنني بعت سيارتي من أجل مصروفات مدرسة البنات! هل فكرت يومًا كيف أواصل حياتي بدون سيارتي مع طفلتين؟

- الآن تعايرينني؟

- أنت سلبي ولا تهتم إلا بنفسك.

زادت حدتي عليها وقلت:

- سلبي وأهتم بنفسي؟ هل كُنت أعمل في وظيفتي لخمسة أيام في الأسبوع ثم ألحقهم بيومي الجمعة والسبت جولات سياحية حتى لا تكاد تحملني ساقاي من أجل نفسي؟! هل قبلت شرط ووساطة والدك منذ البداية لأعمل في بنك وأنا خريج آثار من أجل نفسي؟!

- أنت قبلت منذ البداية وليس لك حق الرجوع في كلامك، ثم إن المرتب كان كافيًا ولم أشك إليك.. لكنك تذهب في الجولات من أجل إرضاء نفسك وغرورك، الجولات التي تسميها سياحية ولا يوجد بها إلا مصريون! أنت حقًا لا تنظر للصورة كاملة، الطلاق هو القرار الصائب لنا وللبنات.

نظرت إليها مصدومًا وقد تحققت نظرية زيزو التي لم أفكر فيها يومًا وقلت:

- بالفعل سيكون الطلاق حلًا صائبًا.

***

شهر رمضان - ٧٤٩ هجريًا- ١٣٤٨ ميلاديًا

بعد ابتهالنا إلى الله كنت أتجول في الشوارع باحثًا عن بارقة أمل، لكن يبدو لي أن الطاعون قد أتى على أي بريق أمل مُتبقٍّ، هذا الفناء العظيم الذي طال مصر بعد سنة منذ بداية حكمي جعلني أقف عاجزًا أمام رحيل الأنفس، هؤلاء التجار لم يجلبوا إلا الخراب من بلاد الفرنجة.

اشتد البرد واشتد الوباء فتكًا معه، وسحق كرامة الجميع، وعمت الفوضى الشوارع والبيوت على حد سواء، الموتى كُثر والجنازات لا تنقطع في الشوارع، كلما خرجت أراهم يطوفون بالأموات إلى طريق القبور على نحو دائم، وبات الناس يحملون الأموات على ألواح خشبية أو سلالم أو أبواب، فقد أصبح النقص حادًا في التوابيت، ونقصت الأكفنة، ومات أكثر المُغسلين بعد أن غسلوا الموتى، وعمل الكثير من أهل الخير وبعض الأمراء سبيل غُسل بدون أجر، ومات أكثر حافري القبور بعد دفن المطعونين، وبعد الجنائز يجد المُشيعون الطعن في أنفسهم وما يلبثون إلا قليلًا ويلحقون بذويهم.

علمت من يلبغا أن مراكب أخرى قدمت إلى الإسكندرية من الأندلس، وكان فيها اثنان وثلاثون تاجرًا وثلاثمائة رجل ما بين بحّار وعبيد، فماتوا كلّهم ولم يصل منهم غير أربعة من التجار وعبد واحد، ونحو أربعين من البحّارة. وعمّ الموت جزيرة الأندلس بأكملها، بعدها جاءت الأخبار أنهم يصلون في الجامع دفعة واحدة على سبعمائة جنازة!

وجدت نفسي أمام مسجد شيخوا العمري في شارع الصليبة الذي لم ينتهِ من عمارته بعدُ، وقفت بُرهة أنظر إلى ما بناه بإعجاب أنساني الطاعون لدقائق، عندها لمحت رجلًا مُلثمًا يقترب مني ويقول:

- مولاي! ألم تذهب إلى سرياقوس بعد؟

اضطربت لأنه قد عرفني بعد أن تخفيت، نظرت له ولم أجبه، رفع الغطاء عن وجهه فكان "شيخوا العمري"، قلت:

- كيف عرفتني؟

- عرفتك من هيئتك و..

- ماذا؟

- أعزك الله يا مولاي.. من حذائك..

نظرت إلى حذائي الفخم، هذا الأمير دقيق الملاحظة، أردفت:

- عاملني كما تُعامل العوام، لا أريدهم أن يعلموا أنني أتجول وحيدًا..

- بالطبع.

سرنا سويًا وقلت له:

- أوشك بناء مسجدك على الانتهاء.

- لولا الطاعون لكان اكتمل.. اللهم ارفع عنا الوباء..

- إن الوباء أوقف الحياة كلها..

زفر شيخوا زفرة تنم عن ضيق كبير وقال:

- الأحوال سيئة، أغلقت دار الطراز لانعدام الصنّاع، وأغلقت دار الوكالة، وأغلقت الأسواق وأريق ما بها من الخمور.

- وهل قدمت مراكب أخرى إلى الإسكندرية تحمل الطاعون؟

- قدمت مركب أخرى فيها إفرنج قلائل فأخبروا أنهم رأوا بجزيرة طرابلس مركبًا تحوم عليها طير كثيرة، فقصدوه فإذا جميع من فيها قد مات والطير يأكلهم، وقد مات من الطير أيضًا الكثير، فتركوهم ومروا فلما وصلوا إلى الإسكندرية مات منهم زيادة على ثلثهم.

تخيلت ما مروا به وتذكرت حديث مِسكة فقلت:

- علمت من الست مِسكة أن الفلاحين وجدوا دودًا في جميع زراعات مدينة دمنهور والبرلس، وتلف أكثر تمر النخل عندهم.

- صحيح، صارت الأموات على الأرض في جميع الوجه البحري ولا يوجد من يدفنها.

صارعت البكاء ووقفت السلطنة بيني وبين مشاعري أمام شيخوا فسألته وقد تحشرج صوتي..

- وماذا عن أهل بلبيس وسائر الشرقية؟

- عجز الأهالي عن ضم الزرع لكثرة موت الفلاحين يا مولاي، أنت تعلم أن ابتداء الوباء عندهم من أوّل فصل الصيف أثناء شهر ربيع الآخر من سنة تسع وأربعين وسبعمائة، فاحت الطرقات بالموتى، ومات سكان البيوت ودوابهم ومواشيهم، وامتلأت مساجد بلبيس وفنادقها وحوانيتها بالموتى، ولم يبقَ مؤذن، وطرحت الموتى بجوامعها، وصارت الكلاب فيه

تأكل الموتى. ثم قدم إلينا الخبر من دمشق أنّ الوباء كان بها آخر ما كان بطرابلس وحماة وحلب.

غلبتني دموعي وقُلت:

- لقد عم الوباء كل المدن، علمت من صرغتمش أن دمياط نُكبت وقرى الدلتا هي الأشد نكبًا، وحل الجفاف ببساتينها وأشجارها.

رأيت دموع شيخوا صريحة وهو يعلق ونحن سائران ببطء:

- الصيادون يلزمون الميناء على أمل الصيد، لكن الطعن قد تفشى، وسيطر الخوف والذعر على الجميع،

توقف عن الحديث لدقائق وأكمل:

- لقد عظم الوباء بالمحلّة أيضًا، حتى إنّ الوالي لا يجد من يشكو إليه، والقاضي إذا أتاه من يريد الإشهاد على شخص لا يجد من العدول أحدًا إلا بعد عناء لقلّتهم. وصارت الفنادق لا تجد من يحفظها، ومات الفلّاحون هناك بأسرهم إلا القليل، فلم يوجد من يضمّ الزرع أيضًا.

لم أستطع الخوض أكثر في الحديث وشعرت بالغم يكبس على أنفاسي فقلت:

- نصحني الأمراء بالذهاب إلى "سرياقوس" حينها خوفًا علي من الطاعون.

- خيرًا تفعل يا مولاي.

رُبما كانت نهاية العالم، لكني بقيت أدعو الله في سري وجهري، ليلًا ونهارًا، ألا يطولني الوباء، فأنا أريد أن أحيا، وأن يبقى نسلي إلى يوم الدين، لا أن يندثر كما العالم.

***

الثاني من إبريل ٢٠٢٠ ميلاديًا - ١٤٤١ هجريًا

لم تشهد مواقع التواصل الاجتماعي هذا الزخم من قبل، الجميع يتسابق لعمل أطعمة مختلفة! الساعة الثالثة مساءً، على مرمى البصر لا يوجد إنسان واحد، شعرت بخطوات ورائي فالتفت بسرعة، كان كلبًا يتبعني، هذا "شيكو" الكلب الذي يرعاه سعيد، لابد أنه جائع، نظرت إليه في شفقة، فوقف يبادلني نظرات تستعطفني، لابد أنه جائع مثلي، مشيت وشيكو يلازمني، تجاوزنا شارع "ابن طولون" والقطط والكلاب في الشوارع تبحث في القمامة عن طعام، عندما وصلت لشارع الصليبة لم أجد إلا مطعم "سيد بلبل" يستقبلنا، وقفت حائرًا، هل يأكل الكلب الكشري!

كُنت ألتهم طبقي وأنظر لشيكو، لم أرَ في حياتي كلبًا يأكل كشري بنهم مثل شيكو! حينها اقترب مني طفل وقال مُستعطفًا:

- أعطيني شيئًا لآكل.

- اجلس سأبتاع لك كشري.

تغيرت نظرة الطفل وقال:

- أعطني نقودًا.

- حسنًا.. لا نقود ولا طعام..

أشاح لي بيده وقال بنبرة حانقة:

- يا رب تأخذك الكورونا.

صاحبني شيكو مرة أخرى وكأنه يؤنسني في هذا الوقت الموحش، الآن علمت لماذا يحب الناس تربية الكلاب، دخلت العمارة وأغلقت الباب من الداخل، منذ أن رأيت تلك السيدة الشاحبة وأنا لا أتواجد وحيدًا في البيت لفترة كبيرة، لكن يجب أن أتغلب على هذا الخوف.

وقفت في البلكون وفتحت الكاميرا، أحاول أن أحافظ على طاقتي الإيجابية، هذا الوباء الذي نعيشه يذكرني بلعبة "إستغماية" مقارنة بأوبئة العصور الوسطى، لذلك قررت أن أستغله لصالحي، صحيح لن أقوم بجولاتي، لكني أستطيع جني المال عبر نشر فيديوهات على اليوتيوب، العالم كله اتجه نحو الشاشات، سأوثق حالة الشوارع والآثار في هذا الخلاء والوباء.

سأبدأ من الآن..

طائران وحيدان في السماء، أطلقا العنان لأجنحتهما بحرية فوق سماء القاهرة الخالية، يُحلقان في عشوائية منظمة، يجوبان السماء شرقًا وغربًا، شيكو يجلس على السيارة الخربة أمام المقهى، مقهى "كُنكُن" التي لم تكف يومًا عن الضجيج مُغلقة وابتسمت في أسى بينما تسجل الكاميرا حالة الشارع، أين أنت يا سعيد؟ أفتقد حديثنا القصير الذي كنت أتهرب منه لانشغالي، لم أتخيل أن أفتقد أبسط الأشياء التي أخذتها على اعتبار الدوام، المحال مُغلقة، الدكاكين الصغيرة أغلقها أصحابها خوفًا من الغرامة قبل الكوفيد، أفتقد حركة المارة والباعة الجائلين، أفتقد الونس الذي كُنت أسميه منذ أيام قلائل إزعاجًا، حتى صراخ الأطفال الذي طالما أيقظني من نومي في ساعات الليل، أفتقد أمي وأبي وأخواتي ولقاء ونور وآية، ولا أعلم لماذا أفتقد جدتي الآن وبشدة! الأمر كله أشبه بكابوس يخطف الأنفاس، لا عائلة ولا عمل، خواء وخلاء لم أشهده قط إلا في كُتب التاريخ.

رن هاتفي وكان أبي المتصل، أخذ يعاتبني في مسألة الطلاق والكاميرا ترصد حركات الطيور والحيوانات..

- هل تظن أن حياتي مع أمك مرت هادئة؟ لقد تشاجرنا آلاف المرات، لكننا لم نفكر في الطلاق، ألا تعلم أن الأمور تنصلح إذا أردت حقًا إصلاحها؟ ولا تصدق أن حياتك ضنك لبعدك عن الله؟ ما يؤسفني أنك لا تقيم للأمر وزنًا! وما ذنب البنات؟ وإذا كان عملك الحالي لا يكفي أسرتك فواجبك أن تعاود العمل بالبنك.

كُنت أتوقع كلامه وأجيبه "حاضر" دون الالتفات إلى معنى الكلام، أدرت الكاميرا إلى الشقة بعفوية وإذا بي أرى زيزو عبر الكاميرا مُرتديًا عمامة وعباءة مُزركشة وهو جالس على كرسي ليس في الغرفة! ارتعشت يدي ووقع الهاتف وسمعت صوت أبي..

- تعال إلى شبرا قبل وقت الحظر.

أمسكت الهاتف بيد مُرتعشة ووجهت الكاميرا حيث رأيت زيزو فلم يكن هناك! أجبت أبي مُقتضبًا:

- صدقني سأكون بخير، أمهلني بعض الوقت.

أغلقت الهاتف وراجعت الفيديو، كل شيء مُسجل عدا رؤية زيزو التي كانت ضبابًا أسود في الفيديو! بدأ توتري يزداد ولم أعلم ماذا أفعل؟ حينها سمعت دقات عنيفة على الباب، خرجت من الغرفة مُتمهلًا وفتحت الباب فرأيت زيزو! دخل وأنا أحدق فيه واجمًا وهو ينظر مُندهشًا، سردت له ما حدث وهو مُندهش لكنني قاطعت أفكاره..

- تساورني الشكوك حول أشياء أبيك في شقة جدتي، ترى هل بها مس شيطاني؟

- الآن بدأت أقلق عليك من الوحدة يا حكيم.

- هل تمزح معي؟ وما تفسيرك لكل ما رأيته وسمعته؟

- باريدوليا.. هذه ظاهرة نفسية يستجيب فيها العقل لمحفزات عشوائية، صوتًا أو صورة.. لكن لا شيء منهما حقيقي، هناك أطباء تتطوع الآن للمساعدة عبر الإنترنت بدون مقابل، ما رأيك؟

حينها سمعنا صوت ضجة كبيرة تأتي من شقة جدتي، أخذت المفاتيح وبدون أن أتحدث فتحت الباب وهبطت إلى شقة جدتي وزيزو ورائي، قبل أن أفتح الباب بات صوت الضجيج من داخل الشقة مؤكدًا، والأنوار مغلقة، لكننا رأينا معًا خيالات خلف زجاج الشراعة! نظر زيزو بحذر وقال:

- ليس من الحكمة ما تفعله ربما كان اللص مسلحًا.

تجاهلته وفتحت الباب ووجدت الشقة كما هي! دخلنا لنتفقد الشبابيك وكانت كلها مغلقة، وفجأة ارتجت المنضدة النحاسية إلى أن وقع الطست النحاسي من فوقها وتدحرج إلى أن وقف بجانب قدم زيزو! وسمعنا صوت خطوات في البيت غير محدد وجهتها، ثم التفت زيزو وراءه فجأة مرتعبًا وأخذ يجول ببصره حوله، نظرت إليه مستفسرًا فرأيته يمسح العرق عن جبينه وقد بدأت أنفاسه تتسارع وهو يقول:

- شعرت بيد تلمس كتفي الآن!

حينها سمعنا صوتًا حازمًا واضحًا لسيدة تقول:

- إن الله يسمع ويرى.

جحظت عينا زيزو خائفًا وأخذ يتلفت حوله ويردد بنبرة لم أسمعها منه من قبل:

- ما هذا؟ ما الذي يحدث؟!

نظرت إليه ساخرًا..

- باريدوليا.. هل تريد أن نستشير طبيبًا نفسيًا معًا؟

***

شهر رمضان - ٧٤٩ هجريًا - ١٣٤٨ ميلاديًا

البيوت مهجورة، الحوانيت مغلقة، لا زرع ولا ماء ولا دواء، البهائم والطيور نفقت عن آخرها، حتى الجمال والبغال، وبتُّ أخاف أن يأكل الناس بعضهم البعض كما فعلوا قديمًا في الشدة المستنصرية، وبدأ القضاة يشتكون، فالمواريث لا تجد من يرثها، لقد فنت عائلات كاملة عن آخرها، ولم يعد لبيوتهم ومالهم ومجوهراتهم ومقتنياتهم وريث شرعي، إنه الموت الأسود، كثر الورث ولا يجد من يرثه، فذهب الورث كله لبيت المال.

يظن الأمراء أنني لا زلت أقيم في سرياقوس، لكنني غافلتهم ووجدت طريقي إلى القاهرة لأطمئن على أحوال رعيتي، واضطررت أن أتوقف في منتصف طريقي أكثر من مرة لأستبدله بطريق آخر؛ ذلك لأن الجثث التي تحللت في الطريق ولم تدفن أعاقت السير في بعض الطرقات، أكملت سيري فقتضبا حزينا، وعند "باب الوداع" رأيت جنازة لعدد كبير من الموتى لم أستطع أن أحصيه وسمعت أحد المصريين يترحم عليهم ويقول على أحدهم:

- من يرثك يا وارث.. هذا آخر فرد في عائلته.. كلهم سبقونا لدار الآخرة.. سبحان الدايم.

وكانت هذه إحدى العائلات المصرية الثرية الكبيرة التي اشتغلت بالتجارة، كنت أرى كبير عائلتهم يأتي لمسكة لتتوسط له عند أبي السلطان لقضاء أموره، الآن وقد احتل الموت بيوت مصر، فلا يوجد عائلات كبيرة ولا صغيرة، فقد مات النساء والرجال، الأطفال والشيوخ، الجواري والعبيد، وأصبحت البيوت مهجورة بائسة، وتكدست الجثث فوق بعضها في الشوارع، لا تجد من يدفنها بعد أن مات القائمون على غُسل الموتى، ومات حافرو القبور، الجنازة تمر بمشيعيها فلا يرجعون إلا وقد مات أغلبهم.

أسير بخطوات بطيئة، أخاف أن أتعثر في بقايا إحدى الجثث في الطريق، أو في جثث الحيوانات المطعونة، رائحة الموتى في الطرقات تسد الأنوف والعقول، حتى إن بعض الجثث تركها ذووها بالمساجد، خوفًا أن تنهشها الكلاب والحيوانات الجائعة كما قال شيخوا، وأغلقت المساجد خوفًا من الطاعون، وصار من بقي من الأحياء يصلون في الخلاء.

لم أتخيل يومًا أن أعيش هذه الفاجعة، هل هذا حقًّا شهر رمضان؟ شهر كان يملأ نفوسنا وبيوتنا بالفرح والخير؟ أين الناس والباعة، أين زحام الأسواق؟ أين صخب الأطفال في الشوارع؟ وأين الزينة؟ أين موائد الإفطار والسحور؟ أين صلاة التراويح والفجر؟ لا شيء على الإطلاق، لا شيء سوى الموت.

وشعرت في هذا التوقيت أنني أفتقد أبي بشدة، وأنني تائه بدونه لا أملك بوصلة للوصول، ليت الوباء شخص أقتله، لكنه جند من جنود الله كما سمعت الشيخ يقول في خطبته.

***

عند مسجد "أحمد بن طولون" نظرت حولي في كل الاتجاهات في عجب وحزن، لم أجد من الناس حتى فردًا واحدًا! لعله كابوس أستيقظ منه على خير، صارت دماء المماليك ومذابحهم أهون عندي من هذا الخلاء الذي يحده الموت من كل جانب، فمذابح المماليك لها السيف، أما الطاعون فليس له إلا الدعاء.

وفجأة سمعت خلفي أصوات حشرجة مُخيفة، استدرت ببطء وقد كتمت أنفاسي من الذُعر، إنه كلب! لكنه تحول إلى وحش، كان يحوم حول إحدى الجثث المُلقاة بجانب الطريق، كانت جثة لم تتعفن بعد لشاب في مقتبل عمره، نظرت إلى وجهه المطمئن وخُيل إليّ أنه يبتسم! كانت ملابسه لم تتسخ بعد، لابد أن ذويه ألقوه منذ ساعات قليلة، خِفت على الميت أن يأكله الكلب كما حكى لي شيخوا، نظرت حولي أبحث عن حجر لأبعده عن الجثة فلم أجد، كما أن ست مِسكة كل يوم تؤكد على ألا ألمس شيئًا خارج القصر أبدًا، فكيف أُمسك بحجر من الشارع، سار عليه أناس وحيوانات مطعونين، وقبل أن أتصرف كان الكلب يمزق ملابس الميت بسرعة فائقة وكأنه اعتاد على ذلك، وسالت دموعي أنا السلطان ولم أقدر على إخفائها.

بات الميت عاريًا الآن وأنا أقف عاجزًا وخائفًا، وصار بكائي عاليًا واضحًا خلف غطاء وجهي الذي تلثمت به، وبقيت أدعو الله ألا يفترسه، لكن في غضون ثوانٍ كان الكلب قد مزق ذراع الميت وبدأ يقطع لحمه ويكسر عظامه بأنيابه وكأنه بقايا ذبيحة، وصوت العظام المُنكسرة واللحم المُمزق يكسر قلبي ويمزق كياني، وسرعان ما انضم للكلب كلاب وقطط جائعة من كل حدب وصوب، والتفوا حول الجثة، وبقوا ينهشون لحم الميت من كل الاتجاهات في نهم!

***

الثاني والعشرون من إبريل ٢٠٢٠ ميلاديًا - ١٤٤١ هجريًا

لم أز زيزو منذ الليلة الأخيرة، لكني شككت في عقلي وانشغلت بالقراءة عن الباريدوليا، خاصة بعد عدم حدوث أي شيء مريب آخر، وبدخول رمضان أردت قضاء أول أيامه معهما، زحام الناس في شوارع "السيدة زينب" يصرح بأن لا أحد يأبه للوباء، فلينتشر الفيروس وينهي حياتنا قبل أن ينهيها الجوع، ويا ليتني مثلهم لا أقاوم تناقض شخصيتي، مررت على "حلواني الحلمية" وابتعت "البسبوسة" لأن البنات تعشقها مثلي، لكن لقاء تمنعها عنهما لأن السكر غير صحي، ضغطت الجرس قبل مدفع الإفطار بدقائق، فتحت المُربية الباب فهجمت على روائح أصناف الطعام، دخلت على استحياء إلى الصالون كضيف، لم تنقضِ دقائق ورحب بي والدها ترحابًا لم أعتده منه، وتبادلنا الأسئلة الروتينية حتى انطلق مدفع رمضان وتقدمني إلى السفرة والأذان يجلجل حولنا.

لم أشعر بنفسي وأنا أفتح ذراعي لنور وآية وهما يهرعان إلى حضني، يقبلاني وأضمهم بكثير من الشوق والحسرة، لم أشعر بغلاوتهما إلا في البُعد، قالت نور:

- هل نبيت الليلة في شقتنا؟

تأثرت بشدة ووجدت الجميع يراقبونني في شفقة، عدا لقاء، حينها علمت أنني لن أستطيع تحمل بُعد بناتي أبدًا، حتى ولو كان الثمن أن أتحمل لقاء.

جلسنا على مائدة الإفطار، وساد الصمت إلا من صوت أدوات المائدة ترتطم بالأطباق برقة، شردت وشعرت أن الأمر بيني وبين لقاء أصبح معقدًا وغير سوي، أراها امرأة غريبة، بدت قوية كالحجر، هكذا تفعل القرارات بعقولنا، نتخذ القرار بلا رجعة فنصبح أقوياء بين يوم وليلة، ألهذا الحد أرادت أن تتخلص مني؟!

لكنها أربكتني لما رأيتها تحمل أطباق البسبوسة بعد الإفطار! نظرت لي في تحدٍّ وجلست تأكل في نهم! لم أعد أفهمها، لكنها تفهمني وتعلم أنني أردت استفزازها فلم تعطني الفرصة، أخذت طبقي وجلسنا جميعًا حول التلفزيون، وذهبت أمها وثريا تُصليان، والعجيب أن أحدًا من أسرتها لم يتطرق إلى موضوع الطلاق رغم علمهم به، قال والدها:

- والله قلبي يدمع منذ أغلقت المساجد والكنائس، وكأن الله قد أغلق أبوابه جميعًا في وجوهنا، الآن نصلي التراويح في البيت.

كُنت قد التهمت قطعة بسبوسة كبيرة منعتني من الحديث فأشرت له بالموافقة فنظرت لي لقاء في ازدراء صريح وقالت:

- لعل كل ما يحدث عقاب من الله للناس وتذكرة، كانت بيوت الله مفتوحة للعبادة طوال أعمارنا لكن لم يعمرها أحد يا أبي!

حاولت أن أبتلع ما بفمي لكنني سعلت بشدة، وأنقذني صوت جرس الباب، كان حارس العقار، لم يفهم والدها ما رمت إليه ابنته وقال بجدية:

- الله وحده أعلم، ما يقلقني أن غرف العناية المركزة تكدست بالمرضى.

حينها جاءت إليّ نور وآية فجلستا بجانبي، وبعد حديث قصير تثاءبت آية كثيرًا فأخذتها لقاء للنوم، ثم وجمت نور والمُربية تأخذها من بين أحضاني وتبتسم لي بشفقة، عادت لقاء وعقدت ذراعيها في هدوء وقالت:

- أريدك في أمر هام..

قُمت من مكاني قائلًا:

- سأصلي التراويح مع والدك..

- لقد شرع أبي في الصلاة.

نظرت إلى اتجاه آخر بضيق فأكملت هي..

- إنني أنتظر بفارغ الصبر كي ننهي إجراءات الطلاق، فقط حاول أن تسأل على بناتك، إذا كنت تظن أنهم بحاجة إلى ما تبعثه من نقود كافٍ فأنت مخطئ، سأربي أولادي جيدًا.

زفرت زفرة طويلة وأنا أتوقع ماهية أمرها الهام الذي راهنت نفسي على تفاهته وسخرت منها:

- هل من أمور هامة أخرى؟!

- فقط أردت أن أعلمك شيئًا يخصك.

- تفضلي..

قالت في برود:

- أنا حامل..

التفت إليها وكأن صاعقة أصابتني من السماء، لم أعرف كيف أشعر.. هل أفرح أم أحزن؟ هل أنا في وضع يتحمل مولودًا جديدًا ومسئوليات أكثر؟ شعرت أن الأرض تدور بي وأن السماء ستطبق عليّ.

شهر شوال- ٧٤٩ هجريًا - ١٣٤٨ ميلاديًا

"اللهمّ هون بألطافك النازلة الواردة من فيضان الملكوت، حتى نتشبث بأذيال لطفك، ونعتصم بك عن إنزال قهرك، يا ذا القوّة والعظمة الشاملة، والقدرة الكاملة، يا ذا الجلال والإكرام"

عند عودتي من "سرياقوس" سمعت الناس يصيحون بهذا الدعاء خارج القاهرة عند قبة النصر، والذي جاء به نائب حلب من هناك، كنت أرى اجتماع الناس بعامة جوامع مصر والقاهرة، يدعون الله ويقنتون في صلاتهم؛ أملًا في انقشاع الغُمة.

سرت في القاهرة مُتخفيًا كعادتي وقد بدلت حذائي؛ كي لا يفطن إلي أحد المماليك مرة ثانية، صار يخرج في كل يوم نحو عشرين ألف جنازة! وحُفرت القبور الجماعية والخنادق لاستيعاب أعداد الموتى، سمعت أحد الحانوتية يقول إنهم يدفنون ما بين الثلاثين إلى الأربعين نفسًا في حفرة واحدة، وبقيت حتمًا أغطي نصف وجهي الأسفل من أجل التخفي واتقاء لرائحة الموت، بعد أن تكدست جيف الجثث بالآلاف في الشوارع والمساجد والحوانيت، وسمعت صوتًا تألفه أذني يقول:

- صارت القيامة قاب قوسين أو أدنى..

ورأيته من جديد على بُعد أمتار، الدرويش شهاب الدين يسير مع درويش آخر غير ملثمين، هذا الملعون أو المبروك لا أدري أريد أن أتحدث إليه، شرعت أن أتوجه إليه لكني شعرت بيد تمسك ذراعي بقوة، انتبهت فرأيته طفلًا بعمر الثامنة تقريبًا قذر الهيئة، له رائحة نتنة، أبعدت يدي عنه فاقترب مني مرة أخرى يقول باستعطاف وذل:

- شيء لله.. أريد خبزًا أو جرعة ماء يا سيد.. أطال الله عمرك وأبعد عنك الطاعون..

في سرعة أعطيته كيس قطيفة به مال كثير، نظر إليه بعدم اكتراث وألقاه إلي مرة أخرى قائلًا:

- وماذا يفعل المال بعد أن فرغت الأسواق من الطعام؟ الطعاااام أهم من المال..

التف حولي بسرعة أطفال ونساء يسألونني مثله، فصاح الطفل فيهم:

- ليس معه طعام.

وفي غضون ثوانٍ كانوا قد تجمهروا حول رجل يقف على ناصية الشارع يوزع أموالًا وخبزًا بسخاء لم أشهده من قبل، تهافتوا على الخبز وأخذوا يأكلون بنهم ويخطفونه من

بعض، تأملت جوع الناس وأكملت طريقي حزينًا.

أكملت طريقي فرأيت بعض البيوت وقد فُتحت أبوابها على مصراعيها، كان بداخلها وأمامها كثير من القطط والكلاب والخيول والجمال والحمير، كلها مطعونة، بدت أنها ماتت بجانب أصحابها، ثم لمحت رجلًا من العامة يغطي أنفه وينظر إلي قائلًا:

- لا تستنشق هذا الهواء يا بني، يقولون إن الطاعون سار ينتشر بالهواء، هذه الحيوانات كانت جائعة، فكلما دخلت البيوت لتأكل طالها الطاعون وطُرحت كما ترى، حتى الطيور لم تسلم من الطعن.

يا رب أعني ماذا أفعل؟! هل يستطيع السلطان أن يدفع كل هذا عن رعيته؟! لكن ما هوّن على نفسي العجز علمي أن الوباء قد تفشى على أشده في بلاد الفرنجة، واتصل ببلاد الشرق جميعها، وأن الطاعون قد أهلكهم جميعًا ودوابهم وطيورهم، ولم ينجُ إلا أقل أقل القليل حتى إن بلادًا كاملة قد فنت.

تذكرت كلام شهاب الدين الدرويش الذي بات يتحقق كل يوم، الغلاء عم كل شيء، فلا محاصيل ولا ماشية ولا طيور ولا فلاحين، وعز القوت وفتك الجوع بالجميع مع الوباء، لقد بدأت الأرض الزراعية في التصحر بعد أن مات الفلاحين، ولم يبقَ منهم إلا القلائل، وبلغ طحين إردب القمح الآن خمسة عشر درهمًا! وكل ويبة قمح بمائتي درهم، حتى رواية الماء بلغت اثني عشر درهمًا!

أسير في شوارع المحروسة فلا أقابل من المارة سوى نفر أو اثنين على الأكثر، راحت أنفس كثيرة لا حصر لها، ومن بقي حيًا يعتصره الحزن كل يوم على فراق أهله وأحبابه، ويتمنى لو أن الوباء قضى عليه معهم.

عُدت إلى القصر واجمًا، كانت الست مِسكة في دور الحرم تدور في غرفتها ذهابًا وإيابًا من شدة قلقها، ما إن رأتني حتى جلجل صوتها:

- لك الحمد والمِنة يا صاحب الفضل والنعم.

ثم أقبلت علي في لهفة وانتشر ما تبقى من الجواري في أرجاء القصر عند دخولي، كأنني نقطة خل في وعاء زيت، عدا زُبيدة الجارية التي كانت تبطئ في مشيتها وتطيل إليَّ النظر، كانت مِسكة تشدد دومًا على عدم حضور أي من الجواري عندما تختلي بي، نظرت في عيني جيدًا وقالت:

- أتريد أن أموت في نوبة قلق عليك؟!

قُلت في صوت خافت:

- أطال الله في عمرك.

تفحصتني عيناها وقالت:

- لقد طال الوباء كل شيء، الحل الأسلم أن نعزل أنفسنا فننجو حتى يعفو الله عنا.

نظرت إليها حزينًا غير مُبالٍ بما تقول، لكنها تفحصت ملامحي وقالت:

- أعلم رقة قلبك وتأثرك بما يدور حولك، صدقني سيرفع الله الوباء، لكن كل شيء عنده بمقدار، تعال اجلس هنا.

جلست أمامي كأم تحتوي صغيرها الذي يحاول أن يفهم الدنيا من حوله.. ابتسمت ملامحها وقالت:

- أريدك أن تنتبه لأمور السلطنة..

هممت أن أتكلم لكنها قاطعتني..

- اعلم أن الأمراء يسيطرون على مقاليد الحكم، لكن لابد أن تعلم كل شيء، لابد أن يتفتح ذهنك من الآن، وأن تتعلم كيف تسير الأمور وكيف تتصرف فيها، التدريب على السلطة أهم من السلطة، حتى في أحلك أوقات كوقت الطاعون لابد أن تعمل شغلك، فإذا لقيت الله تكون قد وفيت بما أوكلت إليه، هل تفهم ما أقول؟

أومأت برأسي مُوافقًا ولم أفهم كل ما قالت، استكملت حديثها..

- تعلم أن أرباب الأموال قد زهدوا في أموالهم وبذلوها للفقراء.

- نعم رأيت ذلك بعيني.

- لقد بعث الوزير منجك مسئولين إلى الغربية، فدخلوا على سنباط وسمنود وبوصير وسنهور ونحوها من البلاد، وأخذوا مالًا كثيرًا، لم يُحضروا منه سوى ستين ألف درهم فقط!

قُلت بيأس:

- وهل أستطيع أن أسترد الأموال وهم يتحكمون في كل شيء؟!

بدت مِسكة في شدة الغيظ وهي تضرب منكبيها وتقول:

- سأبذل كل ما أستطيعه من جهد لأستردها للدولة، إن الناس لا تتعظ مهما طالها السوء، وهل بعد الطاعون والموت شيء؟! من لم يكن الموت له واعظًا لن تنفعه المواعظ.

الخامس والعشرون من إبريل ٢٠٢٠ ميلاديًا - ١٤٤١ هجريًا

وقفت عند العمود المُزخرف عند ناصية البيت اليسرى، أمام "مقهى كُنكُن" المغلقة من الخارج، أراقب الطريق يمينًا ويسارًا كي لا يراني أحد، شعرت كأنني هارب من سجن، يُلاحقني سجّانه، وأعلم أنني سأعود لهذا السجن الإجباري مرة أخرى، لكني لا أعلم لماذا أشعر بالإثارة لمجرد ذهابي لمقهى تحت بيتي!

بعد لحظات فُتح باب المقهى الجرار حتى نصفه، نظر سعيد يمينًا ويسارًا كفأر يستكشف المكان قبل أن يخرج من مخبئه، وأشار لي أن أدخل، أسرعت في خطواتي وأحنيت قامتي ودخلت المقهى، فأُغلق سعيد الباب الجرار على الفور.

سمعت صوت زيزو كبوصلة، اتجهت إليه وكان قد انتهى من إعداد سيجارة التبغ التي يصنعها بنفسه، جلست أمامه فابتسم صديقي بعدما قرأ علامات الاستفهام على وجهي مُناديًا سعيد:

- واحد شاي وواحد قهوة على الريحة، هل كنت تنتظر من المصريين أن يديموا العزل؟ الطوابير لا تنتهي عند باعة المحمصات والفُسليات.

أعلم أنه يدير دفة الحوار في اتجاه مُخالف؛ كي لا يتحدث عن ما رآه بعينه، نظرت له وعقدت ذراعي وقد فهم ما أريد قوله فقال وهو يشعل سيجاره:

- ما رأيته في تلك الليلة أصابني في مقتل كل ما آمنت به طيلة حياتي، وفكرت مليًا في أن الطست النحاسي والمنضدة بهما شيء شيطاني.. لكن لماذا لم يظهر هذا الشيء إلا في بيتك؟! لم أرَ أي شيء في بيتي أبدًا! لكني أصارحك أخاف أن آخذ هذه الأشياء إلى بيتي الآن، على الأقل هما في بيت خالٍ، ابحث عن المشكاة وتخلص منهم جميعاً.

- أتذكر أن جدتي حفظتها في كرتونة كي لا تنكسر ولا أعرف أين هي، لابد أن أبحث عنها، أجبني ماذا نفعل الآن؟

- لا أعلم.

- أنت لا تعترف بالأمر إلا إذا حدث معك.. مثل كثير من الناس.

- اعذرني يا حكيم، لكن ماذا ستفعل الآن؟ هل تترك البيت؟

ابتسمت ساخرًا وأرحت ظهري للوراء قائلًا:

- الآن في الوباء والإغلاق؟ مستحيل طبعًا، فكرت في بيت أبي بشبرا لكن هذا أيضًا يؤكد

لأبي فكرة الطلاق ولا أريد أن أكسر قلب أمي.

- لا أعلم ماذا أقول..

لم أجِبه لأنني لا أعلم ماذا أفعل، نظرت إلى المقهى المكتظ بأناس أراهم لأول مرة في المنطقة، الكثير من أهل الحي، سعيد يبدو سعيدًا بين الناس والحجر المشتعل! صوت التلفزيون خافت، الناس تتحدث وتلعب الدومينو والشطرنج وتدخن، لا أحد يرتدي الكمامة الطبية، البعض أسقطها تحت ذقنه في حين اكتفى البعض الآخر بربطها حول ذراعه! قلت مُحبطًا:

- في أجواء كهذه سينتشر الوباء.. وسيموت الكثير.

قال بعدم اكتراث:

- سنموت جميعًا في كل الأحوال.. لتكن موتة سريعة..

نظرت إليه بتمعن وقلت:

- تعلم يا زيزو.. أنا أحسدك.. لا زوجة ولا أطفال، خالٍ من المسئوليات مُرتاح البال، لا يعني الوباء لك شيئًا.

- أنت تبالغ، لدى عائلة كبيرة، سبق وقلت لك الزواج مسئولية كبيرة، لكن أنت اخترتها بإرادتك.

- والمصيبة أن لقاء حامل وتريد الطلاق.

ضحك زيزو بعفوية ونظرت له حانقًا، تدريجيًا أوقف ضحكاته وحاول أن يرسم بعض الجدية على ملامحه وأشار بكفه قائلًا:

- آسف لم أقصد، لكن الطلاق أمر جنوني مع حمل جديد، كان الله في عونك.

- لك حق أن تضحك، أما أنا فلي الحق أن أبكي، لهذا أحسدك.. فهمت.

- الأمر ليس كما تراه، أنت ترى عيوب حياتك لأنك تعيشها ولن يستطيع أحد أن يرى عيوب حياتي إلا إذا كانت تجربته مُماثلة، وهذا شيء مستحيل.

- اعتقدت أنك ومنى ستتزوجان ثم..

قاطعني بحدة:

- لا أريد الخوض في هذا الأمر..

ساد الصمت ولاح الغضب على زيزو فقلت:

- ما هو الموضوع الذي تريد إخباري به؟

وكأنه أراد مثلي تغيير دفة الحديث فأجاب سريعًا:

- شخصية يهمنا أمرها تستقر في مصر.

نظرت له في فضول، ابتسم كمن يكشف عن كنز..

- آخر نسل المماليك.. كان يعيش في فرنسا لكنه قرر أن يتركها ويستقر في مصر.

- وأين نلقاه؟

- في قصره بإحدى الجزر المطلة على النيل..

ثار فضولي أكثر وسألته:

- هل يعقل أن يكون من أحفاد المماليك البحرية؟

- الجراكسة.. أريدك أن تلقاه وننظم جولات إلى قصره، لا أحد يعلم بالأمر.

ضحكت بسخرية وقلت:

- وأين هي جولاتنا السياحية؟

- ستنصلح الأحوال فيما بعد يا صديقي..

- متى؟

- عندما يريد الله.

تخيلت عودة الجولات ونسيت مشاكلي وأنا أتطلع لرؤية آخر المماليك، يا ترى من أي نسل السلاطين هو؟

***

٧٥٠ هجريًا - ١٣٤٩ ميلاديًا

تقبل الله دعواتي ونجوت من الموت الأسود، أحببت الحياة رغم كل ما رأيته من دمامة فيها، أريد أن أنجب ذرية تحب الحياة مثلي، ترحب بعمارة الأرض، وتغيير الأفكار التي تداعب خيالي حتى دون معرفة السبيل لتحقيقها، يقول الناس إن هذا الطاعون الذي وقع في دولتي لم يُسمع بمثله من قبل في الطواعين الخمس المشهورة التي وقعت في صدر الإسلام، توفي جماعة كثيرة من العلماء والأعيان والعامة والفلاحين وأصحاب الصناعات كلها، وأحصي عدد الموتى بنحو تسعمائة ألف نفس أو يزيد في شهري شعبان ورمضان فقط، لا أصدق أنه أخذ ما بين ثلثي إلى نصف سكان مصر، ولا زلنا نعاني من الغلاء الذي وقع بسبب الوباء وخسة النيل في الوقت نفسه من السنة الفائتة، وقاست الناس فيها شدائد عظيمة، هذا قدري الذي لم أستطع مواجهته، ولم تُسعفني مُساعدة الأمراء يومًا في إبداء نُصح في أمور الدولة.

الآن بدأ الوباء في الانحسار ونجا القليل منه بقُدرة القادر في مصر، ونجا عدد قليل من المماليك والجواري والعبيد في البلاط السلطاني، تقول مِسكة إن الطاعون علمني كثيرًا عن الإنسانية وأنني بت سلطانًا يهتم لأمر رعيته، لكن الأخبار تؤكد أن الطاعون لا يزال يضرب بلاد الفرنجة بقوة ولا تزال البلاد لا تعرف كيف تواجهه، إلا أننا لا زلنا نعاني من آثاره العظيمة على سائر البلاد.

ما يزعجني أن الأمراء الكبار لا يطلعونني على كثير من الأمور، فأنا صغير السن حديث العهد بالمُلك، أنا السلطان إلى حين، تقول مِسكة إنهم أعطوني الولاية ليتفادوا الصراع بينهم، وأن الصراع بين أشدهم مكرًا وقوة لا يتوقف حتى وإن تظاهروا بغير ذلك، حتى في وجود دميتهم "السلطان الصغير".

قبل أن أتسلل وأغافل الجميع لأنزل من القصر سمعت الأميرين شيخوا العمري وصرغتمش الناصري يتحدثان عن ما آلت إليه الدولة بعد الطاعون، خرجت سائرًا بلا بوصلة محددة إلى ما أبتغيه، وكأن عيني تريد أن تمسح كل شبر من هذه البلد، وتسجل ما لا أراه وأنا جالس على سرير المُلك، المُعاناة في كل مكان، الأراضي الزراعية تحتاج من يهتم بها ويزرعها من جديد، المعمار توقف بناؤه وينتظر أيادي تقيمه ليقف شامخًا شاهدًا، الوكالات تنتظر من يفتحها، الحوانيت تنتظر رواجها، الفنادق تنتظر زائريها، الأسواق تنتظر البضائع على جميع صنوفها وتنتظر المشترين على جميع أجناسهم، الموانئ في السواحل تتعطش إلى سابق عهدها من رواج، الصناعات تخاف أن تندثر بعد موت صانعيها، حتى الطرقات في انتظار المارة تغدو وتجيء في كل الأوقات، مصر تنتظر أن نعيد بناءها من جديد، وأنا أنتظر معهم

جميعًا أن أصبح ملكًا يملك زمام مملكته.

ساقتني قدماي إلى شارع الصليبة، وأمام مسجد "شيخوا العمري" ظهرت غيرتي، تقول مِسكة إن شيخوا بارع في كسب مودة الناس، كان سهلًا كريمًا مع عمال البناء، وضع بالمسجد عشرين صوفيًا وخطيبًا إلى أن يبني الخانقاه فيلحقهم بها، دخلت المسجد فصليت ركعتين ثم باغتتني رؤية "طولوبية"! رأيتها أمامي! كيف حدث هذا في المسجد؟ لا أدري.

خرجت من المسجد وشعرت بحنين لم أفهمه، وخشيت لو أن الطاعون قد سلبها الحياة، خفق قلبي بشدة ومضيت باتجاه بيتها، أتمنى رؤيتها مرة ثانية! الطرقات خالية وعيني تتجول في كل الأرجاء دون حذر، لأعيد اكتشاف العالم من حولي.

وفجأة ظهر الدرويش "شهاب الدين"، خُيل إليّ أنه ظهر من العدم، هيئته لا تتغير، وقفت أنظر إليه وقد شط عقلي واستحوذت نبوءاته عليّ ونسيت طولوبية، وتذكرت احترام ست مِسكة وطولوبية له، نظر إليّ من بعيد يتفحصني بريبة لا تخلو من فطنة طفت على ملامحه، ذهبت إليه دون تفكير ورأيت ملامحه تبتسم، حينما اقتربت منه همس:

- سلطان البلاد يتجول في شوارع المحروسة دون حراس أو سيف!

تشتت ذهني فجأة، علم هذا المشعوذ بأمري وأنا مُتخفٍّ مُلثم! قُلت وأنا أواري تلعثمي..

- ماذا تقول يا رجل؟!

ابتسم الدرويش في ثقة وقال:

- عفوًا يا سيد، لقد اختلط عليّ الأمر..

نظرت له بارتياب وأنا أستجمع نفسي وقُلت:

- لقد رأيتك تتنبأ بالوباء العظيم، ثم تنبأت بوفاة شيخك، من أين لك هذه المعرفة؟

نظر الدرويش إلى السماء وأشار إليها وقال:

- هو الحى القيوم.

نظرت إلى السماء وعلمت أنه يتلاعب بي، نظرت له حانقًا..

- تشتغل بالسحر وتخاوي الجان؟

أردف نافيًا:

- أعوذ بالله من غضب الله..

- أخبرني بما سيحدث إذن..

أشار الدرويش إلى السماء بإصرار وقال بنبرة لن أنساها:

- لا يعلم الغيب إلا علام الغيوب تنزهت أسماؤه..

- أجبني.

ابتسم من جديد وأشار إلى صدري وقال:

- ابحث دومًا عن شعاع النور بداخلك واتجه إليه، لكن احذر نفسك فهي عدوك الأول.

ابتسمت مُستهزئًا، وقد رأى هذا في عيني، وقلت:

- أنت لا تملك الجواب..

ضرب بعصاه الأرض وقال بصوت أجش:

- "نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء.."

ثم ظل يسبح وينظر في السماء وأردف دون أن ينظر إلي:

- إن العوالم التي نعيشها بين ظاهر وباطن وبين أشهاد وغيبيات، سيجيء اليوم الذي تنضج فيه روحك كثمرة ذكية وتفهم غايتها ومقصدها.

نظرت له وازددت شكًّا وحيرة، عندها رأيت طولوبية آتية باتجاهنا تحمل لفافة من القماش بيدها وإبريق، رقص قلبي فرحًا وابتسمت، اقتربت ورأيت في عينيها مودة تتألق وقالت في حياء:

- أعدت لك أمي طبق "كعب الغزال(19)" يا شيخ، وإبريق مياه النيل العذبة، بالهناء والشفاء، لا تنسني من دعائك.

أخذها الدرويش وتبسم في مكر وهو ينظر في عيني، وقال:

- ومن ينسى طولوبية بنت عبد الله التترية؟!

ابتسمت في حياء وهي تمنحني نظرة عطوف، ولم أستطع الكلام فالتزمت الصمت، استدارت ومضت في طريقها وقد ملكت فؤادي وحواسي معها، بقيت أراقبها وضربات قلبي تضرب ضلوعي بعنف، التفت لأستكمل حديث الدرويش فلم أجده، نظرت في كل الاتجاهات ولم أجد له أثرًا، وكأنه تبخر في العدم كما جاء منه أول مرة!

الأول من مايو ٢٠٢٠ ميلاديًا - ١٤٤١ هجريًا

وكأني إسفنجة كبيرة تمتص أي شيء تسكبه الأيام فيها، أتشبع بأخبار المرض والموت التي تحاصرني، أشعر بانكساري وبالجدران تضيق بي وكأن المكان يعتصرني، وأنا أستسلم كشجرة شاخت وبات كسرها أمرًا هينًا.

وبالرغم من موت "العم أسعد" في مستشفى العزل بدون عزاء، الأمر الذي أفجع والدي، لكن في هذا الصباح قررت أن أقاوم وأستحضر روحي التي لم تعرف اليأس يومًا، أحضرت كل ما أجلت قراءته من الكتب لأملأ وقتي منهم، وأشبع عقلي وأكف عن التفكير في لقاء والبنات وحملها غير المتوقع.

استرخيت في غرفتي أشاهد فيلم "Self/Less" بصحبة المياه الغازية المثلجة، استحوذ الفيلم على عقلي من أول لقطة، كان يتناول قيمة الحياة ورسالتها، ستنتقل روح العجوز الذي أتعب جسده المرض إلى جسد الشاب الوسيم، هذا الشاب قد باع حياته وجسده بالمال من أجل عائلته، وهذا العجوز يريد أن يحيا من جديد ليعوض ما فاته، كل هذا عبر جهاز اخترعه دكتور في منظمة سرية لأثرياء العالم، سرح عقلي وشعرت أن الجهاز سيخرج من الشاشة إلى غرفتي مباشرة من شدة صوته، خفضت صوت التلفزيون لكن صوت دوران الجهاز لا يزال عاليًا! جعلت التلفزيون صامتًا فسمعت صوت دوران شيء قريب مني! إذن ليس صوت دوران الجهاز في الفيلم!

تلفتُّ حولي، لا شيء، خرجت إلى البلكون فلم أرَ شيئًا يجلب صوتًا مشابهًا، عندما دخلت إلى الغرفة بات الصوت أكثر قوة! شيء يتدحرج، الغريب أنه يتدحرج على خشب والأرض كلها بلاط! جلست أنظر إلى التلفزيون في غضب هذه المرة، كيف أستطيع العيش في بيت مسكون كهذا، لقد أخطأت في كل قراراتي، وما يزعجني أن لقاء دومًا تبدو على حق، هذا البيت لا يلائمنا جميعًا، نظرت إلى الغرفة واختلطت مشاعر مُتضاربة بداخلي، هل أحب هذا البيت أم أكرهه؟! خرجت إلى غرفة المعيشة أتعقب الصوت لكنه بات ضعيفًا، دخلت الغرفة وكل تركيزي أن أعرف مصدر الصوت، إن الصوت مصدره دولابي!

بدأت أدنو منه والصوت يعلو كضربات مُنتظمة، فتحته بقوة وبسرعة وكأنني سأمسك لصًا بداخله، وفجأة اصطدم بوجهي جسم صلب بقوة، أصاب جبيني فشعرت بالدوار ووقعت من شدة الصدمة، ووقعت كرة خشبية صغيرة تتدحرج على الأرض إلى أن باتت بجانبي وتوقف الصوت!

استقمت في جلستي وتحسست جبيني فوجدت دماء لم أعِزها اهتمامًا، هل كانت الكرة

تدور بداخل الدولاب! بحذر أمسكتها وبدأت أتفحصها، كرة من خشب رقيق منقوش بدقة، مربوطة بخيط أصفر سميك قديم، بدأت أحاول فك الخيط المعقد حولها، وبعد بُرهة بدأ الخيط ينحل من حولها، ثم حاولت فتحها دون جدوى، لكن الفضول والعند سيطرا على عقلي، لن أكمل يومي قبل أن أفتح هذه الكرة حتى وإن قابلت بداخلها جنيًا، إما أنا أو هذا البيت، لكنها لم تُفتح وفشلت محاولة كسرها أيضًا!

شردت وأنا أتأملها وبدأت أسمع صوت همهمات السيدة من جديد! هذه المرة آتيا من الكرة الخشبية! ألقيتها خائفًا وعرفت أنني لن أقوى على المواجهة كما زعمت.

ثم دخلت الحمام لأستحم وأزيل ما علق بي من توتر، وبدأت أفكر غير مُصدق ما أمر به، لابد أنني أحلم! بعد انتهائي وبينما أطفئ نور الحمام شعرت بيد تلمس يدي! ارتعشت وتذكرت قول زيزو فتوقفت ورجعت حيث كنت وفتحت النور، وأطفأته مرة أخرى وأنا أنظر إلى الجدران ومفتاح النور، هل أتوهم كل ما يحدث؟ يكاد عقلي ينهار لأن لا شيء منطقي هنا.

ارتديت ملابسي وخرجت لأقابل زيزو في الجمالية، لم أكن حذرًا كعادتي من الوباء، في مقهى عم سيد انتظرني زيزو بالداخل، جلست بجانبه دون سلام، نظر إليّ قلقًا وقال:

- هل وقع الطلاق؟

- لا.

- لكنك تبدو في أسوأ حال.

بعد أن سردت له كل شيء، أخذ يتفحص الكرة الخشبية وقد استعان بسكين من عم سيد، وتملك العناد من صديقي مثلي تمامًا، وكثرت المشاريب وعم سيد ينظر إلينا في فضول، لم يستطع زيزو فتحها، حينها سمعنا هاني يسلم على العم سيد ويضحكان، دخل هاني علينا بروح مرحة، جلس ونظر إلى الكرة في يد زيزو وقال:

- من أين أتيت بهذه التحفة الفنية؟ كانت لجدتي مثلها لتضع بداخلها فص من الماس..

قلت بتعجب:

- الماس!

قُلت بلهفة:

- هل تعرف كيف تفتحها؟

نظر لنا هاني وابتسم ثم قال:

- لم تفهماها؟

أمسكها هاني وضغط على جانبيها مرة واحدة فانقسمت نصفين وفُتحت ببطء، التففنا حولها حتى أصبحت لا أرى إلا رءوس ثلاثتنا والكرة الخشبية فقط، كان بداخلها قُماشة صفراء طُبقت مربعات متساوية، تبدو أنها كانت في الأصل بيضاء، قال هاني بصوت خافت:

- من أين أتيتما به؟ يبدو أنه حجاب!

نظر إلينا زيزو وقد لمعت عيناه وهو يفتحها بعناية شديدة ويقرأ ما بداخلها.: "هذا حرز سر وتحصين وذكر عظيم.. يقي حبيبي الفتن ويدفع عنه بإذن الله العين والحسد والسحر والغيرة والمكائد.. ولقاء محبوب مكتوب بأمر الله"، إن الله يسمع ويرى، إلى لقاء.. مكتوب" هذه الجملة مكتوبة قبل هذا المربع.. هذا خط كوفي بلا شك، انظروا..

كانت القماشة مربعة، والخط كوفي كما قال، ورسم عليها مربع كبير بداخله مربعات صغيرة، بداخل المربعات الصغيرة أحرف عربية وأرقام ولم نستطع تجميع كلمة واحدة منها، وعلى جوانب المربع الكبير الأربعة كُتب "جبرائيل.. ميكائيل.. إسرافيل.. عزرائيل"! وكُتب حولهم آية الكرسي على شكل مربع يحوط كل ذلك!

جحظت عينا زيزو وهو ينظر إلي ويهمس مُندهشاً..

- إن الله يسمع ويرى!

نظرنا إلى بعضنا خائفين فأعادها هاني مرة ثانية لحالتها لكنه عقدها بالخيط كالسلسلة وأعطاها لي، نظرت إليها وتساءلت:

- لقاء! و"يقي حبيبي الفتن"، هل يُعقل أن تسحر لي لقاء؟!

***

٧٥١ هجريًا - ١٣٥٠ ميلاديًا

- جاء وقت المواجهة بشجاعة، ستكون أفضل من الابتعاد الآن..

هكذا عزمت أمري وأخبرت مِسكة بما انتويته، كانت تضرب كفها اليسرى بقبضة كفها اليمنى وهي تقطع الغرفة ذهابًا وإيابًا في قلق، توقفت أمامي فجأة وقالت:

- هذا ليس بالوقت الصائب لمثل هذه الأفكار، يكفيك القبض على الأميرين منجك اليوسفي وبيبغا أروس، أنت لا تعرف الأمراء كما أعرفهم..

- لا يشغلك أمرهما.. سيكون فرمانًا سلطانيًا.

- أنت عنيد بلا خبرة وأنا لن أستطيع أن أرد الأقدار.

استدرت وقد ضقت ذرعًا بخوفها..

- أنتِ تخافين أكثر مما يجب، أمور السلطنة يجب أن تُدار بشجاعة.

استدارت في مُقابلتي وقالت:

- أمور السلطنة لابد أن تُدار بحكمة.

عقدت ذراعي بعند ولم أنظر إليها، فاسترسلت..

- أعلم أن يلبغا العمري الخاصكي هو الذي أشار عليك بهذا الفعل الآن..

نظرت لها مُندهشًا وقلت:

- لا دخل ليلبغا بهذا القرار، ألا ترين أنني قد صرت شابًا يُعتمد عليَّ؟!

نظرت إليَّ في حزن وغادرت على هذه الحالة لكني لم أكترث لما قالته، أعلم خوفها الزائد عليَّ، على إثر خروجها من قاعة الحُكم دخل جميع الأمراء والقضاة الأربعة تلبية لاستدعائي، ألقوا السلام وأشرت لهم بالجلوس، جلس القضاة عن يميني والأمراء عن يساري، نظرت إليهم جميعًا في شجاعة وقُلت:

- جمعتكم اليوم لأمر هام وعاجل.

نظروا جميعًا إلى بعضهم البعض وقد تشابكت ظنونهم، نظرت إلى القضاة وقلت:

- أريد أن أرشد نفسي اليوم.

نظر القضاة إلى الأمراء وقبل أن أسمع كلمة واحدة وجهت كلماتي الحاسمة للأمراء..

- وأعذركم في تسلُّم أمور المملكة إلى اليوم.

نظر الأمراء إلى القضاة في تعجب، ثم أجابوا جميعًا باستسلام وطاعة.

هولت مِسكة الأمور وصعبتها على نفسي، لم يكن الأمر صعبًا معهم كما ظننت وظنت هي.

***

الثالث والعشرون من مايو ٢٠٢٠ ميلاديًا - ١٤٤١ هجريًا

بدأت ألهث داخل دائرة، أنهي يومًا لأبدأ يومًا جديدًا مُتطابقًا، روتين يتكرر وكأنني داخل حلقة كبيرة تلف وتدور بكل ما فيها بثبات، وتقضي الحياة أن يبقى الوضع على ما هو عليه.. مؤلم وقاسٍ وبارد، خوفي يتزايد من الحرز ومن شكوكي في لقاء أيضًا، أسمع أذان الظهر فأكبر وأستغفر، ثم أرتدي نفس ملابسي بلا خطة مُسبقة لليوم.

اليوم أول أيام عيد الفطر، ولأول مرة في حياتي لا أشعر به، لا سهر مع الأصحاب، عيد بلا صلاة عيد، تكبيرات عبر الشاشة، بلا مظاهر احتفالية، لا أهل ولا عائلة، لا طعم للحياة، إنه كابوس يعيشه العالم، لكن مهما كانت الظروف لابد أن أرى البنات وأعطيهم العيدية، لكن العيدية ستقضي على كل ما معي من نقود، لكن كيف أزروهم بلا عيدية ولا ملابس جديدة، لا.. لا أستطيع، صورتي ستهتز أمامهم في هذه السن الصغيرة، هل أقترض من أبي؟ لا أستطيع أيضًا لقد تحمل معي الكثير، خطر على بالي زيزو، فتحت موقع فيسبوك لأتحدث إليه فوجدته قد كتب على صفحته "إيجابي كورونا.."! الآن أثبت له الفيروس وجوده، وسيحتاج المال للعلاج، وقفت في البلكون أفكر ماذا أفعل!

الهدوء يخيم على الشارع، بتلقائية تحسست الحجاب في صدري، بعد أن علق هاني الخيط الأصفر في ثقبين بالكرة الخشبية لارتدائه، كما كانت جدته ترتديه، إذا كان هذا لجدتي فرُبما كانت ترتديه، لا أدري، قررت أن أفتح شقة جدتي لألهي نفسي قليلًا، رُبما ألهمني الله بحل يثلج صدري، فالوقت لا يزال معي.

اطمأننت أن مفتاح شقتي في جيبي وأغلقت الباب، وبثٌ راغبًا في معرفة أسرار شقة جدتي، فأنا أستمر في تجاوز أشياء لا أفهمها في هذا البيت كله، رغم أنني أتجنب دخول هذه الشقة، أو حتى النظر إليها أثناء صعودي أو هبوطي الدرج، إلا أن شيئًا لا أفهمه يدفعني الآن لدخولها!

فتحت الباب في وجل، أضأت أنوار الشقة جميعًا من صندوق الكهرباء بجانب الباب، توجست خيفة بالرغم أننا في النهار والشقة تبدو عادية، لا شيء يدعو للقلق، أغلقت الباب ودخلت أتجول فيها وكأنني سأقبض على أحد، وأدعو الله أن تكون السيدة الشاحبة مجرد وهم، أو حتى خلل عقلي.

غطّى التراب كل شيء ومعهم ذكريات طفولتي، ها هو الطست النحاسي وقد ملأه الغبار كذلك، هل يبيع زيزو هذه الآثار؟ أم أتخلص منهما وأستريح؟ ربما ساعدته وأخذت عمولتي، لكن.. ما أدراني أنهما أثر؟ لا أعتقد أنه سيجني المال من وراء هذه الخردة.

دخلت غرفة نوم جدتي فتذكرتها وفتحت النافذة ليتجدد هواء الشقة، هنا ذكريات الطفولة التي لن تعود، رحل الأجداد وبقيت مقتنياتهم، في هذا البيت كانت تعيش أسرة على حلاوة الدنيا ومرارتها، وهذه الساعة العتيقة على الحائط كانت تنظم أوقاتهم قديمًا، الأسِرة التي حملت أجسادًا ترتاح من عناء أيامها، جلست على السرير أتحسسه وكأنني أعود بالسنوات إلى الوراء، أدخلت يدي تحت الوسادة فأمسكت عقدًا، أخذته سريعًا لأراه فإذا بي أمسك بمسبحة جدتي الخضراء، فرحت كثيرًا كأنني أرى جدتي الآن تجلس في الفجر تسبح، أخذت أتأملها قليلًا فتوهجت المسبحة في يدي! بحركة لا إرادية شممتها فغمرتني رائحة عطرة، عجيب هذا البيت بكل محتوياته!

نظرت إلى المسبحة المتوهجة آملًا أن ترد على تساؤلاتي، صوت الشيخ "محمد رفعت" يأتيني عبر نافذة العم أسعد يختتم سورة البقرة ويطمئنني، ثم علا صوته رافعًا أذان العصر، يكاد أول أيام العيد أن ينفرط من بين يدي، قُمت عازمًا الانصراف فودعت المسبحة وتركتها مكانها، لكنها توهجت أكثر! وأنا لم يزل بريق التعجب يفتك بعقلي، جلست مرة أخرى أتفحصها وأسبح دون تفكير، وبدأت روحي تهدأ وأنا أهدأ معها.

وبينما أنا جالس تحول النهار بغتة إلى ليل! لم يؤذن المغرب بعدُ! كيف مر الوقت؟! ورأيت نورًا قويًا يأتي من داخل الشقة، نور يقترب، وأنا أمسك بمسبحة جدتي مُرتعدًا، أخذ النور يزداد ويقترب حتى رأيتها أمامي، شاحبة غاضبة، ترتدي جلبابًا أبيض وغطاء رأس أبيض طويلًا، تُمسك بمسبحة جدتي الخضراء المتوهجة وتسبح معي! نظرت إلى مسبحة جدتي التي في يدي وفي يدها أيضًا! نسبح بنفس الحبات على نفس الوتيرة! لا أسرع فأسبقها ولا هي تتمهل فتتأخر عن حركة تسبيحي! قالت بحدة:

- كف عن العبث معي.

باتت أفكاري مُتخبطة وقلت بنبرة هلعة:

- أنا لا أعبث! لماذا.. لماذا أراكِ هنا؟

نظرت حولها وبدأت الجدران تهتز بما عليها وبدت كأنها تتذكر شيئًا..

- ألا تعلم أن العوالم التي نعيشها بين ظاهر وباطن وبين أشهاد وغيبيات؟

- لا أفهم شيئًا مما تقولين.. من أنتِ؟

نظرت السيدة إلى الطست النحاسي وقالت:

- ذهبت الأجساد وبقيت أرواحها منازلها.

نظرت إلى المسبحة بيدها وتلاشى النور وتلاشت معه في بطء، ورأيت مكانها حبات المسبحة الخضراء قد انطفأت من جديد وأنا أسبح بصوت عالٍ مُرتعب ملأ صداه المكان.

حينها سمعت صوت الشيخ يرفع أذان المغرب، كيف انقضى الوقت كدقائق من العصر للمغرب؟! وعادت إضاءة البيت كما هي! تفحصت المسبحة وقد انطفئت مرة أخرى وأعدتها مكانها تحت الوسادة، وأغلقت النافذة والأنوار، ثم غادرت سريعًا إلى حيث ألتقي بناتي وأنا مشوش العقل!

***

٧٥٢ هجريًا - ١٣٥١ ميلاديًا

انقضى النهار ببطء ولم أستطع الكلام أو الراحة، أو حتى الرد على أسئلة مسكة التي لا تنتهي، حتى تركتني وحيدًا بناء على إلحاح مني، إني أعلم أن قلبها ينشغل علي انشغال الأم على ابنها، وأسترجع كل ما حذرتني منه، كما أتذكر نبوءات الدرويش التي طالما استهنت بها وظننتها مصادفة، حتى بتُّ لا أصدق شيئًا مما يحدث حولي.

ذهبت إلى مِخدع مِسكة لأطمئن عليها قبل نومها، وعند اقترابي سمعت صوت أجش له بحة مخيفة.. تسمرت في مكاني لأستمع للصوت، لكني لم أفهم هذه اللغة الغريبة، من يتحدث لغة مُختلفة! اقتربت خلف باب الغرفة وعندها رأيت مشهدًا لن أنساه ما حييت..

كان طفل دون البلوغ يجلس أمام مِسكة! على ضوء أربع شموع كبيرة وزعتها في أركان الغرفة الأربعة، وأمامها مجمرة، أوراق وريشة وحبر، وقدران بهما أشياء لا أتبينها، تمسك مِسكة بيد الطفل اليمنى وتهمهم، ويجيبها صوت الرجل الذى يأتي من الطفل!

الطفل يمسك بمرآة في يده اليسرى وينظر فيها، وضعت مِسكة القلم في المحبرة وخطت على جبين الطفل، ثم كتبت على يمناه، تكرر الأمر سبع مرات، ثم أمسكت بورقة كبيرة وبدا لي من حركة يدها أنها تقسم الورقة إلى أجزاء، أخذت تكتب في كل جزء وتخط على يد وجبين الطفل مرة أخرى، وفجأة ملأ الغرفة فحيح لا ينقطع! لم أحدد مصدره، سمعته من كل الإتجاهات! هل ربتني ساحرة ولم أدرِ من أمري شيئًا؟ هل كانت مِسكة وراء ما حدث لي؟ لكن كيف تخونني وأنا أشعر بولائها الصادق لي! ولأبي وعائلة "قلاوون"!

فجأة قاطع عقلى صوتها وكأنها تصرخ وتصيح:

- طرش طرشوش.. انزلوا انزلوا.. احضروا.. اذهبوا إلى الملك الصالح صلاح الدين صالح ابن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون.. اذهبوا إلى الأمير طاز(18) وكل الموالين أمثاله.. احضروا يا خدام..

شهق الطفل على الفور ورجع بظهره للوراء ورأسه إلى أعلى، ثم ارتجف كأنما أصابته صاعقة، واختفت حدقتا عينيه، بدا كأنه يستقبل شيئًا، وعلمت أنه من يُصدرهذا الفحيح! أمسكت يمناه المرتجفة بسرعة ولم تفلتها، أكملت مسكة في صلابة:

- "فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد".

نظر الطفل أمامه بتحد وقد لمعت عيناه بلمعة عجيبة وشهق شهقة ثانية انخلع لها قلبي من الخوف، تعرقت وعيناي لا تصدق هذا الجزء في شخصية مسكة أبدًا.. فأكملت مِسكة في

قوة لم أرَها فيها من قبل..

- حديد.. صحيح صح.

نظرت إلى الطفل وقالت:

- افتح عينيك جيدًا الآن.. بصرك حادٌ ترى ما لا نراه..

فتح الطفل عينيه جيدًا وظهرت حدقتا عينيه كبيرتين جدًا وقد غلب السواد عليهما تماماً فقالت في ثبات:

- آمرك أن تنظر في المرآة.. أنت هناك الآن في عالم آخر.. ثبت نظرك في المرآة ولا تغفل..

فعل الطفل فقالت:

- ماذا ترى؟

بعد ثوانٍ تحدث الطفل ببطء وحشرجة فحيح مخيف:

- أرى الأمير طاز على خيله.. سيوف.. طبول حربية وزعيق نفير.

- حسنًا.. لا ترفع رأسك عن المرآه مهما حدث.. أكمل..

ارتعش الطفل وبدا فحيحه مُريعاً..

- أرى أناسًا تكنس سائلًا أحمر.. تكنس دماء.. دماء لزجة..

- وماذا بعد؟

- الكثير من الدماء.. الملك الصالح صلاح مع الأمير طاز..

- الملك الصالح والأمير طاز! هذا غير جائز! وأين السلطان حسن؟

بدا الطفل كأنه يحملق ثم قال:

- ليس هناك..

- حسنًا.. من معهم؟

- مُوالي الملك الصالح، الأمير مُنكلي بُغا..

- من معه؟

- الأمير مغلطاي... و.. وكائن عجيب..

بسرعة قالت مسكة:

- هل ينظر إليك الآن؟

- نعم.. إنه يلتفت الآن نحوي..

- قل له: سيدتي تحييك وتطلب منك أن تدفعهم دفعًا ببعض إذا اتفقوا على إيذاء قماري..

تكلم الطفل إلى المرآة بتلك اللغة الغريبة وقال دون أن ينظر إلي مسكة:

- يأمرك بذبح ثور أحمر..

- قل له سنفعل..

عاد الطفل للغته.. فأكملت مسكة:

- ماذا ترى الآن؟

- كثير من الجنود يأكلون..

- ما نوع الطعام؟

- لا أتبين ما في القدور.. الجنود كثيرة جدًا..

- حاول أن تتبين ما في القدور..

بدأ الطفل يرتعش أكثر ويحاول ألا يحيد بصره عن المرآة أبدًا ومسكة لا تفلت يمناه.. مرت ثوانٍ أو دقائق لا أعلم فقد أوشك قلبى على التوقف، أخيرًا جاء صوته مُنهكًا:

- يبدو أنهم يأكلون لحم الثور..

- سيفعلون إن شاء الله..

عندها تركت مسكة يده اليمنى، وبدأت في تقطيع الورقة الواحدة إلى ستة أجزاء ثم ألقتهم في المجمرة، ثم بدأت ترش الماء من القدرين أمامها فى كل مكان حولها وحول الطفل، وحينها بدأت تتسرب خارج الغرفة رائحة كزبرة ولبان، وعندما غمر البخور الغرفة تمتمت بكثير من الكلمات لم أسمعها لكنني تبينت بعضًا منها بعد أن رددتها مرات عديدة بصيغة الأمر..

- إذا استعملوا أخبرهم وكونوا أنتم صادقين..

حينها راح الطفل في إغماءة لم تبالِ بها مسكة، كل ما فعلته أن أسندت رأسه في رفق

ووضعته على الأرض، ثم نادت على جاريتها المقربة زبيدة التي أتت مُسرعة خائفة ترتعش، فقالت مسكة:

- تذهبين الآن إلى أمير شكار، تقولين له أن يذبح ثورًا أحمر حين يكون يوم الوليمة التي يعدها السلطان لجنوده بعد مُبايعته للسلطنة، ولا يقدمها للجنود إلا بعد مباركتي لها مهما كانت الظروف..

- السلطان حسن؟!

- لا أحب الأسئلة.. هو سيفهم مقصدي.

- في الحال يا ست مسكة..

- لا يراك العفريت الأزرق.. تفهمينني..

- نعم أفهمك..

- وخذي هذا الغلام من هنا.. أعطي أمه هذه الدراهم فهي تنتظره بالخارج..

أخذت الجارية كيس النقود فقالت مسكة بلهجة قوية مُحذرة وهي لا تنظر إليها:

- زُبيدة.. تُعطيها نقودها كاملة..

- بالطبع.. كاملة.. كاملة.

حملت زبيدة الغلام مغشى عليه وذهبت وأنا غارق في عرقي، ولم أدرك أو أفهم ما رأيته! من هذه الشخصية التي لا أعرفها؟! لماذا أخي الصالح صلاح الدين؟! ماذا تُخفين عني يا مِسكة؟! ولماذا الأمراء طاز ومنكلي بُغا الفخري ومغلطاي بالتحديد؟! هل سيشكلون فريقًا مع أخي الصالح لإلحاق الضرر بي ليسيطروا على الحكم؟! وأين بقية الأمراء؟! كان اليوم شاقًا علي وأكبر من أن أفهمه، أنا الذي ظننت نفسي سلطانًا بات عارفًا ببواطن الأمور و... رجلًا قد أوشك على النضوج.

***

الخامس عشر من يونيو ٢٠٢٠ ميلاديًا - ١٤٤١ هجريًا

كل يوم يمر يأخذ معه جزءًا مني، من حياتي ومن روحي، من عقلي المنهك وقلبي المنكسر، كل يوم يقتطع جزءًا من أحلامي، أحلامي التي أصبحت كالشوك في رأسي، شوك يؤلمني بشدة كلما جلست وحيدًا، كل يوم أريد معرفة السيدة التي قابلتها وما السر وراءها، كل يوم يمر أنفق من مدخراتي الضئيلة، والتي لولا مُساعدة والدي ما كنت لأصمد أمام ما تحتاجه أسرتي التي كانت يومًا معي.

حذف اليوتيوب فيديوهاتي على القناة لأنها لم تحقق أرقام مشاهدة جيدة، وضاع أملي في جني أرباح من هذا الاتجاه، لأن الناس لا تلتفت إلى التاريخ، يحبون وصفات الطعام، السخرية والفضائح والتفاخر، كرة القدم ومُتابعة ظاهرة الانتحار، وأنا أشعر بتوهان في عالم أصبح النجاح فيه يستند على أرقام!

في "مقهى الجمالية" كان هاني وزيزو في انتظاري يلعبان "الدومينو" في صمت، بدا زيزو في حالة صحية جيدة بعد أن أخذ نصيبه من الفيروس وشُفي منه، جلست بينهم صامتًا فقال هاني:

- ما لك؟

قال زيزو وهو يغلق لعبة الدومينو:

- اعذر حكيم، إنه يمر بوقت عصيب منذ أن عاد لبيت قلعة الكبش.

قلت بتوكيد:

- بيت مسكون وأشباح، وباء وخراب بيوت وتوقف عمل، هذا البيت شؤم عليّ.

نظر هاني بذهول لزيزو وقال:

- ما هذا الهراء؟

أخرجت من صدري الكرة الخشبية وقلت:

- تذكر هذه الكرة؟ أنت لا تعرف أنها كانت تتدحرج في خزانة الملابس من تلقاء نفسها!

نظر مرة أخرى لزيزو كأنه يسأله فأومأ زيزو رأسه مؤكدًا وقال:

- أنا أصدق حكيم بعد أن رأيت بعيني الأشياء تتحرك من تلقاء نفسها، وصوت المرأة العجيب الذي قال ما في الحرز! ، ولم نملك الوقت الكافي للتأكد من تفسير ما بداخله، بعدها

قرأت عن الكثير من الألغاز داخل الأماكن المغلقة لفترات طويلة، خاصة إذا كان المكان عتيقًا كبيته.

اندهش هاني وقال:

- وترتديه؟

- أنت أصلحت لي خيطه.

- كُنت أستكشفه فقط.. لكننا لم نفهم شيئًا مؤكدًا منه، لعله تعويذة نجسة!

بدا عليهما القلق واجتاحني اضطراب شديد وقلت لهاني:

- قلت لي إن جدتك كان ترتديه..

- جدتي كانت ترتديه كي لا يسرق منها فص الماس يا ذكي!

قال زيزو بتوجس:

- هل تقول إنه يرتدي حرزًا ملعونًا؟!

- جائز جدًا.

نظرت إلى الحرز متوترًا وقلت:

- أنا مشتت.. ماذا أفعل به الآن؟! هل أحرقه؟

أجاب هاني بسرعة:

- لا.. لا نعلم ماذا سيحدث بعد حرقه!

قلت وأنا أنظر إلى الحرز مرة أخرى بخوف:

- لو أنني في ظروف أفضل لانتقلت على الفور من هذا البيت.

قال هاني:

- أعطني هذا الحرز، سأحاول معرفة أصله بحذر.

بدا واجماً لكنني وافقت على الفور بعد أن صورته عدة صور على هاتفي المحمول، وافترقنا كُل إلى وجهته، دسست يدي في جيوبي وسرت بخطوات ثقيلة، أزيح من طريقي الحجارة الصغيرة وألقي بها بعيدًا وكأنني أزيح مشاكلي من عقلي، سرت خائفًا شاردًا، ولم أدرِ هل طال الطريق أم أنني لم أعد أحتمل السير فيه!

٧٥٢ هجريًا - ١٣٥١ ميلاديًا

كانت ضحكاتي تملأ البلاط السلطاني، كُنت أشرب كأسي وأضحك على كلماته، لم أضحك هكذا منذ زمن، بقيت أرمقه في إعجاب بينما أنا جالس على الدكة السلطانية، وهو يقف أمامي بجسده الهزيل وسمرته الباهتة، ملامحه الحادة وظهره الأحدب لا يجعلاه خفيف الظل مقبولًا من الكثير، وقف "الفار(17)" في أدب، يُلقي بالنُكات في تسلسل سريع دون أن يضحك لها، صار هذا الرجل مُقربًا إليّ في وقت قصير، لا أدري كيف توغل في القصر حتى وصل إليّ.

اعتاد أن يخفض صوته بجانبي عندما يطلعني على أخبار الرعية فأُصغي له، يُخبرني هذا الرجل بكل كبيرة وصغيرة في البلاد لا أستطيع الوصول إليها، حتى مع التخفي، ثم إنه لا يتردد في الدفاع عن سلطانه إذا كان هناك تجاوز من العوام في شأني، هذا ما يخبرني به.

اعتدل حينما رأى ست مِسكة تتقدم نحوي في تحفز واضح، أعلم أنها لا تحبه مطلقًا، نظرت له مِسكة نظرات تتفحصه في استنكار وامتعاض، نظر إليها بعينين جاحظتين وقد طأطأ رأسه قليلًا وقال:

- السلام عليكم ست حدق.

نظرت له في ازدراء نظرات أخافته بدون كلمة واحدة، نظر إليّ باستعطاف وقال:

- ليأذن لي مولاي بالانصراف..

أذنت له وعلمت ما ستقوله مِسكة قبل أن تقوله، أشار بيده التحية وخرج سريعًا، لكنه قبل أن يخرج من الباب دس يده بجيبه فالتفت وقال:

- عفوًا.. كِدتُ أنسى طلبك يا مولاي..

اقترب وأعطاني كيسًا جلديًا وهو يتجنب نظرات مِسكة له، ولم أراه بعد ثوانٍ، نظرت مسكة إلى الكيس وقالت:

- هل تصدق هذا المكاس(16)؟

نظرت لها مُعاتبًا وقلت:

- إنه من رُسل الديوان ومن خواصي..

- أنت تشرب الراح وهو يُضحكك ويضحك عليك، أنت سلطان البلاد، لا تثق بأحد.. أنت لا

تتذكر نصائحي، حتى أنك تثق أيضاً بيلبغا العمري وبات من خشداشيتك وخواصك؟

- أعلم أن هيئة الفار تنفرك منه لكن لا أفهم لماذا لا تحبين يلبغا؟

- الأمر أبعد من الهيئة ومما تظن.. أريدك أن تصطفي خاصيتك، من ثبت لك الأيام ولاءه وحبه، لا أن يكون الاختيار حسب أهوائك.

زفرت زفرة وبلغ الضيق أقصاه ولم أجبها، نظرت مسكة إلى الكيس بيدي وسألتني:

- وماذا بداخل الكيس الجلدي؟

- تبغ أصفر..

- لقد جلب لك التمباك(15) والمتاعب..

- إنه يخبرني بما لا أعلمه..

صاحت والغضب يتطاير من عينيها:

- أنت لا تعلم أنه من الأراذل ويتقرب إليك بأذى الناس قاطبة..

- هذا غير صحيح..

- إن المظالم تزايدت بالديار المصرية جراء ما يفعل دون إذنك مُستنداً على حبك له.

- ليس للفار شأن بهذا..

نظرت لي مِسكة مُندهشة وقالت:

- تدافع عن الخسيس وتترك الحق؟!

- ما عاذ الله..

- لقد تغيرت خواطر الأمراء عليك جراء أفعاله وحظيك له..

- الأمراء لا يعجبهم شيئًا وأنتِ تعلمين هذا.

- حسنًا.. لنرى خطأ كلامي من صوابه في شوارع القاهرة بين الرعية..

بعد أن تخفيت في ملابس الغربان وتخفت مسكة، سرنا في صمت وغضب، كان هذا عسيرًا علي، كنت غاضبًا من تدخلها في شئون السلطنة، في كل خطوة أذكر نفسي بمكانتها عند أبي وعندي، أذكر نفسي بلجوء أبي إليها ولمشورتها، حاولت أن أهدأ لأرى الحقيقة، عندما وصلنا إلى شارع "المعز لدين الله الفاطمي" بدأت ألاحظ وجوه الناس العابسة، وأمام

مسجد جدي "قلاوون" توقفت لما سمعت رجلًا يبتاع نحاسًا من الحانوت(14) أمام المسجد وقد قال للبائع بملء فيه:

- لا رحم الله السلطان ولا أطال عمره، لقد سلط علينا هذا الفار في الأذى ولم يرحمنا.

نظرت إليّ مسكة فزعاً، أمسكت يدي وهي تدفعني نحو المسجد وتقول..

- يكفيك هذا.. هيا لنصلي ركعتي شكر لله.

سرت معها مُسيرًا ومُستسلمًا وعاقدًا العزم على نبذ هذا الفار أولًا وماذا سأفعل معه لاحقًا، وماذا سأفعل لمواجهة مكر بعض الأمراء، ربما دبرت لهم مكيدة وقبضت عليهم، على عدم الثقة بأي شخص مرة أخرى، لن أترك لهم رأسي من الآن.

***

الثاني والعشرون من يوليو ٢٠٢٠ ميلاديًا - ١٤٤١ هجريًا

وكأن الحياة مُسابقة شطرنج كبيرة، ما إن وصلت إلى حل أحد ألغازها فاجأتني بلغز أصعب، ما لي أنا وكل هذه المسئوليات؟ أنا شاب أريد أن أعيش حريتي مثل بقية الشباب، أعلنت لقاء أننا مُنفصلان إلى أن تتم إجراءات الطلاق بتحضرا وبناء عليه جاءت إلى بيتي أو بيتنا السابق بصحبة البنات في أول أيام عيد الأضحى المبارك، وقد حضر أبي وأمي، وشقيقاتي اللاتي لم تعجبهن الأوضاع أيضًا، ولكن "عملوا الواجب" على حد قولهن وأعددن مائدة شهية ضخمة، ولم يتحدثن مع لقاء إلا بعد إلحاح مني، بينما حاولت لقاء التعامل معهم في ود بدورها، فسألت شقيقتي الكبيرة:

- ما أخبار العمل؟ ألا زلت تعملين من البيت؟

نظرت لها شقيقتي بامتعاض وقالت:

- تم تسريحي من العمل، تعلمين أن الوباء قضى على أعمال كثيرة.

وقبل أن تعلق لقاء قاطعتها قائلة:

- ليس هناك أجمل من العمل الحر رغم صعوبته.. يا ليتني سمعت كلام أخي منذ البداية!

لم تعلق لقاء ولم توجه إليهن الحديث مرة أخرى، لكنها ظلت تأكل في نهم بجسد ممتلئ، وعلى وجهها ابتسامة باردة وتتبادل مع إخوتي نظرات نارية في هدوء، وأنا أنظر إلى صغيراتي وهما تأكلان وتبتسمان للجميع كالملائكة، اختلطت مشاعري لها بين لوم وندم، وأنا أعلم أنهما لن يجديا نفعًا الآن، على أن أتعامل مع الأوضاع الجديدة مهما أكد لي زيزو أن كل ما تمر به لقاء هي هورمونات حمل!

بدأ الجمع في الانصراف بينما كنت ألعب مع البنات، وأخذا يلحّان عليّ في الذهاب معهما إلى الساحل الشمالي، وأنا أستميت في الكذب أنني سألحق بهما، ثم ضغط أبي على كف أمي ضغطة أحفظها وقال:

- نستأذن بالانصراف.. الله يعينك يا لقاء يا بنتي وتقومي بالسلامة.

كانت أمي تحبس دموعها وهي تنظر للبنات، ثم تنظر للقاء نظرة استعطاف أهلكتني نفسيًا، لكن لقاء ودعتهما بمودة حقيقية وحمدت الله على مغادرتهما في هذا التوقيت، نظرت لقاء للبنات وقالت في حسم:

- هيا اجهزا لنعود إلى بيت جدكما..

قالت نور مستفسرة وهي تنظر إلى البيت من حولها:

- لماذا نعود لبيت جدي يا أمي؟! لنبيت في بيتنا.

علمت حينها أن ابنتي لم تعد صغيرة، لكني قلت لها مُتداركًا عصبية لقاء:

- إني أعيد ترتيب البيت وربما أجدده قليلًا قبل عودتكم..

نظرت لي لقاء بغضب وأوشكت أن تقول شيئًا فقاطعتها وأنا أشير إلى غرفة النوم..

- هيا اجهزا يا بنات.. لقاء.. أريدك في أمر هام..

عقدت ذراعيها مُتحفزة حين انفردت بها وفتحت هاتفي المحمول لأطلعها على صور للحرز، فنظرت إليه باشمئزاز وقالت دون أن تنظر لي:

- يبدو سحر أو ما شابه.. لماذا تسألني وأنت أدرى مني به؟!

- لأنني ببساطة وجدتها في خزانة ملابسي.. أليس هذا بالأمر العجيب؟

عقدت حاجبيها بتعجب وقالت:

- ماذا؟ هل تظن أنني.. يبدو أن حالتك تسوء..

همت بالخروج من الغرفة فأمسكت ذراعها بقوة مُغتاظًا..

- لأن اسمك مكتوب عليه.. إذا علمت أنك وراء كل هذا الشر الذي يلاحقني سأفعل الكثير، وسأعلم.

رفعت حاجبيها مُندهشة وقالت وهي تجلب شيئًا من حقيبتها:

- بعد كل هذه السنوات هكذا تظنني! ولماذا أفكر في شيء كهذا؟!

- لكي أترك مستقبلي وأنساق وراءك.. مثلًا؟! لقد سمعت صوتك في أذني من قبل.. لماذا أنتِ بالذات؟

وحينها حدقت في عيني وقالت في هدوء وريبة:

- صوتي!

- نعم وأنت تقولين: "إن الله يسمع ويرى" ووجدت نفس الجملة فى الحرز!هل تعلمين أن هذه الأسحار لا تجلب إلا الخراب؟!

نظرت لي مُندهشة بعدما كانت قد أخرجت حرزًا مطابقًا لما معي وصاحت وهي تلقيه في

وجهي:

- ومن فعل هذا يا أستاذ حكيم؟

نظرت إليه وأنا لا أصدق ما بيدي، كان حرزًا آخر مُطابقًا لما معي حتى في الكلمات كُتب بداخله "لقاء" أيضًا! ارتميت حينها على السرير كجثة مُنهكة أنظر إليه فقالت:

- وجدته أثناء تنظيفي للشقة وما كُنت لأعلمك بشيء لولا اتهامك لي.. انظر "إن الله يسمع ويرى"، الآن أنا التي أتهمك بعمل السحر باسمي لكي أخضع لك وأقبل بكل شيء تفرضه علي، وأنا لن أفعل، تعلم لماذا؟! لأنني أصلي وأحصّن نفسي.. وفّر كل هذا لأنه لن يفلح معي.

شعرت بصداع مفاجئ وألم يمتلكان رأسي وسمعتها تنادي بعصبية:

- نور.. آية.. هيا لنغادر..

وعلى باب الغرفة نظرت وراءها مُمتعضة وقالت:

- أنصحك بزيارة طبيب نفسي.. لقد أصبحت متيزًا للشفقة.

***

السابع عشر من جمادى الآخرة ٧٥٢ هجريًا - ١٣٥١ ميلاديًا

تناولت إفطاري واتجهت أطمئن على مِسكة في قصر الأبلق، لم تعجبني أحوالها في الفترة الأخيرة، لقد أصبحت شديدة القلق عليّ وكأنها تخفي شيئًا مخيفًا، شديدة التعلق بالدرويش وكأنه الوحيد الذي يعرف سرها، ولولا أنني أثق بها تمام الثقة لظننت بها الظنون، كما أن حنقها يشتد على الأمراء يومًا بعد يوم، يبدو أنها تُخفي عني أمرًا، وهذا ما أريد معرفته.

دخلت دور الحرم(13) فانحنت الجواري جميعًا وسألت عن مسكة فأجابت زُبيدة وهي تُطيل النظر إليّ:

- ست مِسكة لا تزال نائمة يا مولاي..

اتجهت إلى مضجعها في قلق؛ لأنه ليس من عادتها ألا تصحو مع أذان الفجر كل يوم، ففكرت أنها رُبما تكون مريضة، وفي لحظة دخولي نهضت مسكة من نومها وشهقت شهقة عظيمة وهي تتمتم:

- أعوذ بالله.. سيدي قماري.

ذُهلت لما سمعت اسمي ورأيت العرق على جبينها غزيرًا، سألتها:

- ماذا بكِ؟

لم تُجب، نظرت إليّ والذعر في عينيها واضح، أعطيتها كوبًا من الماء بجانبها فأخذت تشرب منه وكأنها لم تشرب من قبل، مسحت جبينها ثم غطت وجهها بكلتا يديها لبرهة أفقدتني صبري فقلت:

- راودك كابوس؟

نظرت لي في خوف وقالت:

- النبوءة تقول إن المدة ثلاث سنين وتسعة أشهر وأيام معدودة.. سيبدأ حكم الملك الصالح!

- ماذا تقصدين؟

- هناك من وشى بك وأخبرهم أن وعكتك الأخيرة كانت مكيدة للقبض عليهم، ولهذا سيغدرون بك.. سيملكون باب السلسلة ثم يصعدون إلى القلعة وهم راكبون حتى يصلوا إلى الحوش، ثم يدخلون إلى الدهيشة ثم..

قاطعتها..

- من؟

- الأمراء..

- تصدقين أحلامك وتصدقين الدرويش المشعوذ.. لقد حذرتك منه.

هزت رأسها أسفًا وقالت:

- الغرور بداية النهاية..

غضبت ولم أجبها، لكنها أعطتني ردة فعل غير متوقعة حين أدارت وجهها عني وكأنها تخاف شيئًا آخر....

وحينها نظرت لها مُتعجبًا وأنا أسأل:

- هل هناك شيء آخر ترغبين في قوله؟

لم تجبني في المرة الأولى؛ فأعدت عليها السؤال في قلق رغم عدم تصديقي لهذه الحكاية بالكامل.. وحينها أجابتني تستدير بنصف وجهها في حزن دفين:

- النبوءة لا تتوقف هنا يا سيدي.

- ماذا تقصدين؟

- الأمر يبدو أسوأ مما تظن.. النهاية لن تكون عادلة، ويبدو أن الغدر بك كي تلحق بإخوتك لن يكون كافيًا.. فالنبوءة لا تخبرنا بطريقة موتك وتخفيه في اللحظة الأخيرة..

- أتقصدين أنني لن أتمكن من أخذ حيطتي وحذري.. لا تقلقي بشأن ذلك!

- لا يا سيدي.. أقصد أنك ستغادرنا وسنعيش أبد الدهر دون أن نعلم كيف غادرتنا.. لن يستطع أحد لا في حاضرنا أو مستقبلنا أن يعرف تلك الحقيقة ويفك هذا اللغز المرير.. اسمع لي يا سيدي إن صدري يضيق كلما تخيلت ما سيحدث دون أن أعرف ماهيته.

شردت لا إراديًا من هيبة الموقف، لكني سرعان ما استعدت رشدي وقلت لها:

- لن يغادر سلطان البلاد بهذه السهولة وستربن، وحتى إن غادرت سيعرف الجميع حكايتي وحكاية موتي وسيكتبها التاريخ حرفًا بحرف..

- أخشى أن ذلك لن يحدث.. سيحاولون الكتابة لكن أقلامهم ستعجزعن ذلك.

استعديت للمغادرة في ثقة وأنا أخبرها قائلًا:

- لقد جئت للاطمئنان عليك فقط.. والآن هل تبغين شيئًا؟

- خيرك يغرقني يا مولاي..

- ابتعدي عن الدرويش إذًا... سيهلكك..

- شهاب الدين درويش مبروك.. انكشفت عنه الحُجب.

زفرت أنفاسي في ضيق واقتربت أكثر منها وقلت:

- ست مِسكة.. أعلم أن حديثك عن " الفار" كان صحيحًا، لكنك تبالغين في..

قاطعتني وهي تمسك بكتفي في حنو وقالت ودموعها تنساب:

- هناك الكثير من الألم لم تختبره بعد.

- لا أثق إلا بكِ، أريدك بخير، وما أراه منكِ في الفترة الأخيرة يقلقني، أرجوكِ ساعدي نفسك..

- تظن أن الخرف أصابني؟

لم أجبها فأكملت:

- حسنًا.. لنرى ماذا تخبئ لنا الأيام، لكن عاهدني إذا شعرت بخيوط المؤامرة تلتف من حولك وعلمت أن نبوءة الدرويش وأحلامي صادقتين أن تفعل ما أنصحك به بعدها..

ربت على كتفها في شفقة وقاطعت حديثها:

- أعاهدك.. هيا استريحي الآن.

هممت بالخروج من الحرم وأنا مُشفق عليها، وأفكر هل خلف الطاعون مادة في الهواء تصيب الناس بالخرف؟! وقبل أن أخرج وقفت أمام المرآة، فأعجبتني هيئتي إذ كُنت كالطفل بدون هذه اللحية، أما الآن وقد أقبلت على السابعة عشرة من عمري، أرى ملامح الشباب قد أقبلت أيضًا، إن هذه القلعة لنسل قلاوون فقط، نعم.. لقد بدأت أسيطر على المماليك بالفعل.

بدأت أتجه في زهوٍ إلى الدهيشة، ليترامى إلى أذني فجأة صوت جلبة كبيرة بالخارج، وعندما ذهبت إلى إحدى الشرفات لأستكشف الأمر، رأيت جماعة كثيرة من المماليك تقف في سوق الخيل أمامي، ويلبسون ملابس الحرب!

اتجهت مسرعًا إلى الباب فواجهني عدد من الأمراء الكبار وعلى رأسهم الأمير "طاز

المنصوري" ومعهم كثير من العسكر! ففر فاهي وأنا أتلقى أولى طعنات الخيانة وإذا بي أراقبهم في ذهول، ليدخل بعدها الأمير "صرغتمش الناصري" فجأة وينظر لي نظرة لن أنساها أبدًا، نظرة قوية حادة ليس بها رحمة أو شفقة، وحين نظرت إلى يده رأيت بها قطعة قماش وقبل أن أتكلم غطى وجهي بها وسحبني كالبهيمة في يده وقبض عليّ، وسمعته يوكل بعض الخدم بالاهتمام بأمري أو بأمر المكيدة الخاصة بي والتي لم أكتشفها!

سمعت حينها صرخات الحريم تندفع من كل مكان! ومن بينهم صراخ مِسكة وسبابها له وللأمراء وهي تقول:

- هل هذا جزاؤه؟!

لم أسمع إجابة منهم لكني سمعتها تبصق وتقول في سخط:

- والله لا أبيت هنا وهو في السجن، خنوني معه.

وفي غضون دقائق شعرت بالست مِسكة بجواري، بينما أتخيلها تقف بشجاعة مُحاربة في طريقنا لسجن القلعة.

وبعد برهة لم أعلم هل كانت قصيرة أم طويلة، رفعوا عن وجهي الغطاء، وعندما استعدت الرؤية واضحة رأيت مِسكة بجانبي وقد بدت آثار البكاء حول عينيها واضحة، لكنها نظرت إليّ وقالت في حزم:

- إياك أن تهاب إلا الله.

لكني نظرت إليها في ندم وقلت:

- لا إله إلا الله.. صدقت رؤياك وصدق الدرويش!

***

الثلاثين من يوليو ٢٠٢٠ ميلاديًا - ١٤٤١ هجريًا

رغم تحذيرات زيزو وهاني إلا أنني ارتديت الحرز الذي ألقته بوجهي لقاء! لعلي أفهم ما وراءه، ومن صنعه؟ وإذا ما كان لشقيقاتي علاقة بذلك؟ لكني لا أستطيع اتهامهم أبدًا بشيء كهذا، يقتلني الشك كل يوم ألف مرة، وتملكني التحدي لأفهم أكثر دون حسابات، فبدأت أقرأ عن السحر عبر الإنترنت دون الوصول لتفسير يرضيني، شيء بداخلي يؤكد أن الحرزين يحملان سرًا كبيرًا، لكن لماذا أنا؟! ولماذا تحدث كل الغرائب في بيت يحمل أجمل ذكرياتي؟! ولماذا يؤذينا أحد؟! لدرجة أن يجعل من الشك رفيقًا لنا، أنا لا أفهم فكرة السحر في حد ذاتها، أوالسبب الذي يجعل الناس يضعون أمنياتهم في لفافة من القماش..

شردت لوهلة أفكر في حالي كشخص عاطل عن العمل نتيجة الوباء، وأنني لم أفكر في احتمالية تحقيق أحلامي يومًا ما؟ أم أعتبرها أطياف تطير في الهواء؟ إن الأمر أصعب مما تخيلت، ويبدو أنني زدته صعوبة بسلسلة من القرارات المتسرعة، ووقعت في الفخ الذي يقع فيه أي إنسان حين يأتي عليه أوقات يضطر فيها لاتخاذ "قرار" دون أن يفكر في تبعاته، قرار واحد فقط يحسم كل شيء، وتبقى المعاناة لسنوات من بعده، لكني أتساءل الآن هل أنا على استعداد لفعل أي شيء لأسترد أسرتي؟!

اليوم شعرت أنني كريشة تسبح في الهواء بلا هدف ولا حام، شعرت برغبة عارمة في السجود، للذهاب إلى أصل الكون، لن يساعدني أحد إلا الله، ربما أثرت كلمات لقاء عن التحصين والذكر في نفسي، أثر في إيمانها ويقينها وانتصارها على الحيرة..

قررت أن أصلي في مسجد "المؤيد شيخ"، والذي دائمًا ما ترتاح روحي فيه من العناء، بالرغم أن أصل الأرض التي بُني عليها كانت سجنًا يسمى "سجن شمائل" وسُجن به المؤيد شيخ بالفعل، لكنه نذر لله نذرًا إذا خرج منه سيحوله إلى مسجد، ذهبت إلى هناك، وما إن صعدت بضع درجات لأصل إلى الباب، حتى شعرت لأول مرة معنى بناء الدرج قبل باب المسجد في كل مساجد العصر المملوكي، فكأنه يهيئ النفس لملاقاة الله.

وقفت أمام الباب والحجر الأبلق(12) والمقرنصات فوقه يزيدانه جمالًا، أتخيل السلطان وهو يعجب به ويأمر بنقله إلى مسجده! وأقرأ ما كتب عليه: **"أمر بإنشاء هذا الباب المبارك العبد الفقير إلى الله تعالى مولانا السلطان الشهيد أبو المعالي حسن ابن مولانا السلطان الشهيد الناصر محمد بن قلاوون وذلك في سنة أربع وستين وسبعمائة"**، فكلما ذهبت إلى المؤيد شيخ تذكرت السلطان حسن!

استقبلني الحارس هناك بحرارة لافتقاده وفود المصلين بعد الوباء، فصليت وبقيت جالسًا

أدعو الله بانكشاف الأمور والثبات، وبعد الدعاء شعرت أن صعاب الدنيا كلها ستزول بزوالنا نحن، وليس من العقل أن أجعل زائل يسيطر على زائل مثله، اجتاحت صدري سكينة لم أصل إليها منذ كُنت أرى جدتي تسبّح بحمد الله ومغفرته في الفجر، لكني تذكرت مسبحتها المتوهجة والسيدة الشاحبة.

قُمت لأغادر فلمحت فتاة عند الميضة تسير نحوي، حتى أصبحت على بُعد أمتار قليلة مني، فتاة طويلة سمراء ممتلئة الجسد، شعرها بني قصير، ملامحها مألوفة لي، لكنها اقتربت أكثر ووقفت أمامي تبتسم وتنظر في عتاب قائلة:

- لا تخبرني أنك نسيتني تمامًا!!

نظرت إلى ملامحها لأدرك أنها حبيبة زيزو فصحت في فرحة:

- منى كيدا! متى جئت من الجزائر؟

- قبل الإغلاق مباشرة..

- قبل شهور ولم نعلم؟!

نظرت إلى الأرض في حزن فأردفت مُتلعثمًا:

- وماذا عن عملك؟

- قدمت استقالتي وتفرغت للكتابة، وأكتب الآن أول رواية لي، تقولون في مصر "صاحب بالين كداب".

اتسعت ابتسامتي أكثر وأنا أقول:

- كان حُلم حياتك.. أنا سعيد من أجلك، لقد فعلتها أنا أيضًا..

حدقت بي مُندهشة وقالت:

- كان حلم حياتك أيضًا أن تتفرغ للجولات و"سيرة القاهرة".. أتذكر جلسات الجمالية، كنا نسرد واقعنا هذا كأحلام.

رن هاتفي في تلك اللحظة وكان هاني المتصل، فشعرت باضطرابها وهي تقول:

- لي عندك طلب.. لا تخبر زيزو بهذه المُصادفة.

بعث هاني برسالة يخبرني فيها أنه ينتظرني في "مقهى كُنكن"، فقرأت الرسالة سريعًا وأومأت له موافقًا..

- لكِ ما تريدين.

ابتسمت وقالت:

- تعلم رقم هاتفي، لنتقابل قريبًا..

غادرنا المسجد سويًا ثم افترقنا، فراقبتها تبتعد، لأتذكر كيف كانت منى لا تفارقنا إلا عند الرجوع إلى البيت، كانت قريبة مني مثل شقيقاتي، وكانت صديقة للقاء أيضًا، وقد كُنت فرحًا لزيزو بهذه الزيجة، ثم انقطعت الأخبار تدريجيًا بعد انفصالهما، والآن نلتقي مثل الأغراب!

اتجهت إلى المقهى فوجدت هاني يجلس ساهمًا، لم يرَني إلا عندما اقتربت منه، جلست بجانبه وقلت:

- لنجلس في البيت.

أمسك بذراعي ولم تُرخني نظرته وقال:

- لا.. هنا أفضل.

بدا هاني خائفًا قلقًا، التفت إليّ ووضع الكرة الخشبية أمامي وقال بجدية:

- تعلم أن رنا درست التاريخ وتخصصت في الترميم مثلي، إنها تؤكد إن هذا الحرز لم ترَ مثله من قبل، لكن العجيب أنه منذ أن دخل البيت والكوابيس لا تأخذ هدنة منا، ومايكل لا يكف عن الصراخ.. كما أننى لاحظت أنه تحرك من مكانه وبالطبع كذبت نفسى لكننا سمعنا صوتًا عجيبة لسيدة!

- هل رأيتم شيئاً؟

- هذا الجزء الأشد رعباً، البارحة ليلاً رأيت سيدة عجوز شاحبة تسير في شقتنا وصرخت في وجهي، كأنها تبحث عن شيء أو أحدا كادت روحى تخرج منى لكننى شككت فى قواى العقلية.

ظلت عيناه تنتقل من الحرز وإلى عيني وأردف:

- ومن أجل أن أتأكد من صحة عقلى ذهبت إلى بيت أحد زملائى وتركت الحرز كأننى نسيته، تعلم ماذا حدث؟ هاتفنى بعدها بساعتين وكان فى حالة مذرية، يقول أنه لما رأى الحرز فتحه من باب الفضول لكن قُبض قلبه فأغلقه حتى يهاتفنى صباحاً لكنه رأى إمرأة تصرخ وتحاول قتله!

انتابتني نوبة قلق جامح وفغر فاهي وتسمرت مكاني فأكمل هاني وهو ينظر إلى الحرز:

- لا أعلم ماهية هذا الشيء لكنه مرعب، والأهم أنني لم أعرف هل من الخطأ أن تتخلص منه أم لا؟!

استطردت أفكر منزعجًا وفجأة سمعت هاني يصيح بوجهي وهو ينظر إلى صدري:

- ما هذا يا حكيم؟ أنت ترتدي حرزًا آخر مماثل لما أعطيته لي؟ من أين تأتي بهذه الأشياء؟

كان صوته كافيا ليلفت نظر سعيد الذي بدا مرتابًا من حديثنا، وحين أوضحت له ما حدث بدت عليه الدهشة وقال:

- هل تريد نصيحتي؟ اترك هذه الأشياء في البيت وغادره في أقرب وقت.

لم أتحدث بعدها وإنما ملأتني الأفكار والأسئلة وفترت روح التحدي بداخلي، ثم نظرت إلى البيت ألومه على ما فعله معي بعد كل سنين الغياب.

***

- "فوض أخوك أمور المملكة كلها إلى الأمير طاز، وصار صاحب الحل والعقد، واجتمعت عنده الكلمة"

لم ألتفت لِمسكة بعد كلامها الذي ظنت أنه يهمني، بينما كل ما يهمني في الحقيقة أنها معي، وأنني لن أستطيع أن أرد هذا الجميل الذي بات مُعلقًا في عنقي إلى يوم البعث..

اختلست نظرات مُبتورة إلى طولوبية التي جاءت لزيارتها وهي تجلس في هدوء وخجل، ثم نظرت إلى مِسكة وقد انتابتها نشوة نصر مباغتة وقالت:

- تعلم ماذا حدث؟

لم أجِبها واسترسلت في لا مبالاتي فأكملت:

- لم يقبل بقية الأمراء بهذا الوضع، أنت تعلم غيرة المماليك، فقد دبّت بينهم عقارب الفتن، فتزايد الصراع بينهم..

بدأت أتوتر ونظرت بطرف عيني نحوها دون أن ألتفت إليها فلمحت ابتسامتها التي أعرفها عن ظهر قلب، واستكملت:

- التحم الأمير منكلي بُغا الفخري مع الأمير مغلطاي وانضم إليهم العشرات من الأمراء وجماعة كبيرة من المماليك السلطانية، لقد لبسوا ملابس الحرب وتوجهوا نحو قبة النصر.

نجحت مِسكة في جذب اهتمامي بما تقول وتذكرت ما أخبرها به الغلام الناظر للمرآة من قبل، فالتفت إليها مُتسائلًا:

- وماذا فعل الأمير طاز؟

اتسعت ابتسامتها وقالت:

- صعد إلى القلعة وجمع العسكر في الرميلة، وفرق عليهم المعدات والسيوف والأتراس، ثم دُقت الطبول الحربية وزعق النفير، ومشى السلطان تحت السنجق، ونادى للعوام قائلًا: "من يجد مملوكًا من مماليك الأمير منكلي بُغا والأمير مغلطاي يقتله".

- وبالطبع هلك جماعة كبيرة من المماليك.

قالت مسكة في أسى:

- وراح الصالح بالطالح، وتوجه السلطان إلى قبة النصر بمن معه من العسكر، وكانت

موقعة مهولة بين الفريقين، وقُتل فيها من المماليك ما لا يُحصى.. خلفت المعركة دماء كثيرة.

- أين؟

- بالقرب من خليج الزعفران، وقُتل من الغلمان والعوام جماعة كثيرة مع الأسف.

- وماذا حدث؟

- انهزم الأميران منكلي بُغا ومغلطاي في آخر الأمر، وقُبض عليهما في بساتين بالمطرية.

نظرت لها وقد سيطرت عليَّ ذكرى ذلك اليوم الذي رأيتها مع الغلام مع طقوسها العجيبة وقلت:

- أتعجب كيف تعلمين كل هذا وأنتِ هنا يا ست مِسكة؟!

لم أجرؤ على إخبارها أنني رأيتها وهي تفعل ذلك، فتبسمت ولم تُجبني واسترسلت كأني لم أسألها من الأساس..

- وأمر السلطان بسجن الأميرين في خزانة شمائل.. هذا ما يحدث بعد الظلم والخيانة، ينقلب الخونة على بعضهم البعض دوماً.

- وقضى عليهما؟

- بل نقلهما إلى ثغر(11) الإسكندرية بعدئذ.

تنهدت وأنا أتعجب من كل هذه الأمور، بينما استأذنت طولوبية في الانصراف ثم استرسلت مِسكة..

- هل تدري ماذا فعل السلطان أيضًا؟

كانت عيناي مُعلقة بطولوبية إلى أن أغلق الباب، ثم انتبهت إلى مِسكة ولم تُطرف رموشي وقد غلبني فضولي بحديثها.. فابتسمت لي عندما أحست بما يضمره قلبي نحو الفتاة لكنها أكملت.

- أمر بالإفراج عن الأخوين الأميرين منجك اليوسفي وبيبغا أروس، والأمير شيخوا العمري من ثغر الإسكندرية وأنعم عليهما بتقدمة ألف من المماليك، وأرسل أمرًا بالإفراج عن الأمير بيبغا أروس من سجن القلعة وقرر أن يكون نائب حلب، أتعلم ماذا فعل أيضًا؟!

- كفى يا ست مِسكة.. يكفيني ما علمت، لا أريد أن أعلم المزيد.

قلتها في وجوم بينما كان لوم نفسي سيد المشهد، يا ليتني ما علمت، يا ليت فضولي ينسحق فلا يجرفني إلى أخبار تزيد على همي همًا، حتى أخي لم يأبه لحالي ولم يأبه إلى أشد الأمراء شرًا وحيلة، ولم يأبه بأذاهم لي، قبل أن أستعد للوضوء فُتح الباب ودخل الدرويش شهاب الدين لزيارة ست مِسكة، ودخلت بعده الجارية زبيدة على استحياء تحمل الطعام، ألقى الدرويش السلام ورأيت مِسكة تنظر إليه مُستبشرة فقالت:

- كُنت أنتظرك.

فتبسم الدرويش وهو ينظر إليّ وقال:

- هذه المحنة شديدة، لكنها ستأتي بالخير فأبشروا..

قلت غاضبًا:

- وأين الخير في سجن كهذا؟! مكان موحش حتى مع السماح بالزيارة وتوفير الكتب التي باتت شغلي الشاغل.. موحش إلى أبعد حد!

- خذ العبرة من قصة سيدنا يوسف وهي أحسن القصص.. لله في خلقه شئون.

نظرت إلى الأرض فاقترب قائلًا:

- هل اعتدت الألم؟ هل انهزمت؟ ماذا حل بك؟

- لم أعتد الألم بإرادتي..

- لا تستسلم بسهولة.

قلت في يأس:

- كُنت أظن أن الطاعون سيجعل الناس تتعظ، سيجعلهم يتركون مطامع الدنيا حتى يعملوا لآخرتهم، لكنهم لم يزدادوا إلا بطشًا وجشعًا، وهذا من عجيب أمرهم.

كانت نظرات زبيدة تنم عن حب دفين وصلني وشعرت به، لذلك أرادت أن تغير مجرى الحديث لتروّح عني، فكشفت عن قدور الطعام وقالت:

- لقد صنعت لكما الأوز المحشو بالفستق والخبز المفتت والبقدونس، وها هو مشروب الخروب يا ست مِسكة..

نظرت مِسكة برضا للطعام وقالت:

- وأين الحلو؟

هرعت زبيدة إلى أحد القدور فكشفته وقالت:

- صنعت وجبة الخبايص(10) كما أمرتِ..

قالت مسكة وهي تنظر إلينا في مودة:

- أريد أن أتناول طعامي معكما.. فالصحبة لا تعوض.

نكست رأسي موافقًا، فأنا لا أرفض لها طلبًا رغم أنني لا أشتهي شيئًا في الحياة.. لتمسك بيدي وتربت عليها قائلة:

- فوِّض الأمر لصاحب الأمر.. ستنصلح الأحوال.

***

الأول من أغسطس ٢٠٢٠ ميلاديًا - ١٤٤١ هجريًا

أنا الذي لم أنمْ يومًا إلا بعد وضع حجر آخر في بناء حلمي، أصبحت كالشبح الذي يهيم بحثًا عن جسده، وعن أحلام تناثرت في الهواء ولم يعد لها وجود، لم أعد ذلك الشخص المُثابر الذي لا تقف عقدة في طريقه، كل هذا الشقاء والكفاح ولا زلت أستجدي النجاح.

فتحت الباب بعد طرق متواصل كاد أن يكسره، لأجد زيزو أمامي، تبادلنا حينها نظرات قصيرة، ثم أدرت له وجهي ودخلت غرفة نومي، بينما كانت هيئتي يُرثى لها، دخل وأغلق الباب من ورائه، وفي غرفة النوم وقف يتأملها ويتأمل الحرزين المفتوحين أمامي فغطى النفور ملامحه، ثم ذهب إلى الشرفة المغلقة وفتحها وقال:

- ألا تُبدل هواء البيت؟ إن الرائحة لا تطاق، وما هذه الفوضى التي تعيش فيها؟!

لم أُوله اهتمامًا وتلحفت من جديد بغطاء نومي.. لكنه قال بنبرة غاضبة:

- هل ستنام الآن أم ماذا؟

زفرت نفسًا طويلًا ورفعت الغطاء دون أن أنظر إليه، بينما سمعته يقول:

- هيا سنتناول غداءنا ثم نزور الرجل الذي يعد من آخر نسل المماليك كما وعدتك من قبل..

- وفر جهودك معي، لن أقوم من مكاني ولن أخرج وليذهب آخر المماليك والتاريخ إلى الجحيم..

- ماذا؟!

نظرت له وأردفت:

- هل تخبرني ماذا جنيت من حبي للتاريخ؟ لقد كانت لقاء على حق، إن سيرة محمد علي لن تسدد عني مصاريف المدرسة، ولن يطعمنا الناصر محمد بن قلاوون، وها أنا ألقي بنفسي وحياتي في بيت تملأه العفاريت والشعوذة مُدعيًا أنه بيت العائلة العتيق، كفاني طوافًا حول أوهام وأحلام ليس لها قيمة.

أردف مُشفقًا:

- حسنًا.. بعيدًا عن كل هذا، لماذا تختفي وتغلق هاتفك وكأنَّ لم يعد لك وجود؟!

- لأنني تعبت من السخافات..

- وأهلك نسيت حقهم عليك؟! لقد هاتفني أبوك مرات عديدة وسمعت بكاء أمك من فرط قلقها..

أخفيت وجهي بين كفي، أريد أن أختفي ولا أتسبب في شقاء أهلي، استكمل زيزو حديثه:

- لست وحدك من تواجه المشاكل كل يوم يا حكيم، انضج.

قلت في حدة:

- عبد العزيز..

- لا تغضب، أنت تخبرني دائمًا أنني أخ كبير لك لكنك لا تتقبل نصيحتي! العالم كله يمر بضائقة مادية، الأفراد والشركات وحتى الحكومات، انظر حولك، لست أول رجل ترفضه زوجته، تحمل تبعات قراراتك، هل تشعر بالحزن؟ احزن ثم دعه يمضي، هذه ليست الجنة، ولكن لا تتهاوى هكذا، ستجعل من نفسك مسخًا مع الأيام والأمثلة حولنا كثيرة، قف من جديد وابدأ.

"تحمل تبعات قراراتك"، ها هي أزمة القرار تحاصرني مرة أخرى، أخذت أفكر هل حقًّا أنا رجل يتحمل تبعات قراراته؟! وهل كُنت أهلًا لها منذ البداية؟ أنا كالتائه الذي يعجز عن العودة من حيث أتى ولا يستطيع أن يُكمل طريقه، ساد الصمت بيننا ثم سألني زيزو:

- وصفحتك على موقع فيسبوك، وعملك الذي تحبه، أنت بارع في تصوير الآثار والحكي عنها، إنها شغفك في الحياة.. هل تذكر؟!

ضحكت ساخرًا..

- هل تسخر مني؟ لا أحد يهتم بكل هذا..

- غير صحيح.. نحن نزيد الوعي يومًا بعد يوم.

- سئمت مجتمع مليء بالقيود والتمرد في آنٍ واحد، ألقِ نظرة على مواقع التواصل الاجتماعي وقل لي هل هذا العبث ما نريد أن ننخرط فيه يوميًا؟! أن نصبح جزءًا من مشاكل الآخرين وتنمرهم وسخريتهم من كل شيء!

ابتسم زيزو في سخرية وقال:

- نحن لا نرى ما نحن عليه حقًّا من ازدواجية، أنت تنتقد المواقع الإلكترونية لكنك تستغلها لمصلحتك، تنتقد الناس في أمور شتى كُنت تفعلها، تحب دينك ولا تعمل به، تحترم الأذان ولا تصلي، تحب المساجد ولا تدخلها إلا في جولات العمل، تحب زوجتك وتكره الزواج، تعشق

بناتك وتكره مسئولياتهم، تتحدث كثيرًا عن الأحلام ولا تصمد في مواجهة عقباتها، أنا لا أدعي المثالية، ولست ملاكًا لكن ما كل هذا التناقض يا رجل؟!

بعد لحظات صمت ثقيلة خرج من الغرفة، وسمعت صوت باب الشقة يُغلق بعنف، وأنا ما زلت في مكاني صامتًا، كُنت كفلاكم ضُرب على وجهه عدة ضربات مُتتالية حتى شحِقَ عقلُه فتهاوى أرضًا، ولم يكن بجانبي مُدرب يُوجهني ولا طبيب يُسعفني ولا جمهور يتعاطف معي، قُمت كمن يبحث عن أحد يواسيه فلم أجد أمامي حلًا إلا المياه، وقررت أن أخذ حمامًا باردًا جدًا، أريد أن أغوص بداخل نفسي تحت المياه، تجردت من ملابسي ومن أفكاري وبدوت عاريًا لأول مرة أمام نفسي، كُشفت الحُجب ورأيت صورتي الحقيقية دون رتوش.

***

٧٥٣ هجريًا - ١٣٥٢ ميلاديًا

"ولتعلم أن كل ما تراه عيناك بفرضية الدوام لا يخضع يقينًا إلا لحتمية الزوال"، كانت مِسكة نائمة بينما تتردد صدى كلماتها تلك في عقلي، وأنا عاكف على قراءة السنة النبوية الشريفة، فتركت الكتاب الضخم من يدي وقد تذكرت كل ما مر بي في حياتي، وشردت وقد سيطر اليأس على قلبي فجأة، حتى أفاقت مِسكة من نُعاسها ثم قاومت عيناها النور الآتي من نافذة الزنزانة، وقالت:

- هل أنت بخير؟

- يحسبونني دُمية يلهون بها، قطعة من الطين يشكلونها سلطانًا كما يريدون، فإذا تصلبت كسروها.

جلست مسكة تنفض آثار النوم عن وجهها وقالت بتلقائية:

- معاذَ الله..

- أندم على عدم تصديقك، لكن الندم في تاريخ البشر لا يفيد، فلا الزمن يعود ولا السلطنة.

- ستخرج من هنا وستعود السلطنة، لن يفيد الحزن في شيء.

ضحكت ساخرًا وأنا أذكر ما قالته سابقًا عن غموض حادث موتي وتفاصيل هذا اليوم الذي يبدو أقرب من الهواء الذي أتنفسه..

لكنها أردفت في ثقة:

- دعك من انتظار الموت الآن وقاوم لما تبقَّى من حياتك..

- هذه الحياة قاسية تمتص كل شيء.

- اجعلها تمتص أحزانك لا أحلامك، كُن قويًا مثل أبيك وجدك.

نظرت لها في غضب ولم أعقب، فقالت في استنكار:

- تظن أن حياتك سيئة؟! أنت لست الوحيد في هذه الدنيا الذي ينعت حياته بالسيئة، هناك الكثيرون ممن يواجهون السوء كل يوم، والكثيرون ممن مروا به بالفعل والكثيرون سيمرون مثلهم، هذه هي الحياة؛ طيبة وسيئة.

ثم نهضت واقتربت مني..

- تعلم أن صرغتمش قد اشترى أراضي المساكن المجاورة لجامع "أحمد بن طولون"

وهدمها، وبدأ في بناء داره بجوار بئر الوطاويط؟ لقد عظم أمر صرغتمش في دولة أخيك الملك الصالح، واستقر كرئيس للنائبين في رتبة الأمير شيخوا.

- والأمير شيخوا؟

- لقد حدث كل هذا باختياره، وجعل له التصرف في أمور الدولة كلها من الولاية والعزل والحكم، الآن يقصد الناس صرغتمش لقضاء أشغالهم، عظمت هيبته، وصار يعارض الأمراء في جميع أفعالهم.

- وأين الأمراء من ذلك؟!

- إن صرغتمش يغضب من أقوالهم المخالفة له في أي أمر من أمور الدولة ويبطلها في الحال، والناس تهابه.

- ستقع الفتنة..

- لن يستقيم الحال.. وظني بشيخوا أنه لن يتركك، لابد أن تستعد وتُعد نفسك للحكم من جديد.

- لماذا أنت واثقة دائمًا يا مسكة؟

تغيرت نظراتها وقالت:

- لأن يقيني بالله لا يفتر أبدًا، بل يشتد في أصعب المحن.. ورغم أن الموت نهاية محتومة إلا أن الحياة تستحق أن نلتفت إليها ونقاوم ما زلنا قادرين على السير.

- هل تعلمين أن "يلبغا" يخدم في سلطنة أخي من بعدي؟

- ليس بيده من الأمر شيء، ولكن لا تأمنه رغم ذلك.

- وكيف أعيش بينهم بدون أن أثق في واحد منهم؟! واحد فقط.. قولي لي في من أثق إذا عدت وتحقق كلامك..

- لا تثق في أحد..

ثم وضعت إصبعها على شفتيها وبدت كأنها تتذكر شيئًا..

- لكن تذكّر طولوبية عندما تعود للحكم، إنها تحبك وستجعل حياتك سعيدة، كذلك تذكر "أيدمر الدوادار(9)" فهو أمير مخلص.

ابتسمت ساخرًا وقلت:

- تعلمين شيئًا يا مسكة.. أنا حقًا لا أبالي، لا أتصنع اللامبالاة، يكفيني أنني كلما تقربت إلى الله ملأ قلبي بالأمان..

قاطعتني بدورها:

- هذا ما أريدك أن تفعله، أن تكون في مظلة الله وحينها لن يقربك مكر المماليك وغدرهم، لن تأخذ إلا نصيبك يا مولاي، لقد رأيت الكثير مع والدك السلطان، لقد قاسى وتحمل ما لا يستطيع أحد أن يتحمله، وأنت تشبهه إلى حد كبير..

- لا أشبهه البتة..

- أنت تملك روحًا قوية مثله، كل ما عليك أنت تروضها لتطيعك..

شردت مسكة وهي تنظر إليّ وقالت:

- أنت تشارك أباك في لقب الناصر! كما جلس أبوك على كرسي الملك في الرابع عشر من الشهر وأنت كذلك! وقد خُلع أبوك من الملك وعاد إليه أيضًا، وها أنت خُلعت من الملك وستعود إليه بأمر المولى، وستعود مثل أبيك على كرسي الملك في ثاني شوال!

- عجيب أمرك!

ربتت مسكة على كتفي ولم تُعلق، لقد أمضيت طفولتي من ضائقة لضائقة أخرى، قاسيت عند موت كل فرد من أفراد أسرتي ولم يشعر بي أحد، لم أحظَ بما يحظى به أقراني من مرح حتى من العوام، رغم ترف السلطنة الزائفة، ربما تشعر مسكة بي لكنها لم تمر بما مررت به، أنا أكون سعيدًا فقط عندما أنام، عندها أفعل ما يحلو لي دون قيود، ليتني أنام إلى الأبد.

نظرت لها متحديًا نبوءتها:

- وماذا لو قُتلت؟

أجابت بهدوء:

- لن يخذلك الله حيًا أو ميتًا.

***

الخامس من أغسطس ٢٠٢٠ ميلاديًا - ١٤٤١ هجريًا

هزتني كلمات زيزو عن تناقضاتي التي أعلم بوجودها بداخلي لكني لم أهتم بمواجهتها فحسب، كنت أحاول أن أثبت لنفسي قبل كل الناس أنني لست بشخص منهزم، وأنني قادر على التغيير.

على مشارف شارع "باب الوداع" بمنطقة "الحطابة"، وصلت عند سبيل "شيخوا العمري" أسفل مبنى الخانقاه النظامية(8)، وقفت أشاهد حلم "مُبادرة سيرة القاهرة" يتحقق شيئًا فشيئًا بأيدينا، ومحاولات دائمة لكشف الحقائق والحفاظ على الأثر يا لجمال تاريخ هذه البلد العظيمة!

كنا قد أتينا من أجل مُهمة شاقة، حيث اجتمع زيزو رفقة بعض المتطوعين لتنظيف الطريق، حيث يرتدون جميعًا قفازات سميكة، وزيزو يقف في مُنتصف دائرة بين الشباب يتحدث بحماس، اقتربت منهم، فرأيته يشير إلى الطريق وراءه ويقول:

- كان شيخوا أميرًا من كبار مماليك "الناصر محمد بن قلاوون" و"السلطان حسن"، في دولة المماليك البحرية، وكان له "رنك".. أي "رمز" محفور على جدران السبيل، كان الرنك عبارة عن "كأس" كدلالة على أحد وظائفه كأمير ساقٍ، وهذه كانت وظيفة مهمة ومُقربة جدًا للسلطان، خاصة لأنه كان يشرف على خلو السقاية المقدمة للملك من السم.

رأيت الشباب يستمعون في شغف، ثم تناول زيزو جرعة ماء وأكمل وهو يبتسم إليّ مُشجعًا ويتفحص الوجوه بذكاء كعادته..

- هذا الأثر نادر من منتصف القرن الرابع عشر، بل إنه الوحيد في القاهرة الغائر في الحجر، أو منقور أى محفور في الصخر في شكل غير مُعتاد لبنايات الأسبلة، هذا ما يجعله مُتفردًا بين كل عمائر القاهرة التاريخية.

وفي تلك اللحظة باغتتني ومضة قوية أغمضتُ عينيّ على إثرها، ثم فتحتُها لأرى الطريق كتُحفة معمارية! فغر فاهي ونظرت إليه مُندهشًا، لقد اختفى زيزو والمجموعة! ورأيت رجلًا مُتوسط القامة أبيض البشرة، شعره أسود تغطيه عمامة كبيرة، ويرتدي عباءة مزركشة، يعتلي فرسًا أسود قويًا يمشي بزهو وكبرياء يسير خلفه كأنه أمير، كان الرجل يتفحص المكان وحوله أناس ينظرون إليه في وجل وهم يكملون زخرفة الطريق! ظل يتفحص كل شيء بعناية ويُلقي بتعليمات إلى رجل معه بصوت لم يصلني، وما إن انحنى الرجل أمامه حتى عادت رؤيتي لزيزو والمجموعة، ورأيت زيزو يلتفت وراءه ويقول:

- لم يتبقَّ من الطريق سوى تلك الواجهة المُزينة بشريط كتابي ورنك الأمير شيخوا، والغرفة الداخلية وبها فتحة الصهريج، ولكن للأسف في حالة يُرثى لها، فأصبح مكانًا لتجمع القمامة وكهفًا مهجورًا! لذلك نحن هنا لنحيي الأثر ونترك أثرًا نُحيي به التاريخ.

حينها ظهر الأمير من جديد لكنه نظر نحونا مُتعجبًا، ثم ابتعد عن الرجل واقترب يتفحصنا فأثار فرسه التراب من حوله، وللحظات لم أفرق بين الحقيقة والوهم، بينما أشار هذا الأمير إلى الرجل الذي ينظر ناحيتنا فبدا كأنه لا يرانا، ووجدت الأمير وزيزو يحملقان في بعضهما في ذهول وارتياب فأخرج سيفه من غمده وبدأ فرسه يقترب منا، لكنه اختفى تدريجيًا خلف الأتربة وعاد كل شيء إلى هيئته!

تبادلت مع صديقي ذهولنا بعدما أدركت أنه قد رأى ما حدث مثلي مثله تمامًا، الآن بات زيزو شريكًا لرؤى لن يصدقها أحدٌ غيره، لكنه تجاوز كل شيء وعاود الحديث إلى المجموعة وهو يتلفت حوله، وبدأ يُلقي الشروط والضوابط التي نتحرك بها في نظام وجدية، وأشار إلى المعدات التي أحضرها من أجل ذلك، وبدأنا العمل مأخوذين بهذه الرؤية العجيبة، عدت إلى تنظيف الطريق وأنا لا زلت أستنشق التراب الذي أثاره فرس الرجل الذي رأيته!

***

٧٥٤ هجريًا - ١٣٥٣ ميلاديًا

هذا العالم لا يعرف الرأفة بالنفس البشرية، لكن الشيء المدهش في سجني أنني رأيت أشكالًا أخرى للحياة، إن الحياة ليست كما رأيت مع المماليك، لعبة مُتواصلة من الكر والفر، إن التدبر في أمور الكون وما يحدث فيه يجعل النفس هادئة مُستكينة، لقد أصبحت على يقين بأن لا أحد يستطيع أن يعبث بقدري، لا شيء يمر إلا بإذن الحكيم، ومن يقيني رأيت أن قلق النفس البشرية ما هو إلا عبث شيطاني، يقذف بالروح في الهواء ويتركها تتأرجح وتقاسي آلامًا غير موجودة، طالما أن قدري مكتوب بيد الله فلن أبالي بعد الآن.

جلست أقرأ القرآن الكريم وأحاول التدبر فيه، فقد عكفت على قراءة التفاسير والفقه، بعد أن وصلت لنهاية "سورة الكهف" التي تجعلني أتفكر في معاني الخير والشر في الحياة، أغلقت كتاب الله ونظرت إلى مِسكة وهممت أن أتحدث لكنها كانت في عالم آخر، إذ لاحظت أنها هادئة طوال الفترة الماضية دون سبب واضح، فشرعت أحادثها في أمر أحزنني..

- أترين أن الأتابكي شيخوا بكل ما يتمتع به من نفوذ لم يقف بجانبي في هذه المحنة أمام الأمراء! لم يقف بجانبي إلا شاد العمائر "محمد بن بيليك المحسني" الذي يزورني بانتظام ويخفف عني في سجني موقنًا بأنها محنة إلى زوال، لن أنسى له ذلك ما حييت.

مرت لحظات ولم تُجبني، فناديتها برفق:

- ست مِسكة..

أفاقت من شرودها وابتسمت في وداعة ولم تُجبني، قُلت:

- أراك ساهمة على غير عادتك منذ فترة..

أردفت:

- أخاف عليك من بعدي.

- لكنكِ معي وستبقين معي إلى أن أموت.. أو يقتلونني.

- لا أراني الله هذا اليوم.

اقتربت وجلست أمامي، نظرت في عيني جيدًا وكأنها تراني لأول مرة ثم أمسكت يدي وقالت:

- لقد مات أمير المؤمنين الإمام "أحمد الحاكم بأمر الله ابن الخليفة المُستكفي بالله "، لكنه لم يعهد لأحد من أقاربه بالخلافة من بعده..

- متى؟

- مات منذ قليل وسيأتيك الخبر بعد قليل..

نظرت إليها متعجبًا فاسترسلت في تنبؤاتها..

- ما يهمني أنهم سيتفقون على ولاية أخيه "الإمام أبي بكر ابن الخليفة المستكفي بالله "، وتذكر.. أن هذا الرجل من بني العباس سيشهد عودتك..

نظرت إليها في حيرة ولم أفهم ما تقوله، وضعت كفي على جبينها وأردفت:

- أنتِ محمومة؟

أزاحت يدي برفق وقالت:

- اسمعني جيدًا، ليس لدى متسع من الوقت، أوصيك خيرًا بمسجدي، اهتم به ما حييت، لقد أصبح المكان حوله عامرًا بالأسواق والخير بعد بنائه.

- ماذا بكِ؟

- الناس يهابون ما يجهلونه، أريدك أن تبقى غامضًا، لا يستطيع المماليك التنبؤ بردة فعلك ولا بما يدور في ذهنك، لا تأمنهم مهما قدموا من ولاء واستعطاف.

ساد الصمت وقالت كأنها تذكرت شيئًا:

- وإذا غلبتك حيرتك في أمر اذهب لشهاب الدين.

فُتح باب الزنزانة ودخلت زبيدة تحمل الطعام، وضعته جانبًا وجلست بين يديها بعد أن ألقت التحية في اقتضاب، قالت مِسكة:

- هل من جديد؟

- مات أمير المؤمنين والناس في حزن شديد..

اتسعت عيناي اندهاشًا ونظرت لمِسكة في شك، هل من المعقول أن تكون قد دبرت مكيدة لقتله! هذا مستحيل لأنها لن تجني شيئًا من حياته أو موته، ولكن كيف علمت بموته؟! لم أسمع ما قالته مِسكة من شدة شرودي، لكني سمعت صوت الباب يُغلق من الخارج مرة أخرى إشارة إلى رحيل زبيدة وانقضاء الوقت، نظرت إلى مِسكة وقد تذكرت يوم الغلام وصوت الفحيح وذِكر أخي الملك الصالح والمعركة، كل هذا جعلني أشعر بضآلة فهمي أمامها، كانت مشاعري مشوشة واختلط الحب بالحيرة، لكن ثقتي في حبها لي لم تهتز قيد أنملة، سألتها

في حيرة:

- كيف علمتِ؟

- أترى هذه العلامات على وجهي؟! إنها ليست تجاعيد كما تظن.. إنها علامات أنارت طريقي الفريد، كل طريق سلكته أعتز به، ولم أسمح للندم النيل مني، لأنني أعلم الآن أن طريقي استحق المُجازفة.

كُنت أنظر إلى تجاعيد وجهها وأرى أيامي ولحظات سعادتي وشقائي معًا، لقد كانت هناك معي تساندني على الدوام، ابتسمت لها في حنو وربت على رأسها وضممتها إليّ وكأنها ابنتي، لم أكن أعلم لماذا أفعل ذلك وهي من تواسيني ولست أنا، شعرت بعدها بأناملها تطوّقني وقد أسندت رأسها على كتفي، وسمعتها تقول بصوت خافت:

- أنت ابنٌ لم ألده، أخاف أن أتركك ولم يشتد عودك، لكن.. العواصف ستأتي من كل اتجاه، الطف يا لطيف.

أردت أن أرى وجهها قبل أن أفارقها لكنها تشبثت بي بقوة، وغرزت أناملها في ظهري، وشعرت بتلاحق أنفاسها كأنها تستغيث بي، وحين حاولت مرة أخرى أن أغادر أحضانها تشبثت بقوة أكثر وأنا أتعجب، فقلت لها:

- أشعر أنك مذعورة!

حينها اندفع باب الخزانة ودخل الحراس عنوة ملثمين، وقبل أن تُدير مِسكة وجهها إليهم صرخت في أحضاني، وزاد تشبثها بي، لكنهم أمسكوا بيديها الاثنتين وجذباها بعيدًا عني بلا رحمة، كانت رأسي تغلي وأنا أصرخ فيهم:

- اتركوها أيها الكلاب..

لم يولني أحدٌ منهم اهتمامه وقال أحدهم موجهًا حديثه إليها بصوت حازم أجش:

- لكِ أن تتركيه وحده في السجن وتعودي للبلاط السلطاني، أو تظلي هنا وحيدة.. الخيار لكِ.

نظرت لي مِسكة وقالت باكية:

- والله لا أتركه وحيدًا تنالون منه في غيابي..

جذبها الأوغاد بقوة وصرخت أنهيهم عما يفعلون من جديد، لكن أحدًا لم يُصغي إلى السلطان المعزول، وعندما خرجت من أحضاني تلاقت وجوهنا فرأيت دموعها غزيرة وهي

تصيح:

- لا تخف.. فراق مؤقت ولقاء قريب..

أمسكت بيديها بقوة وأنا أنظر لوجهها، أردت أن أملأ روحي بملامحها، أردت أن أموت بعدها فيكون وجهها آخر ما رأيت، وجه الأم التي رافقتني حتى في سجني وشدتي، وكأن عيونها تودعني! كانت تعلم كل شيء، كيف علمتِ يا مِسكة؟! وكيف أعيش بدونك وبدون نصائحك وزقيتك؟! لابد من نبوءتك ولا مفر من الألم المنتظر.. اضطر الحُراس إلى تحرير يَدَيْنا بالقوة، رأيت وجهها الجميل الحزين يبتعد عني رويدًا رويدًا، وجهها الذي كان منذ لحظات في أحضاني، وأدركت أن دموعها الغالية قد بللت ملابسي، وقبل أن يختفي وجهها من أمامي مسحت دموعها وهم قابضون عليها بقوة، ورأيت ملامحها الحزينة تتبدل إلى قوة كما عهدتها وقالت بصوت رج الأحياء والجماد:

- تذكر ألا تأمنهم.. ولا تهاب إلا الله.

***

٧٥٤ هجريًا - ١٣٥٣ ميلاديًا

يمكن للطبيعة البشرية أن تكون أكثر قسوة من أي شيءٍ آخر، لم يكتفِ هؤلاء الكلاب بسجني، بعد أن أخذوا مني أغلى ما أملك في الحياة، ست الحُسن والجمال، ست حدق، ست مِسكة الناصرية إلى زنزانة أخرى، بعد أن أخذوا ما تبقى من روحي، وإنما منعوا عني كل الزائرين إمعانًا في إذلالي، كل من اهتم لأمري مُنعت من رؤيته، ماذا يريدون بعد كل ذلك؟! ومتى أرى الرحمة؟!

لم أكن أحتمل الحياة إلا في وجود مِسكة، توقفت عن القراءة والاطلاع منذ فراقها، فأنا لم أنشأ إلا في أحضانها، لطالما كانت لي أمًّا حنونة وناصحة أمينة، ولاؤها لعائلة قلاوون لا يُقدر بثمن، حكت لي الكثير مما فعلته مع أبي، لقد قادته إلى عرش البلاد طفلًا، ثم ساعدت في استرداد سلطنته بعد عزله الأول، والثاني والثالث، ولكن من وراء الستار، وشدت من أزره في جميع النوائب والشدائد، وقام هو بتشييد مسجدها اعترافًا بعرفانها وتقديرًا لها.

الأيام تمر علي وقد ذبلت روحي، كُنت في البداية أراها من بعيد في زنزانة قريبة، فأشير إليها أن تصمد لتلوح لي وهي تحاول ألا تبكي، أراها قد وهنت وتدهورت صحتها، وانحنت قامتها التي قاومت الزمن في قوة، لكنها تحاول أن تبتسم من أجلي، وأنا أصبحت كتمثال حي يأكل ويشرب ليعيش من أجلها، أراها فأصيح "لا تقلقي أنا بخير" لتسمع صوتي فتبتسم أخيرًا، يعتقدون أنهم منعوا المربية عن السلطان المعزول، لا يدركون أنهم منعوا أمًّا عن ابنها الوحيد.

في هذا الصباح البائس كانت الغيوم تعلن عن غموض قابض، رأيت السحاب يسبح في السماء، يجري والوقت يجري معه، كل شيء يؤلمني في غيابها، صدى كلماتها لا تفارق أذنيّ، ما زلت أشعر بأحضانها وأتحسس كتفي الذي بللته دموعها، أبكي عندما أتذكر عجزي وهم يأخذونها من بين أحضاني، لم يراعوا قدرها ولا عمرها الذي قضته في خدمة البلاط السلطاني، هؤلاء الكلاب لو أنني أستطيع أن أميز هيئتهم، وعندما سأخرج من هنا وأستعيد ملكي يا حبيبتي سأثأر لكِ منهم.. اصمدي فاللقاء قريب كما قُلتِ.

جلست وفتحت كتابًا لأقرأ من جديد، أحاول ألا أجزع بعد طول غيابك الذي أنهك قلبي، وفجأة سمعت صراخًا وعويلًا ونحيبًا! إنها أصوات الجواري اللاتي يزرن مسكة بانتظام، فوقع الكتاب وارتعشت يداي، ثم سمعت صوت زُبيدة تبكي صارخة..

- ست مِسكة.. أجبيني.. أنا زُبيدة.. من لي بعدك يا حبيبتي.. ماتت ست البر والصدقات.. ماتت ست الخير.. آااه يا ويلي من بعدك.. يا ويلي.

وانخرطت في بكاء سمعه قاطنو القلعة كلها، وانتقلت رعشة يديَّ إلى قلبي ثم إلى جسدي كله، وسالت دموعي حارة حانقة، سلمت روحها لخالقها، وأنا غير قادر على تصديق أنني لن أراها مرة أخرى، لن أسمع نصائحها، لن أستمتع بصحبتها، قُمت ثائرًا أبكي وأصرخ باسمها وأضرب الباب بقوة لأراها، ظللت هكذا لفترة حتى اختفى صوتي واختلط نحيبي وسط نحيب النساء في زنزانتها، جلست على الأرض خلف الباب وقد انقلب كل ما بداخلي من خير إلى حنق نحو الأمراء والمماليك، سالت دموعي وأنا أتذكرها تبكى آخر مرة وكأنها علمت أنها تودعني، يا إلهي كيف أدركتِ أنها المرة الأخيرة يا مِسكة؟

جففت دموعي جيدًا حينما تذكرت آخر ما رأيته منها من قوة وهي تقول:

- تذكر ألا تأمنهم.. ولا تهاب إلا الله.

هم لا يعلمون ماذا فعلوا، لو أنهم تركوها تموت بجانبي لجنبوا أرواحهم الهلاك..

سلامًا إلى روحك الطيبة واعذري جسدي الذي لم يستطع تشييعك، لن يتركوني لأودعك لكن روحي حولك في كل مكان.

جاءتني زبيدة بعد ذلك بعيدًا عن أعين الحراس، لتخبرني أن آخر ما نطقت به كان اسمي وهي تردف "السلطان قماري" ثم نطقت بالشهادة.

"ست مِسكة الناصرية"، عرّافتي التي جعلت عينيَّ ترى ما لم تنظر إليه.. لن يختفي اسمك من الوجود أبدًا، ولن تختفي ذكراكِ من قلبي، عليك رحمات الله وسلامه وإلى لقاء قريب.

***

الثاني من شوال ٧٥٥ هجريًا - ١٣٥٤ ميلاديًا

الحلم والطموح يجذبانني كالدراويش، واحتمالية النجاة في هذه الدوامات منخفضة، رغم يقيننا وسكوننا في لحظات الحقيقة إلا أن الحياة دومًا تنتصر لمن يحبها.

صدق ظن مِسكة بشيخوا، لقد اتفق مع صرغتمش على خلع أخي الملك الصالح من السلطنة كما خُلعت أنا من قبل، ومن حُسن حظ أخي أيضًا أنه لا زال على قيد الحياة، بينما اتفق الأمراء فيما بينهم على عودة قطعة الصلصال بين أيديهم، فأنا لم أعترض ولم أفعل شيئًا في سجني سوى التعبد والقراءة، لعبوا بي حتى تأكدوا من موتي على قيد الحياة، ثم عرضوا علي السلطنة بشروط قبلتها، لكني صدقت مِسكة حين أوصتني بعدم الثقة بأحد، وحينما رأيت أمير المؤمنين "المعتضد بالله الإمام أبي بكر ابن الخليفة المستكفي بالله " والقضاة الأربعة يعيدوني إلى السلطنة، تذكرت نبوءة مِسكة مرة ثانية، وها أنا أخرج من سجني وأعود للسلطنة ويبايعني الخليفة كما ذكرت! كيف علمتِ يا مِسكة يا كتلة الأسرار! لكني برغم عودتي واطمئناني لتحقق كلامها.. خِفت أكثر لأن ذلك يؤكد لي أن نبوءتها ستتحقق أيضًا وأنهم سيقتلونني لا محالة وسيعجز الناس عن معرفة طريقة قتلي حتى!.. يبدو لي أن مسكة لا تُخطئ أبدًا.. لكني لا أملك القرار في مصيري الآن، ولهذا عقدت العزم على قبول التحدي طالما أنني أعيش وأتنفس..

لبست شعار الملك من باب الستارة، ومشت بين يدي الأمراء وهم بالشاش والقماش، حتى دخلت القصر الكبير، وجلست على سرير الملك من جديد، وشعرت أنني لست "قماري" الطفل الذي دخل هنا منذ ثلاث سنين وثلاثة أشهر وأربعة عشر يومًا، ولست السلطان حسن الذي عرفوه، نظرت إليهم أتأملهم بشخصي الجديد، الذي لا يعرفونه، بعد أن أقسموا بالولاء والطاعة! ها هو يلبغا العمري الذي إشتريته من مالي الخاص وخدم أخي من بعدي، وها هو صرغتمش الناصري الذى خان وتآمر، وشيخوا العمري الذى لا أفترض فيه السوء إحتراما لنبؤة مسكة، لا زالوا ينظرون إلى سلطانهم القديم الوديع الذي لا يعترض ولا يحكم، ثم نُودي باسمي مرة ثانية في القاهرة، وارتفعت أصوات الناس بالدعاء "عاش الملك الناصر"، وذُقت لي البشائر بالقلعة.

لم تخدعني كل مظاهر الملك الزائفة هذه المرة، لكني أعطيتها حقها من زيف موازٍ، وعزمت على خداعها كما خدعتني في المرة الأولى، اتخذني الأمراء في ولايتي الأولى واجهة، سلطان واجهة وأمراء يحكمون، طفل يضعونه على العرش لوقف الصراع الدائم بينهم، لحقن الدماء ولو لفترة، ثم تدور دائرة الدم والخلع من جديد، ليقسموا بالولاء مرة أخرى لسلطان جديد ثم يثوروا عليه، فيسجنوه أو يقتلوه.

أما الآن فليبدأ العزف على أوتاري الجديدة، ولتسمعوا ألحانًا لم تسمعوها في تاريخ المماليك من قبل، ابتسمت لهم جميعًا وأظهرت مودتي.

"غاب كالبدر في سحابة، وعاد إلى السلطنة كالسيف المسلول من قِرابه"

قالها الشيخ شهاب الدين ابن حجلة مُسهبًا في جمال عودتي للحكم، فابتسمت وأنا أتأملهم جميعًا، ثم لمحتها من بعيد تنظر إليّ في شوق وفضول، ابتسمت لها بصدق، أشتاق إلى أي شيء يذكرني بمِسكة التي لن أنساها، لم أجتهد كثيرًا لتمييزها، خُصلات شعرها الشقراء تلمع وتشير إلى وجودها الفريد وسط الجواري، أتذكر نظرات عينيها الزرقاوين اللتين تحملان الكثير من الغموض، لكنني لم ألتفت إليها يومًا وأراها كما أراها اليوم، أراها نضجت وامتلأ قوامها النحيف فأصبحت أنثى رائعة الجمال، إنها "زُبيدة" جارية مِسكة المُقربة، شعرت براحة لوجودها في ذلك اليوم خاصة كفأل حسن، وقررت أن أبقي عليها بلا شك، ليتك بجانبي يا مِسكة لنحتفل سويًا، لكن هناك شعور بداخلي أعرفه جيدًا، شيء ما ينقصني، شيء بداخلي يبحث عن "طولوبية"، يا ترى أين هي الآن؟! وهل تتذكرني؟! لقد قال لي يلبغا إنه رأى شهاب الدين الدرويش في مسجد الأمير شيخوا عدة مرات، وأنه يعيش هناك مع الصوفة لحين انتهاء بناء الخانقاه، لابد أنه يعرف أخبارها.

قطع أفكاري الشيخ جمال الدين بن نباتة المصري وهو يقف أمامي ينحني ويهنئني:

غد على النصر والسعادة يا من

رفع الله في السلاطين شأنه

أنت سهـم لله ما كـــان يخلي

منه أوطان مصر وهي كنانه

استقبلت تهنئته بابتسامة، فكل السلاطين تستقبل أحر التهاني وأخلصها من نفس الأشخاص! ثم استقبلت بعدها التهاني من جميع الأمراء مُبتسمًا ومُرحبًا، وأنا أنتوي في نفسي أن أولي الأمير شيخوا العمري منصبًا كبيرًا؛ لأنه يستحق، وأن أولي صرغتمش منصب رئيس لنائبي الأمراء، إذ لابد أن أحمي نفسي الآن من شره، فأنا أعلم أنني لن أنفذ ما أصبو إليه الآن، لكنهم لن يُحنوا قامتي بعد اليوم، سوف أستخدمهم جميعًا، وسيكون للصبي الساذج وجه آخر لا يعرفونه، وجه آلمته الأيام أكثر مما ينبغي.

***

السابع من أغسطس ٢٠٢٠ ميلاديًا - ١٤٤١ هجريًا

العمر كله يتلخص في سؤال.. هل أنا مُصر على تحقيق أحلامي مهما قابلت من صعوبات في طريقي؟! كلمة "نعم" لم تكن كافية، وإنما العزيمة هي العامل الحاسم، إصراري وتحدي الظروف القاسية هما الأسباب الوافية فقط لشروط النجاح، أنا هنا في هذه الحياة من أجل رسالة مختلفة.

إن العالم مليء بالعبث، لكنه عبث مفيد، فإن لم يكن للعبث وجود لما عرفنا قيمة الأشياء، مثله كمثل المرض مُفيد أيضًا، لأنه يضغط على أوتار إحساسك الميتة لتعلم قيمة الصحة، الآن أنا مدرك تمامًا لسلبياتي وما عليّ أن أفعله، ولن أتذمر من انقلاب الأحوال بسذاجة لأن دوامها مُحال.

وبناء عليه فقد اتخذت عدة قرارات جديدة، أولها أن أواصل العمل على أحلامي في كل الظروف، وها أنا أبدأ اليوم بمقابلة البرنس "فخر الدين" آخر المماليك الجراكسة، مُتحمسًا كأنني سأقابل أحد السلاطين أو الأمراء الكبار، وكان زيزو قد انخرط في جولاته ونظم لي هذه الزيارة على سبيل التعارف، ولسبب في نفسي لا أعلمه قررت وضع الحرزين في شقة جدتي في الطست النحاسي، هكذا أرحت نفسي وعقلي.

كان النيل هو السبيل الأمتع للوصول إلى قصره بجزيرة في النيل، النيل الذي ظللت أنظر إليه لأرى أفكارًا جديدة تنعش روحي رغم شدة حرارة الطقس والرطوبة، إلى أن اقتربت الشمس من المغيب وقاطعني صوت المراكبي:

- وصلنا يا باشا..

رست المركب في مواجهة القصر بسلاسة.. قصر على الطراز المملوكي جعلني أبتسم، وأنتقل معه إلى عالمي الذي أفضّله وتمنيت العيش فيه، وما إن اقتربت حتى بدأت موسيقى بديعة تصل إلى أذني وتغمر قلبي بنشوة عارمة، صوت عزف لآلاتي "الكولة" و"القانون"، ومن بعدهما صوت عذب يصلني بوضوح راجيًا:

- "ياااا رب"

وقفت عند الباب مُستبشرًا وأنا أستمع لعزف آلات شرقية، ثم دخلت بخطوات مُتأنية ليستقبلني صوت المداح وهو يطيل في المناجاة:

- "يا عاشقين النبي حب النبي في ديني... ياااا رب"

فتح الباب رجل أنيق بشوش، وأشار لي بالدخول فرحًا:

- أهلا أستاذ حكيم.. تفضل البرنس في انتظارك.. أنا محمود.

اصطحبني محمود إلى داخل الحديقة التي تتوسط ثلاثة مبانٍ حولها، وأبوابها من الحجر الأبلق الذي لا أراه إلا داخل مساجد ومدارس وخانقاوات المماليك، بينما تجلس الفرقة الموسيقية في دائرة وسط الحديقة بجانب ينبوع ماء صغير، خرير مياهه يصاحب الموسيقى ويهمس في أذني، ثم أجلسني الرجل دون أن يقدمني للبرنس ففهمت أنه لا يريد مُقاطعة المديح، كان هناك رجلان يجلسان في استمتاع بادٍ بالفرقة الموسيقية، فخمنت هوية البرنس من بنية جسمه الضخمة وملامحه غير المصرية وتمنيت أن يكون تخميني صحيحًا.

أصبح الجو بديعًا في ذلك الحين وقد اختفت الشمس تمامًا وهلت نسائم استثنائية تتماشى مع يومي، كأنها حضرت عند الذكر برفقة أرواح طيبة، جلست أنصت إلى كل دقة عزف وترديد المديح وخرير المياه، وأنا أنظر إلى القصر الذي أخرجني من ذاتي ومن دوامة قلقي مع أنه حديث البناء.

نظر إليّ البرنس وابتسم وهو يشير إلى محمود بالانصراف، ليثبت لي أن تخميني كان صائبًا، وجلجل صوت المداح:

- إن حد مدح النبي مدحه بيشجيني.. وإن حد قال عشان النبي له لو طلب عيني.. يا كلمة ياللي بنار حبك كوتيني.. غرقان في بحر الغرام على بر رسيني.. إمتى تحنى عليا ومني تاخديني.. يرتاح فؤادي ومن ضيك تغذيني..

ظل المداح يعيد كلماته في وَلَه، حتى شعرت أن روحي صعدت وتركت جسدي مكانه، أشار لي البرنس وأفسح مكانًا بجانبه، فجلست فيه، ليقول:

- نورت يا حكيم..

اتسعت ابتسامتي وأردفت على الفور:

- سعيد لرؤية حضرتك.

جاء محمود وقال:

- كل شيء جاهزًا..

وسط المديح اصطحبني البرنس إلى باب القصر وقال:

- سأصطحبك في جولة سريعة داخل القصر ثم نعود للشيخ أحمد، لا تقلق سوف يُعيد

ويُزيد.

سرت معه ولم أعرف كيف أكبح جماح فرحتي، وعند المدخل انتقلت من كوني زائرًا لقصر إلى زائر لمتحف، حيث رأيت عن يميني ويساري مقتنيات أثرية لا حصر لها، وأمامي كانت هناك لوحة مُعلقة كبيرة كُتبت بخط بديع "يختبرون شعور الزوال ويتقبلون النقص"، وحين تسمرت في مكاني مبهوزًا قال في فخر:

- بعض هذه المقتنيات لأجدادي وأجداد أجدادي.. بعضهم من عصور أخرى، ليسوا لعائلتى ولا أعلم كيف وصلوا لأجدادى وورثتهم.

- إذن هو تاريخ.

وقفت أمام كل قطعة أتأملها، صور فوتوغرافية، رسومات لأناس في عصور مختلفة، أباريق نحاسية، أطباق وأدوات ومناضد أرابيسك ونحاسية ذكرتنى بمقتنيات جد زيزو، استكملت الجولة معه داخل القصر الذي نجحت كل محاولاته لتضاهي قصور الأمراء في عصورهم، غرف النوم، غرف الجلوس، الحمامات وحتى المطابخ، عند أحد المقاعد التي تشغل الأركان أشار لي بالجلوس ونظر لي البرنس بعيون لامعة وقال:

- لماذا تحب العصر المملوكي يا حكيم؟! عصر الدم.. المذابح والخيانات!

ابتسمت قائلًا:

- نعم هو عصر صعب، لكن هناك من المميزات ما يجعلني أميل لبعض سلاطين المماليك، أهمها طفرة العمارة الملحوظة، لا أعلم حقًّا لكنني أجد نفسي فيه.

ابتسم وقال:

- سأنتظرك مع زيزو في مرة قادمة، أنت لم تستكمل جولتك بالقصر بعد، هناك ممر طويل يصل الحديقة الصغيرة بحديقة كبيرة في آخر القصر، لكني لاحظت حبك للمديح فلن أفسد أمسيتك ولنعتبر اليوم مجرد تعارف.

نظرت حولي وقلت:

- الموسيقى تضفي مناخًا أفتقده منذ بدء الوباء.

- لعل الله يرفع عنا البلاء قريبًا وتستطيع تنظيم جولاتك، الآن هيا لنختم المديح معهم.

اتجهنا إلى باب القصر والموسيقى تقترب إلى مسامعنا، وعند الباب رأيت صورة معلقة لم ألمحها عند دخولي فوقفت أمامها، كانت وثيقة مهترئة مُمزقة لشجرة عائلة، حاولت قراءتها

لكنها بدت كأنها طلاسم، فقال:

- تحتاج للترميم مع مقتنيات أخرى لكنني لا أجد الوقت لذلك، قالت جدتي إن العائلة احتفظت بكل شيء للتوريث ولمساعدة الأجيال القادمة على معرفة أصلهم.

قلت ساخرًا:

- عائلتي أيضاً تحتفظ ببيتنا القديم.. يقولون أنه تاريخ.

ربت على كتفي وخطونا خارج القصر وأصبحت الموسيقى حية مرة أخرى في مسامعنا، ورأيت المداح وقد بات مُنتشيًا مُحلقًا يردد في شجى:

- عليل جابولي طبيب ودواه معييني.. ميعرفش جرحي يا جماعة واللي كاويني.. لما أموت والتراب وحده يغطيني.. وأفوت قصوري وأهلي ويا فداديني..

***

٧٥٥ هجريًا - ١٣٥٤ ميلاديًا

عندما تتعرض للخيانة تتغير إلى الأبد، شيء في عقلك يواجه ما تبقى من طيبة في تجاويف قلبك، لكني أقاوم، وها أنا أنظر للدنيا مثل مولود جديد، كل شيء يتغير من حولي، الناس يتبدلون ويتغيرون، لذلك قررت أن أتغير مثلهم لأكون جزءًا لا يتجزأ من التاريخ.

كُنت أشتم عبير المِسك الذي ملأ القصر، وأرتشف من عصير العنب وأشعر بارتياح عجيب، بينما أنظر إلى "طولوبية" وهي تأكل من الدجاج المسقي بالسمن وماء الورد وتبتسم في خجل، ثم تقطع من لحم الدجاج وتضعه في فمي، هذه الحياة تدور بين طيب وسيئ كما قالت مِسكة، كم كُنت أتمنى أن تشرف بنفسها على حفل زفافي السلطاني، رحمك الله يا ست حدق.

نظرت لي طولوبية وقد ازدادت جمالًا وقالت:

- لا أصدق أنني أصبحت بين يوم وليلة "خوند طولوبية" زوجة السلطان الناصر حسن..

- ولِمَ لا وقد وجدت فيك ما تبغيه نفسي؟!

- وما هو يا مولاي؟

- فكري..

- لا يوجد مُتسع من الوقت للتفكير في الحياة، يكفي أن نعيشها.

أعجبتني فصاحتها وقُلت في صدق:

- كُنت أبحث عنك دائمًا بداخلي، إلى أن التقينا، هل هذا هو الحب؟

قالت بدلال وحياء:

- الحب هو القوة الكامنة في أعماقنا دون أن نعيها، نحن لم نخلقها، لقد خُلقنا بها، هي فقط في انتظار من يوقظها، من يقدر على تحريكها، وأنت فعلت.

حينها دق الباب واقتحمت زبيدة الغرفة بخطوات سريعة غاضبة دون إذن بالدخول، فاندهشت من جرأتها! فهي تعلم عواقب فعلةٍ كتلك، لكن وجهها كان أحمر وشعرت بها كبركان غاضب سينفجر في أي وقت، سهام من نار تطلقها عيناها عليّ وكأنها تلومني! فتعجبت لكن بداخلي أعجبني ما رأيته، وقلت في حزم وغضب اصطنعته ببراعة:

- هل جُننتِ؟! ما الذي يحملك على الدخول على سلطان البلاد بهذه الطريقة؟!

انحنت وقالت بنبرة مكسورة:

- العفو والسماح يا مولاي.. إن الأتابكي شيخوا العمري ينتظرك ويريدك في أمر هام.

التفتت إليها طولوبية وبدا عليها الغضب الشديد ثم نهضت من مكانها وبدا أنها ستحتد عليها فقاطعتها قائلًا بغضب:

- اذهبي وأخبريه أن السلطان سيأتي بعد قليل.

انحنت وهمت أن تغادر فجاءت كلماتي تحذرها:

- زبيدة.. هذا خطؤك الأول والأخير قبل أن ينزل بكِ عقابي.

نظرت لي في انكسار وانحنت مرة ثانية وغادرت، بينما كانت طولوبية تنظر إليها وكأنها تحل لغزًا أمامها، وظلت عيناها مُعلقتين نحوها بعد مغادرتها، فأمسكت يدها وقبلتها قائلًا:

- ماذا كُنا نقول؟

نظرت إليّ وقد تغيرت نبرتها إلى غيرة صريحة وهي تقول:

- مولاي.. أنا لا أرتاح لهذه الجارية.

ابتسمت لها وقلت في هدوء:

- تغارين؟!

قالت في إنكار وريبة:

- أنا.. أبدًا، إن قلبي لا يرتاح إليها، ثم إن جرأتها شيء غريب لا تفعله الجواري.

أردفتُ دون أن أنظر إلى عينيها وقد قُمت من مكاني أستعد للقاء شيخوا:

- أكرمها لأجل مِسكة، السيدة التي لم تتزوج ولم تنجب، وأفنت عمرها لأجل عائلة قلاوون، هل أرد الجميل لها بطرد جاريتها المُقربة؟

قبل أن أخرج قبلت رأسها في ود فتقبلت كلماتي على مضض، واكتشفت بداخلي ميلاد فرحة لم أتوقعها بغيرة زبيدة ونظراتها التي لا تزيدني إلا فضولًا نحوها!

***

العاشر من سبتمبر ٢٠٢٠ ميلاديًا - ١٤٤٢ هجريًا

كادت الشمس أن تغيب ومسحت بعض نسمات الهواء على وجهي بلطف، بينما أقف عند العامود المزخرف الأثري أنظر إلى "مقهى كُنكُن" أمامي، كان بعض رواد المقهى يلعبون الدومينو أو الشطرنج، والبعض الآخر يدخنون الشيشة التي لم تفلح في إخفاء آلامهم، بينما يلبي سعيد طلبات الجميع مع ابتسامة لا تغيب، لا شيء يتغير، الناس تهرب من مشاكلها أو تجد لها الحلول هنا على المقهى.

يقول هاني: إن رنا ستنصحنى اليوم بشأن الحرز، أردت أن يمر الوقت سريعًا لحين لقائهما بعد ساعة من الآن، ولهذا أطلقت لقدميّ العنان، وتجولت وحيدًا في شوارع القاهرة التي لا يزال قلبي يخفق لرؤية آثارها، والتي لا تخلو من المارة والباعة وصخب الأطفال على مدار النهار والليل، لكن اليوم يختلف عن كل الأيام، فلا مارة ولا باعة ولا أطفال تلعب.. لا شيء!

أسرعت الخطى لأرى ماذا يحدث لكنني توقفت عند شارع "المعز لدين الله الفاطمي"، تحديدًا عند مجمع قلاوون، هذا الشارع العتيق الذي شهد على تغير جارف لحق به ورغم ذلك لم يخلُ من الزحام والونس على مر الأزمنة، إلا أنني أراه الآن في هيئة أخرى لم أشهدها، نفس الشارع لكنه تبدل!

سرت بخطوات بطيئة أتأمل الشوارع الخالية والمحال.. ماذا حدث؟ لقد بُدلت المحال بحوانيت جميلة، أبوابها خشبية بنية اللون، جميعها مُغلقة! هل صدر قرار بالإغلاق مرة أخرى بعد أن أطالوا ساعات العمل؟ حتى إن بعض الحوانيت كُتب فوقها بخط كبير "الخلاق هو الباقي"! لم أرَ هذه اللافتات من قبل! أمام كل حانوت زير مياه وآخر مملوء برمل! مهلًا.. هذه كانت شروط السلامة ضد الحريق للحوانيت في أزمنة مضت! لكن كيف جددوا الشارع بهذه الحجارة الأثرية بين يوم وليلة! إن عقلي يحترق، أسرعت في السير قليلًا فشعرت بشيء صلب يضرب في صدري، تحسسته وهالتني المفاجأة.. إنني أرتدي الحرزين معًا! هذا مُستحيل لأنني تركتهم في شقة جدتي داخل الطست النحاسي لزيزو! أنا على يقين من هذا، إذن كيف أرتديهما؟! باتت الشمس في مغيبها، وعجزت عن فهم ما يدور حولي، الوقت لم يتأخر بعد.. إذن أين الناس؟!

أمسكت بالحرزين في صدري وقد تحول عقلي لتروس تدور حول نفسها، تلتقي ببعض ثم تفترق في دوران مُستمر، أغمضت عينيّ وأنا أحاول أن أتذكر آخر ما مر بي في هذا اليوم، لكني فشلت، ففتحت عينيّ لأرى صفحة بيضاء تمامًا حتى ساورني الشك بأنني قد أصبت بالعمى فجأة، كنت قد قرأت عن حالات مُماثلة، فأغلقت عينيّ من جديد أملًا في انقشاع

هذا البياض وعودة الرؤية، ثم فتحت عينيّ ونظرت إلى السماء فوجدت الشمس على أشدها حتى أعماني وميض أشعتها للحظات! وكأننا قُبيل الظهيرة! أغمضت عينيّ مرة ثانية، وقبل أن أفتحها هذه المرة سمعت أصوات المارة والباعة والأطفال! وسمعت أصوات أبواب تُفتح! إضافة إلى دقات منتظمة على حديد أو ما شابه، وسمعت صوت طفل يقول:

- ها هي "القاهرية"(7) يا أبي..

ثم صوت رجل يقول في حزم:

- عد إلى البيت وأكمل حفظ جزء "عمّ" كما علمتك البارحة، وقل لأمك لا تغادر البيت حتى أعود، لقد وقعت مئذنة السلطان عند سوق الخيل فوق رءوس طلبة العلم والأيتام والمارة..

فتحت عيني بعد أن سمعت هذا الحوار العجيب، والأعجب أن نظري عاد حادًا ورأيت الحوانيت مفتوحة! لكن هيئة الناس وملابسهم أصابت عقلي بالشلل، هل يصورون فيلمًا؟! المحال تحولت إلى حوانيت عتيقة، ما بين نحاسين وبائعي أقمشة وحرف متنوعة، الغريب أن الشارع خلا من البيوت، فقط مجمع قلاوون أو "الأب والابن" كما نسميهم، وهذه الحوانيت البديعة.

ثم رأيت طفلًا يجري حافي القدمين أمامي مرتديًا جلبابًا أحمر به خطوط سوداء، ورجلًا ذا لحية كبيرة داخل حانوت على رأسه عمامة بيضاء وجلباب أخضر عليه عباءة حمراء مفتوحة، يحمل طبقًا من الفخار، سمعت دقات منتظمة فالتفت خلفي فرأيت رجلًا ينقش قطعة نحاسية، ثم بعض المارة يهرولون وبينهم سيدة تصيح:

- اللهم سلم.. ابني هناك طالب بمدرسة الشافعية.

تلفت حولي في حالة أقرب إلى الجنون، كيف تحول المغرب إلى مشرق؟ إن الشمس مُشرقة حامية، كيف وقد أغمضت عيني في المغيب؟ وكيف تحول الشارع هكذا؟ من هؤلاء الناس وما هذا الزي العجيب؟! ومن هذا السلطان؟ سلطان! نظرت إلى الأرض فلم تكن كما اعتدتها، أين ذهب البلاط؟! وأين ذهبت محلات الذهب وغيرها؟!

وفجأة عج الشارع بالناس وتدفقت الأصوات إلى رأسي كما يتدفق دمي في عروقي، أشعر أنني ما زلت حيًا لكن لا شيء يثبت ذلك سوى شعوري، كأنني مِت وأصبحت في عالم آخر، أو أنني أنتظر أن أصحو من حلم سيطر التاريخ عليه.

كانت الناس ترتدي الجلاليب والعباءات والعمائم المختلفة، الأصوات من خلفي تتعالى،

ورأيت رجلًا يصيح بصوت أجش لم أتبين كلماته، كاد عقلي أن يطير لما رأيت بعض الفتيات خلفه وقد تعرى بعضهن! وبجانبهن فتيان ألوان بشرتهن مختلفة ما بين أبيض وأصفر وأسود، لكن جميعهم مفتول العضلات، إلا من قلة تقف وراءهم، لكنني لمحت بينهم فتى ضئيل الحجم هزيل البنية، ذا نظرات حادة، ينظر إليّ في غضب!

الرجل ينادي المارة وهو يشير إليّ من ورائه ويقول بفخر وثقة:

- يا سيد.. ليس كل من استطال موزة ولا كل من استدار جوزة..

يا إلهي.. إنه تاجر رقيق من العصور الوسطى ينادي على بضاعته! ألا وهي الناس! ما الذي سيحدث في حلم كهذا؟! ربما أقتل على يد الغربان، أو على يد مملوك سفاح، ماذا يحدث لي؟! لابد أن أخرج من هذا الحلم ومن هذا الزمن، لابد أن أستفيق، يبدو أن المماليك قد سيطرت على عقلي وحياتي، لقد جُننت، حينها شعرت ببرودة تسري في جسدي كله ورعشة كأنني محموم، حسنًا.. ليس حلمًا لكن الحمى تفسير منطقي لما أراه، الآن لابد أن أعود لبيتي وأعتذر لهاني ورنا لاحقًا، هرولت إلى آخر الشارع، المنطقة بأسرها تبدلت، ليس من مواصلات ولا حداثة، أنا في عالم آخر، تحسست جيوبي بحثًا عن هاتفي، الحمد لله أنني وجدته.. ما هذا لا يوجد شبكة على الإطلاق! كدت أبكي، فتوقف عندي رجل يرتدي جلبابًا وعمامة صغيرة ويمسك بلجام حمار زُينت ركوبته بألوان زاهية، نظر إليّ الرجل وقال:

- إلى أين؟

فهمت.. إنه مكارٍ يعرض توصيلي، أردفت:

- إلى شارع ابن طولون..

لم يجبني ولاحظت أنه لا ينظر إليّ بل ينظر في اتجاهي، فنظرت خلفي لأجد سيدة ترتدي عباءة سوداء طويلة، تحدد خصرها جيدًا وقد غطت رأسها بقماش حرير ناصع البياض، اقتربت السيدة من المكاري وأعطته نقودًا فضية كبيرة لم أرَ مثلها من قبل ثم ركبت الحمار، وقفت أمام المكاري وقلت:

- هل عرضت توصيلي؟

لم ينظر إليّ وقد أمسك باللجام يحث الحمار على السير، أشحت له بيدي يمينًا ويسارًا أمامه لكنه لم يرَني! تركته ورجعت مهرولًا إلى بائع النحاس، فوجدته يُمسك بطست من النحاس يتأمله ويخاطب الصبي الواقف أمامه:

- لقد أبدعت صَنعًا.. لا تنسَ الرنك عليه وعلى المنضدة وباقي القطع النحاسية، فهذه هدية

فخمة.

رأيت بجانب الصبي مبخرة وإبريقًا نحاسيين بديعي الصنعة، توقفت أمام النحاس وسألته:

- كيف يمكنني الذهاب إلى شارع ابن طولون؟

وكأنني هواء، لم يرني أحدٌ مطلقًا، هممت أن أصرخ لكنني انتبهت للطست النحاسي في يده، فوقفت بجانبه أتأمله وهو لا يشعر بي، أخذت أفرك عينيّ مرات متتالية لعلي أرى شيئًا مختلفًا، إنه الطست والمنضدة النحاسيان إرث زيزو! نعم.. الرجل تحدث عن "رنك".. لابد أنهما يحملان رمزًا لصاحبهما، لكن الصانع لم يكتبه بعد، لابد أن أعود لبيتي وأخبر زيزو، إن قواي العقلية لا تتحمل كل هذا، وبدأت أعدو في طريقي إلى بيتي باكيًا، فلا أحد يشعر أو يرى، هل فقدت عقلي حقًّا؟!

بعد فترة من الزمن لم أحسبها في عمري وجدت نفسي في شارع الصليبة، ها أنا أقترب من "مسجد أحمد بن طولون" ومن بيتي، يا رب أريد أن أصل لبيتي الذي أعلم نعمته الآن وأعلم كم كنت غبيًا حينما تذمرت منها، عندما دخلت الشارع بت وسط جنود ترتدي زيًا غريبًا وتحمل السيوف في ردائها وتركب الخيل، يوجد الكثير من المارة، وبعض الناس ذوو عمائم كبيرة يركبون البغال في زهو، بينما تمتطي بعض النساء ظهور الحمير، ولا يوجد مبانٍ بالشارع إلا بعض البيوت المتناثرة!

ها هو المسجد يقف شامخًا من بعيد، يأتيني منه صوت أذان الظهر على ما يبدو، وتتضح رؤيته كما لم أره من قبل! أين ذهبت المحال والبيوت والزحام؟ هنا كانت "مقهى كُنكُن".. لقد كنت أتأمل روادها منذ ساعات قليلة؟ هناك بيت آخر مكان بيتي بنفس العامود الأثري المزخرف! نفس المساحة ونفس الحيز! لكنه أجمل وأشد قوة وأناقة وفخامة، تطاير ما تبقى من عقلي لما رأيت زيزو صديقي يدخل الشارع في شموخ على ظهر حصان أسود، يرتدي ما يرتديه الجنود! وخلفه جنديان عن اليمين وعن اليسار، كأنهما حراسه أو أتباعه! صرخت أستغيث وأنا أنظر إليه:

- زيزو.. ما الذي يحدث؟ لقد رأيت إرث جدك عند بائع النحاس، لابد أن نعرف لمن هما، لا.. لا.. إنه حلم سخيف!!

لم يرني ولم يسمعني، وقف أمام بيتي ومن خلفه الجنديان، ثم نزل عن الحصان وحده ودخل البيت، ووقف الجنديان في انتظاره، هرولت مقطوع الأنفاس وراءه ودخلت البيت، هذا ليس بيتي، لكنني دخلته، لكنني لسبب لم أفهمه شعرت بأنني في بيتي وأنني قد وصلت،

وغمرتني راحة عجيبة فجلست على الأرض، حينها وجدت مبخرة نحاسية يتدفق منها البخور! ثم لمحت شيئًا ما يتوارى خلفها لكن وميضه يفضحه، قُمت من مكاني مُتمهلًا مُستندًا على الحائط من شدة الإعياء، والوميض يشتد ولا يفصح عن ماهيته، لعب الخوف بعقلي وابتعدت بتردد، لكن فضولي كان له الغلبة ومددت يدي أتفحصه، فإذا بي أرى مِشكاة زجاجية! المِشكاة! بدأت أدقق النظر في نقوشها التي لم تكن واضحة، بها كتابة داكنة الزُرقة بالخط العربي النسخ، رأيت كلمة "نور" بين الكلمات بوضوح، وحينما شرعت في قراءة باقي الكلمات ظهر زيزو أمامي واضعًا يده على سيفه استعدادًا للهجوم وتدفق النور من الكلمة وغمر كل الاتجاهات، وعادت الصفحة البيضاء أمامي من جديد ولم أرَ شيئًا على الإطلاق.. لا شروقًا ولا مغيبًا!

***

٧٥٥ هجريًا - ١٣٥٤ ميلاديًا

قامت بدلال لا تبالي وتركتني غارقًا في بحر من العبث لم أفكر فيه من قبل، لكن حدث ومال قلبي إليها بلا سبب، ظلت تنظر من المشرفية وأنا أراقبها ثم التفتت إليّ فجأة وقالت في حب وتوجس:

- أشعر أنك ستقلب حياتي رأسًا على عقب..

ثم جاءت من جديد إليّ كطفلة تائهة وجدت أباها فقلت في عطف:

- لا ضير أن نستمتع بالقليل من الجنون..

قالت دون أن تنظر إليّ:

- لكن خوند طولوبية تكرهني..

أمسكت رأسها لأرى وجهها ونظرت في عينيها وقد ظهرت غيرة النساء قوية فيها، قلت في حسم ممزوج بحب:

- أنا سلطان البلاد.. هل نسيت؟

نظرت إلى الأسفل وقالت باسمة:

- ما عاذ الله يا مولاي.. إنني فقط أخاف أن..

- مِمَّ تخافين في حضرة السلطان؟

نظرت إليّ وخَفَتَ صوتُها:

- أخاف أن أفقدك.. تبتعد عني..

شعرت بالصدق يملأ صوتها، اقتربت منها وقلت وأنا أمسك بخصلات شعرها الذهبي:

- أنت جاريتي ومحظيتي المفضلة، أرتاح في صحبتك، تعلمين عني ما لا تعلمه باقي الجواري ولا حتى زوجتي، أراكِ بانتظام وأحب كل شيء فيك ومعك، ماذا تريدين أكثر من ذلك؟

- لا تفتعل.. لا تتصنع.. لا تكذب.. ولا تتوارى، إذا جاءك الحب فلتدع تلقائيته تفعل كل شيء.

ضحكت قائلًا:

- وأنت الوحيدة التي تتجرأ علي أيضًا.. لكني أحب جرأتك..

أمسكت يدي وقبلتها بحرارة وقالت:

- أحببتك كما لم أحب أحدًا من قبل..

- ولا حتى أهلك؟

تغيرت ملامحها وقالت بغضب خفي:

- أنا لا أتذكر أحدًا منهم سوى أبي، حتى إنني لا أتذكر ملامحه جيدًا، جئت من التركستان إلى القاهرة صغيرة، وكان حظي سعيدًا أن ربتني ست مِسكة رحمها الله.

ضممتها إلى صدري وأنا أربت على كتفها بعطف ثم أبعدتها برفق قائلًا:

- الآن دعيني أستعد ليوم طويل أمامي..

- هل أراك قريبًا؟

ابتسمت لها مُتعجبًا..

- لم تغادري بعد وتسألين عن موعد قريب! احذري الطمع..

لمعت عيناها ورأيتها كزهرة فاح عبيرها لي ثم انحنت وغادرت، قمت لأستعد للخروج، وبتُّ بارعًا في التخفي عن العامة دون الاستعانة بأحد، أردت أن أرى ما وصلت إليه أبنية الأمير "شيخوا العمري" في شارع الصليبة، لكن نفسي كانت تهفو لزيارة حبيبتي والصلاة عندها.

تسللت من القصر متجهًا بالقرب من قنطرة "آق سنقر" التي تقع على الخليج الكبير، إلى مسجد وضريح "الست مِسكة"، لقد أوحشتني طيبتها وحكمتها وحنانها، وأفتقد نصائحها وإخلاصها رغم كل شيء، لن أدخل المسجد من باب الجهة الجنوبية، الآن وصلت إلى المدخل الرئيسي للمسجد عند الجهة الغربية، كلما جئت لا يفارقني ذلك الشريط الكتابي الذي يطوق المسجد الصغير من الخارج بسورة "يس"، وقفت أمام الباب وقلبي يرتجف وأنا أقرأ: "بسم الله الرحمن الرحيم أمرت بإنشاء هذا الجامع المبارك إلى الفقيرة إلى الله تعالى الحاجة إلى بيت الله الزائرة لقبر رسول الله عليه الصلاة والسلام الست الرفيعة مِسكة سنة ست وأربعين وسبعمائة"، خلعت نعليَّ ودخلت في وجل، شعرت أنني سأقابلها حقيقة، بل شعرت بروحها فرحة عندما خطوت أعتاب المسجد، هذا المسجد له طابع خاص، وكانت مِسكة تُرجع راحة الأماكن في القلوب إلى أصحابها، فالحجر يتأثر تأثيرًا مباشرًا بأرواح

أصحابه، وأنا أصدقها في ذلك، صليت ركعتين تحية المسجد ثم جلست أتأمل الجمال من حولي وأتذكر جمالها، لم تبخل هذه السيدة الرائعة على بيت الله، فهو مسجد مستطيل يتوسطه صحن مكشوف، وبعيدًا عن الزخرفة والأعمدة الرخام وجمال الإيوانات إلا أن منبر المسجد المصنوع من خشب الساج الهندي والأبنوس ومطعم بالصدف والعاج يجعلني أشعر بالخشوع والفخامة، وفي هذا تضاد صريح، جلست أقرأ على باب المنبر "إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين"، أردفت بصوت عالٍ لم ينتبه إليه أحد "صدق الله العظيم"، وشعرت أنني صغير جدًا أمام هذه الكلمات الربانية، الهادية المحذرة، رفعت عينيّ أنظر إلى قبة المسجد وأتمنى أن أكون من المهتدين.

انطلق صوت المؤذن يؤذن لصلاة المغرب فوقفت في آخر الصفوف، وكانت صلاتي هذه كما لم أصلِّ من قبل، تساقطت دموعي بين الركوع والسجود كحبات مطر مُنهمر، وبعد الصلاة شعرت براحة وشعرت أنني لابد أن أواظب عليها ولا أتركها أبدًا، ثم قُمت من مكاني وقد ملأتني صلابة وقوة بينما لا زال البكاء يترك آثاره على وجهي، أحكمت غطاء وجهي ثم اتجهت إلى ضريح حبيبتي عند الركن الشمالي الغربي، وهو غرفة مربعة تعلوها قبة، وفوق المقبرة مقصورة خشبية، وقفت أمامها في وَلَهٍ واشتياق أقرأ الفاتحة وأدعو لها، حينها لمحته يقف بجانبي يقرأ الفاتحة، قلت فرحًا:

- أين أنت يا شهاب الدين؟! هل هذه وصية الست مِسكة لك؟!

مسح كفيه بوجهه وهو يختتم دعاءه والتفت إليّ قائلًا:

- تعرف مكاني عندما تحتاجني.

- أحتاجك وأحب أن أراك..

ابتسم الدرويش ابتسامة عجيبة وقال:

- سبحانه يُغير ولا يتغير.. كُنت تحذر مِسكة من صحبتي في سابق عهدك..

- هل باحت لك؟

- أبدًا..

قلت:

- لا أتعجب من معرفتك فقد علمت بأمر الوباء قبل مجيئه وكثير من الأمور.

عقد حاجبيه وقال مُستنكرًا:

- حاشاه.. لا يعلم الغيب إلا الله.

نظرت حولي أتأكد من خلو المكان وأردفت:

- كانت الست مِسكة رحمها الله تحذرني من الأمراء ومن مكائدهم وكنت أستهين بهم، أما الآن فلا، لكني أشعر كالتائه كثيرًا.. بماذا تنصحني؟

أمسك مسبحته وبدأ يدور على حباتها وقال بهدوء:

- اعرف قيمتك الداخلية، ما تحمله بداخلك هو ما يميزك، لذلك لا بأس بأن تقاسي من أجل ما تؤمن به.

- أنا أؤمن بأشياء لا يؤمن بها المماليك، أؤمن بالحب، وهو إيمان صعب على عقولهم لأن الحب يعني الضعف في عرفهم، لكني لن أقاسي، بل سأفرضه رغمًا عنهم، لم أعد السلطان الطفل..

نظر في عيني قائلًا:

- الحب لا يُفرض، الأمر يتعلق بالمعنى العميق خلف ما تصنه في حياتك، تستطيع فعل ما تريد دون إثارة حنقهم عليك دفعة واحدة.

- لكني أريد أن أرضي الناس..

ابتسم وقال:

- في كل الأزمنة يصعب إرضاء الناس.. أنت تريد إرضاء نفسك.

- إذا كان إرضاء نفسي فيه منفعة للناس فليكن..

رفع حاجبيه وسبابته بلطف قائلًا:

- احذر الغرور فإنه فخ.

عقدت حاجبيّ غاضبًا وقبل أن أجيبه انصرف بعينه إلى الضريح وتنهد تنهيدة طويلة وقال:

- وكأنها قيلولة أو غفوة، نصحو بعدها لنسترد الأبدية، هذه هي الحياة.

ثم التفت إلي من جديد محذرًا:

- لذلك لا تجعلها تخدعك..

نظرت له مُترقبًا وقلت:

- من؟

- الدنيا.. لا تدع اللعبة تنتصر.

- أنت تقول طلاسم..

ابتسم الدرويش نصف ابتسامة وربت على كتفي وكأنه يُشفق عليّ وقال:

- أنا أقول الحقيقة لكنك لا تريد أن تفهم.

نظرت إلى عينيه وانتابني شعور بالقلق والتفتُّ إلى الضريح أشكو لها، هل هذا شخص يساعدني يا مِسكة؟ إنه يزيد الأمور تعقيدًا.. التفتُّ إليه من جديد فلم أجده بجانبي، وجاءني صوته عاليًا خارج المسجد يصيح وسط الناس:

- اجعل قلبك تابعًا لله.. احذر خداع نفسك بنفسك فإنه الهلاك.

***

الثاني عشر من سبتمبر ٢٠٢٠ ميلاديًا - ١٤٤٢ هجريًا

سيطر اللون الأبيض من حولي ولم أعد أرى غيره، وسمعت صوتًا نسائيًا قلقًا خافتًا يهمس وسط عدة أصوات آلفها جيدًا..

- جميع الأشعة والتحاليل والفحوصات تنفي إصابته بكوفيد-١٩ أو أي فيروس آخر، لا أعرف تمامًا ماذا أقول، لكن الطبيب الاستشاري لم يشخص حالته بعد، يقول إنها حالة نادرة، لا يوجد تفسير علمي لارتفاع درجة حرارته المفاجئة التي تجاوزت الأربعين مع هذه الرجفة الشديدة، والهلاوس التي انتابته ليوم كامل، ثم عودته طبيعيًا وكأن شيئًا لم يكن!

إنه صوت مايسة شقيقة لقاء، ثم سمعت صوت بكاء أمي الذي أميزه جيدًا من بين ألف صوت، أردت أن أفتح جفوني الثقيلة لأرى ماذا يحدث ولماذا تبكي أمي لكن دون جدوى، أردت أن أتحدث لكن لساني أخفق بدوره، حتى شفتيّ لم أستطع تحريكهما بما أريد، وسمعت صوت رنا تقول:

- لقد كان في حالة يُرثى لها يا لقاء، كنا على موعد في شارع المعز، ورأيناه من بعيد يقترب لكن الرجفة انتابته كأنه مصاب بصرع ثم بات في عالم آخر، أخذ يهذي بأشياء عجيبة وينادي على زيزو ويردد المشكاة.. المشكاة. لقد أثّر المشهد في كل المارة.

شارع المعز.. نعم أتذكر كل ما رأيته، لم أكن أهذي! إذن أنا حي وكنت أحلم؟ أم أنني صُرعت وتوفيت؟ عندها سمعت صوت حماي يقول بنبرة طغى عليها اللوم:

- التفسير المنطقي هو الإرهاق، إنه يعمل ليلًا ونهارًا، أتحسبين أنني أوافقك على ما يحدث؟ إننا نشترك في ظلمه، لقد أنهك زوجك نفسه من أجل إرضائك وتلبية مطالبك في ظل هذه الظروف الصعبة، هل أنتِ راضية الآن؟! تذكري أن هذا الرجل والد بناتك ولابد أن تتحملي معه الحياة..

قاطعه صوت حماتي حادًا:

- ابنتك حامل وليست بصحة جيدة ثم إن هذا ليس وقتًا مناسبًا يا عثمان..

قاطعها بحدة:

- لا أريدك أن تتدخلي من الآن في علاقتهما، حذرتك كثيرًا وها هي ابنتك توشك أن تصبح أرملة..

علا صوت أمي بالبكاء وسمعت صوت أبي يواسيها، ثم سمعت همهمات أصوات كثيرة

وخطوات تبتعد، وسمعت صوت منى كيدا مرتبكًا:

- الله ينجيه لكم.. لابد أن أذهب الآن وسأتصل بكِ يا لقاء لاطمئن..

ثم صوت لقاء باكيًا..

- كثر خيرك.. ادعُ له.

أريد أن أفتح عينيّ، هل بث في عداد الأموات الآن أم ماذا؟ قرأت الفاتحة في سري ودعوت الله أن ينجيني إذا ما كُنت حيًا، وأن يعطيني فرصة أخرى للحياة فما زال أمامي الكثير لأفعله، عاهدت الله أن أصل ما بيني وبينه ولا أقطعه أبدًا، لكني فقط أريد أن أحيا، أريد تربية بناتي بنفسي وأريد الكثير من الحياة، أنا لست جاهزًا للقاء الله بعد، عندها سمعت لقاء تبكي وصوت رنا تواسيها.

بعد مُناجاة داخلية طويلة مع الله هدأت وخطر لي أن أقرأ الفاتحة، وشعرت بجفوني تتفتح ببطء شديد، كُلما انفتحت مساحة صغيرة لم أرَ إلا اللون الأبيض، لكن لا يهم، المهم أن أفتح جفوني لأرى أين أنا وهل ما زلت حيًا أم لا! ساعدني يا رحيم.

وبينما أُحاول جاهدًا لنجاح محاولاتي جاءني صوت زيزو يصيح:

- إنه يفتح عينيه.. يا دكتور عثمان..

وسمعت صوت خطوات كثيرة تقترب عندما نجحت محاولتي الأخيرة وانفتحت عيناي نصف فتحة، اللون الأبيض لا زال مُسيطرًا إلا من بعض الرتوش، أخذت أدقق النظر فرأيت خيالات تقف في نصف دائرة من حولي وخلفهم ضباب، وشعرت بيد تمسك بيدي وأحد يقبل جبهتي، وتسارعت بداخلي آيات الله "اهدنا الصراط المستقيم" والتي لم يطعني لساني في ترديدها، إلا أن قلبي رددها مرات كثيرة، بدأت الرؤية تتضح رويدًا رويدًا، وبدأ ضباب يتلاشى وتجسمت من حولي الخيالات، وعندها رأيت أبي بجانبي وأمي تمسك بيدي وتجلس بجواري، وشقيقاتي جميعهن، ورأيت لقاء وقد انتفخت بطنها أكثر وبجانبها والدها ووالدتها وشقيقتها مايسة، ثم زيزو وهاني ورنا، جميعهم يحدقون بي وكأنني عائد من السماء، لكني لمحت اختلافًا في نظرات لقاء، نظرات لم تكن جافة، أظن أنني رأيتها تجفف دموعها أيضًا، قال والد لقاء:

- الحمد لله على سلامتك يا حكيم..

أردت رد السلام لكنني شعرت بوهن عجيب، قال هاني:

- لقد طارت قلوبنا يا رجل.. نشكر ربنا أنك بخير.

ثم قال أبي لوالد لقاء:

- هل سيخرج من المشفى الآن؟

- نعم.. حالته جيدة ومستقرة، لا داعي للبقاء هنا، أخاف أن يأخذ عدوى الكوفيد من أحد المرضى، لكن لابد من الراحة والغذاء الصحي، وسأتابعه يومًا بيوم..

مسحت أمي دموعها وقالت:

- هيا يا حبيبي.. سأعد لك ما لذ وطاب..

بعدها قالت لقاء:

- اسمحي لي.. سنعود لبيتنا، أنا سأعتني به وسأعد له كل شئ..

نظرت لها شقيقاتي بامتعاض وابتسمت أمي وربتت على كتفها قائلة:

- الله يصلح أحوالكم يا بنتي.. ويجعل أيامكم "خير ونور".

"نور".. تذكرت الحلم أو أيًا ما يكون هو، وبدأت أحاول النهوض فأمسكت لقاء بيدي تُعينني، نظرت لها فرحًا واهنًا وأطاعتني شفتاي فقلت في صوت خافت:

- المشكاة..

حدق الجميع فيّ واقتربت لقاء مني وبدا أنها لم تسمعني وقالت:

- هل تريد شيئًا؟

حاولت أن أستجمع قواي وقلت في صوت يقاوم الضعف ونظرت لزيزو وقلت:

- أريد أن أرى المشكاة في بيت جدتي..

نظرت لقاء لوالدها وبدا القلق على الجميع، وقال والدها:

- يبدو أنني سأشرف عليه هنا في المشفى..

انتبهت أنهم يحسبونني محمومًا فابتسمت قائلًا بصوتي الضعيف:

- كنت أسرد حلمي يا عمي..

ابتسم حماي قائلًا:

- آه.. حسبتك تهذي من جديد، الآن تخرج سالمًا إن شاء الله ولا تعود مجددًا..

تنفس باقي الحضور الصعداء وظهر عليهم الارتياح، بينما حاصرتني نظرات زيزو وهاني في شك وكثير من الأسئلة.

***

٧٥٦ هجريًا - ١٣٥٥ ميلاديًا

أشعر وكأنني في وسط بحر ثائر متلاطم الأمواج، تحيط بي المخاطر من جميع جهاته، مع ذلك أتحكم في دفة سفينتي وأقودها لما أبتغيه بنجاح، أحاول الحذر من خطواتي المخادعة، وأنتبه أين أقف، وأطلب من الله السلامة من نفسي، كما نصحني الدرويش.

نظرت حولي إلى زوجاتي والجواري المِلاح، وهن سعيدات بسماع المغاني والآلات، لم تكن طولوبية بينهم، وشعرت أنني وحيد رغم الونس، أجلس مع نفسي كثيرًا لأوبخها، لم أشعر بهن ولا بالموسيقى التي أميل إلى سماعها، وتنجح في الترويح عني، فما زال الوقت مُبكرًا لهذا، زُبيدة الجميلة تنظر إليّ وتغني في غنج، ترتاح نفسها في حضوري وغياب طولوبية دون كُل من حولها، رغم يقينها في قرارة نفسها أنها المفضلة لديّ، وأعلم أن طولوبية لا تتقبلها دون كل زوجاتي والجواري أيضًا، رغم أنها لا تقولها صريحة إلى الآن، لكن أين طولوبية؟

أشحت بنظري عنهم جميعًا، مُنشغلًا بأشياء عدة، منذ أن صرت أبًا شعرت باختلاف في نفسي، يشغلني التفكير في أبنائي ومصيرهم كثيرًا، وصرت أفكر أكثر في أمور الدولة التي تجري في رأسي كخلية نحل لا تهدأ، كيف أقرأ الأمراء الكبار "صرغتمش" وشيخوا" وغيرهما؟ كيف أواجه المماليك وخياناتهم التي تجري في عروقهم مجرى الدم؟ الرعية التي أريد النهوض بها، وأبناء الناس الذي لا يمل عقلي من التفكير بهم، عقلي سينفجر، أفتقد مِسكة التي كانت مصدر ثقتي، طيّب الله ثراكِ وملأ قبركِ بنوره.

انتبهت أننا في يوم السبت وأن استعراض لعبة العصا والكرة(6) قد بدأ، لا أريد أن أحضر العرض كسلطان، لا أميل للعب اليوم، غادرت إلى غرفتي وأنا أعلم أن عيون زبيدة تتبعني أينما أذهب، ولبست ملابس الغربان لأتسلل من القلعة في غفلة عن الأعين، لا أريد أن يراني أحد، لا أعلم ماذا حل بي، أريد عزلة قصيرة!

كان ميدان الرميلة مُقسمًا ومُخططًا بخطوط بيضاء، وعلى جانبي الميدان عدد كبير من فرسان المماليك، بيد كل منهم عصا طويلة وفي وسط الميدان كرة، هذا فريق الأمير "شيخوا العمري" ضد فريق الأمير "صرغتمش الناصري"، وها هو "الجوكندار" الأمير المُخصص للإشراف على اللعبة يُعلن عن بدئها، وبدأ اللعب، وبدأت محاولات كلٍّ من الفريقين في اجتذاب الكرة نحوه ليقتنص الفوز، وقفت في آخر الصفوف مع العوام الذين يشجعون فريق صرغتمش وسط صياحهم وتشجيعهم له، وأشعلت التمباك وبدأت أدخن وعقلي يذهب مع الدخان إلى اللاشيء، أملًا في تصفية ذهني المُحترق، لم أصل لشيء بعد كل هذا التفكير

في أمور شتى، كانت العامة سعيدة كعادتهم لمشاهدة اللعبة، فبعدها ستنصب الخيام ويقيم المنهزم الولائم وتذبح الذبائح في الميدان، ثم توزع الأقمشة والملابس على العوام.

وبينما الفريقان يتصارعان، كان شيخوا يضحك لصرغتمش لأن فريقه مستحوذ على الكرة بشكل كبير، جحظت عيناي لما رأيت طولوبية تقف مع الدرويش "شهاب الدين" بعيدًا! ألقيت بالصولجان في الأرض وهممت أن أذهب لهما، لكن المفاجأة ألجمتني حينما رأيت الست مِسكة تقف بينهما، كانوا يتشاورون في أمر ما، وتبدو طولوبية في غاية السعادة وهي تحتضنها! كانت مِسكة بملابس بيضاء ناصعة، دمعت عيناي وأنا المشتاق لرؤيتها، لكن كيف أراها هكذا معهما؟! لابد أنني أهذي، سرت بخطوات بطيئة نحوهم، كل خطوة تقربني والحب والحنين لأيامها يدفعني لأن أذهب إليها، حتى ولو كُنت أهذي، لكن العامة اندفعوا وراء مكان كرة صرغتمش مشجعين فأحدثوا فوضى شديدة حالت بيني وبين رؤية مِسكة، وصرت أدفع الناس أمامي بقوة كي أمر، استغرق الأمر بضع دقائق، وعندما عاد العامة إلى أماكنهم لم أجدهم في مكانهم، بقيت أبحث عنهم حولي وفي كل اتجاه لكني لم أجدهم أبدًا.

عندها عادت فوضى العوام من جديد عندما أعلن "الجوكندار" انتهاء اللعبة لصالح صرغتمش! كيف فاز صرغتمش وكانت اللعبة لصالح شيخوا! يبدو أنني فاتني الكثير ولم أحسب للوقت حساباته، رؤية مِسكة أفقدتني التركيز، لعلي وقفت مشدوهًا أنظر إليها بعض الوقت دون أن أشعر، لكن هل غابت طولوبية هذا الصباح لملاقاة شهاب الدين؟! وكيف أرى مِسكة؟! أم أن عقلي يتخيل ما أريد رؤيته؟!

عدت أدراجي إلى القلعة أثناء ذبح الذبائح والضجيج وتوزيع شيخوا الكثير من الخير على العوام، كانت نبوءة مِسكة تستحوذ على تفكيري وعقلي وقلبي حتى إنني لم أشعر بالطريق.

عندما دخلت القصر وتوجهت إلى حيث طولوبية وجدتها نائمة! أيقظتها وقصصت عليها ما حدث فبدت متعجبة وخائفة أيضًا، لم تتحدث لكنني أصريت أن تقول الحقيقة فقالت في دهشة:

- لقد كُنت مع الست مِسكة والدرويش بالفعل! لكن في منامي.. إنه لأمر عجيب أن ترى أحلامي!

***

الخامس عشر من سبتمبر ٢٠٢٠ ميلاديًا - ١٤٤٢ هجريًا

أفكر في كل الأشياء الجميلة في حياتي، وفي كثير من نعم الله التي لم أشكره عليها بصدق من قبل، أفكر كيف أن كل المُسلمات في الحقيقة مُتغيرات، كنت قد بدأت أصلح صلتي بالله كما عاهدته في غيبوبتي كما شُخِصت، وباتت الصلاة لله عندي أجمل ما في الكون، وبدأت نفسي تتغير وقلبي أيضًا، فواظبت على اعتكاف يومي قصير، أتدرب فيه على جذب طاقات تجعل مني إنسانًا أفضل، صحيح أن أحوالي المادية لم تنصلح لكنني لا أشعر بأزمة مادية بعد أن وهبني أبي مبلغًا كافيًا من المال حتى أتعافى، وبالغت أمي في كرمها بإرسالها الطعام لتساعد لقاء خاصة مع متابعة حملها الذي اقترب من نهايته، مع ذلك أشعر بهدوء ينساب بين جنابتي ويزداد كل يوم.

عادت الحياة إلى بيتي بعد أن ظننته خربًا، وعادت رائحة الطعام تملأه وتشعرني بالدفء، أصوات نور وآية تلعبان، تضحكان، صوت أمهما وتعليماتها الكثيرة، الحلو والمر يختلطان ليشكلا همسات حياة تخترق قلبي بسهولة، وشعرت بنعمة الأسرة التي كُنت حانقًا على تكوينها في سن صغيرة، لم أتحدث بعد مع لقاء في أمور كثيرة، رغم علمي في قرارة نفسي أنها كانت تعني قرار الانفصال بجدية، لكنها عادت حنونة مُساندة كسابق عهدها، إن الحفاظ على استقرار الأسرة ليس بالأمر الهين كما قال أبي وأمي.

بقي أن أتأكد من أمر المشكاة في شقة جدتي، فإذا وجدتها تأكدت أنني لم أهذي قط، تركتهم وهبطت إلى شقة جدتي وأنا أشعر بشيء يدفعني دفعًا لمعرفة ماذا حدث ولماذا؟ أدرت المفتاح في الباب وأنا أتوقع أي شيء منطقي أو خرافي فواربت باب الشقة، وتمنيت ألا أصرع وأغيب عن الوعي وأستفيق في المشفى، دلفت إلى الشقة وأضأت الأنوار، ودخلت مُباشرة إلى غرفة جدتي، وجدت المنضدة والطست النحاسي وبداخله الحرزان!

بدون أن أشعر ارتديتهما وأنا أفكر أين المشكاة؟ بدأت أفتح الصناديق الممتلئة بالأوراق القديمة واحدة تلو الأخرى دون جدوى، وفجأة سمعت صوت الباب يُغلق بقوة! خرجت من الغرفة مُترقبًا فوجدته مُواربًا كما تركته! دخلت الغرفة مرة أخرى وإذا بي أرى السيدة الشاحبة من جديد تقف في ركن الغرفة! أصابتني رعشة خفيفة ورجعت خطوة للخلف، لكنها أشارت بيدها إلى أحد أركان الغرفة واختفت!

ترددت هل أتوجه إلى حيث أشارت أم أنصرف، لكني اقتربت نحو إشارتها وإذا بي أرى صندوقًا مغلقًا ذهبت مُتمهلًا لأفتحه وأنا أتلفت حولي قلقًا، عندها وجدت حقيبة يد جدتي الجلدية ملفوفة بقماش من القطيفة، فتحتها فرأيت صورًا لنا جميعًا وزجاجة عطر ومفتاحًا!

نظرت حولي وخمنت أنه مفتاح الدولاب، عندما فتحته آمنت أن أصدق حدسي دومًا، بداخله ملابس جدتي وجدي يزاحمان بعضهما، ثم رأيت ضيًا تحت ملابسهما، على الفور مددت يدي أتفحصه فوجدت صندوقًا مفتوحًا وإذا بي أرى مِشكاة زجاجية!

كُنت على يقين أنني لا أهذي، لكن هذا يثير الرعب في نفسي أكثر! هل انتقلت بالفعل لزمن آخر في غفلة؟! كيف حدث كل هذا؟! تذكرت كل ما مررت به ودققت النظر فيها بإعجاب، المِشكاة الزجاجية عليها نقوش لا أستطيع رؤيتها! بها كتابة داكنة الزُرقة بالخط العربي النسخ! رأيت كلمة "نور" بين الكلمات بوضوح! ثم على بُعد سنتيمترات أخرى كلمة "مصباح"، لابد أن أنظفها لكنني أخاف كسرها وهي ليست ملكي، وإذا أعطيتها لمتخصص يرممها سيشك في أمري، حدسي يؤكد أنها قطعة أثرية، أعدتها مكانها بحرص مرة ثانية كي أفكر بهدوء، يا ترى إلى أي عهد ترجع هذه القطع؟! وهل يبيعها زيزو لو كانت بحق قطعة أثرية فريدة؟! وماذا عن الطست والمنضدة النحاسيين؟! وهل لهما علاقة بالسيدة البدينة التي أراها؟! لابد أن أبلغ زيزو ليتخذ القرار بنفسه.

حمدت الله أنني أقنعت أخواتي ولقاء من قبل بعدم تنظيف شقة جدتي لأنني فعلت، أخواتي ارتحن لهذا أما لقاء فقابلته بالشك الواضح، فجأة وجدت سيدة ترتدي عباءة بيضاء تأتي في اتجاهي وتحدق بي في تعجب، شهقت في هلع، وكدت أن أتهاوى على الأرض، ثم سمعت صوتها تقول:

- حكيم.. ماذا بك؟ الغداء جاهز..

تنفست بعد أن انقطعت أنفاسي.. إنها لقاء.

***

٧٥٧ هجريًا - ١٣٥٦ ميلاديًا

- "آه يا قلبي ابتعد عن الهوى أسلم لك، إن الحياة لا تسير على هواك"

كانت ترقص وتتغنى أمامي في أسى ودلال بهذه الكلمات، أعلم أن زبيدة تريد أن أتزوجها فتصبح "خوند"، لكن شيئًا بداخلي يمنعني ويقف أمام رغبتها، رغم حبي الجارف لها، أشعر بها ولا أستطيع أن أواسيها.

كُنت متكئًا أرتشف من عصير العنب أمام جمالها الفتقد، أحب صحبتها ولا أريد فراقها ولا أتخيله، التفتت وقالت في غنج:

- لا أريد أن تبتعد عني كثيرًا يا مولاي.. البعد يولد الجفاء.

بتُّ في حيرة، هذه الجارية لا تشبع من الحب ولا تكتفي من وجودي، تنسى أنها تخاطب السلطان، وأنا أسامحها بداخلي دومًا، كأنها سحرا تعمقت في عينيها الزرقاوين فلم أفهمها هذه المرة، كأنهما بحر عميق متلاطم الأمواج، سألتها:

- هل تخافين علي أم على وجودي يا زبيدة؟

شردت قليلًا وعقدت حاجبيها وقالت:

- أخاف عليك من المماليك، طبع المماليك الطمع، والطمع يمحق الشرف، لذلك يفعلون ما يفعلونه ببعضهم البعض، لن تُنسى مذابحهم، لذلك أخاف عليك يا مولاي.. وأريدك معي في كل وقت.

ابتسمت قائلًا:

- وماذا تُحبين في وجودي؟

قالت بتلقائية:

- الاطمئنان.. هذا الشعور الذي يمنحني السكينة معك لا أريده أن ينتهي.

- لكن كل شيء ينتهي في هذه الدنيا.

ترقرق الموج في عينيها وقالت:

- أقتل نفسي إذا مللتني يا مولاي..

ضممتها إلى صدري وأنا أداعب خصلات شعرها الأشقر المموج، لها نفس رائحة المسك الذي يذكرني بمسكة! لماذا لا تذكرني طولوبية بمسكة؟! صرت أخاف أن أملها بالفعل، أخاف

من هذا الشغف الذي يتملكني كل مرة أرى فيها زبيدة، لو أننا ننظر إلى الأمر نفسه بنفس النظرة الأولى له.. لكان الاستمرار هو سيد النظريات الكونية، لو أننا نستمر في الكُره أو الحب دون نُضج يصاحبه التغيير.. لكانت كل الأشياء في حياتنا دائمة، المشاعر والخواطر والناس وكل شيء، لكن هذا مستحيل.

تركتها وبتُّ أستعد لجولة بملابس الغربان إلى "مدرسة صرغتمش" التي سيفتتحها اليوم، انتظرني يلبغا مُتخفيًا خارج القلعة في مكان حددناه سويًا، في طريقنا إلى هناك سألته عن الدرويش شهاب الدين الذي لم أره منذ فترة، تغيرت ملامحه ونظر إليّ قائلًا:

- هذا المشعوذ يقيم بخانقاه الأمير شيخوا العمري في خط الصليبة.

نظرت له مُحذرًا:

- لقد تنبأ بالوباء وموت أقطاب الدين.. إن الرجل مبروك كما قالت الست مِسكة رحمة الله عليها.

خفض رأسه فقلت:

- سمعت عن هذه الخانقاه أخبارًا طيبة..

علمت أنه يريد تغيير دفة الحديث ليلهيني فتكلم في سرعة..

- خانقاه وعدة حوانيت يعلوها بيوت لمساكن العامة، هذا الرجل يعرف من أين تؤكل الكتف، لقد رتب أربعة دروس لطوائف الفقهاء الأربعة ودرسًا للحديث النبوي، ودرسًا لإقراء القرآن بالروايات السبع وجعل لكل درس مُدرسًا وعنده جماعة من الطلبة، وشرط عليهم حضور الدروس وحضور وظيفة التصوف، ثم رتب لكل الطلبة في اليوم الطعام واللحم والخبز، وفي الشهر الحلوى والزيت والصابون!

- لطالما أحببت ذكاء شيخوا..

نظر إلي في ريبة ولم يعلق، لكنني وجدت نفسي أمام "مسجد ومدرسة صرغتمش" التي اكتملت عمارتها، والتي بدأ بناءها في شهر رمضان السنة الماضية خارج القاهرة بجوار "جامع الأمير أبي العباس أحمد بن طولون".

ها هو "الأمير سيف الدين صرغتمش الناصري" في أبهى ثيابه قد ركب فرسه، وقد حضر إليه "الأمير سيف الدين شيخوا العمري الناصري" مدبر الدولة، وعدد من عامة أمراء الدولة والقضاة الأربعة ومشايخ العلم لافتتاحها.

كان يلبغا ينظر إليهما في غيرة، لكني عندما تأملت عمارة مدرسته أخذني جمالها بعيدًا عن كل ما رأيت من قبل، وشعرت بغيرة في داخلي مثله.

***

العاشر من أكتوبر ٢٠٢٠ ميلاديًا - ١٤٤٢ هجريًا

في هذا الصباح الخريفي وقفت في البلكون أتنسم الهواء وأطل على الزقاق بعد أن تصالحت مع ضوضائه، ها هو العم بهاء يحمل أكياس الفول والخبز، وشيكو يجلس في سلام بجانب سعيد، ولم يعد للأطفال صياح في الشارع لأنهم يصيحون في المدارس، وصوت الشيخ "عبد الباسط عبد الصمد" يصدح بقوة من شباك العم أسعد، تطل زوجته على العالم وتحيي ذكراه في صلابة أحسدها عليها! المارة والباعة الجائلون يواصلون سعيهم، وبت أشعر بالامتنان في المطلق بالرغم من ظروفي التي لابد أن أسعى لتغييرها، إلا أنني أشعر بالحياة هنا، أخذني صوت لقاء من داخل الشقة تنادي:

- الفطور جاهز..

بعد أن انتهينا جاءت بجانبي وأزاحت خصلات شعرها إلى الوراء وتبدلت ملامحها وكأنها تسترجع شيئًا من الذاكرة وقالت:

- تعلم أنني كدت أموت خوفًا أن أفقدك؟! أن تتركني وحيدة، كانوا يعاملونني كأرملة، ودعوت الله أن ينجيك من أجل حياة تنتظرك.. لكن لابد أن أسرد شيئًا يقلقني..

استمعت في اهتمام فأكملت وهي تنظر إلى رقبتي..

- بالأمس راودني حلم عجيب، أناس بهيئة قديمة يهرولون ورائي في مكان لا أعرفه، لا يريدون لحلمي أن يكتمل! وأنا أجري وأخاف أن أفقد حملي وأبحث عنك فلا أجدك، عندما وصلت إلى بيتنا وأغلقته وجدت سيدة عجوزًا تمسك بالحرزين في رقبتك وتبتسم! تكرر هذا الحلم مرات عديدة، والعجيب أنك لا تزال ترتديهما وتتصرف بغرابة!

تحسست الحرزين في رقبتي ولم أعلم ماذا أقول! رن هاتفي وكان زيزو ينتظرني على "مقهى كُنكُن" حسب اتفاقنا، نظرت إلى الهاتف وأغلقته وأردفت:

- لابد أن أذهب الآن.. لكن لا تخافي من شيء، تذكري كلماتك لي عندما وجدت الحرز؟ أنت مع الله.. في الوقت المناسب سأحكي لكِ أشياء كثيرة.

في طريقنا إلى القصر فكرت أن أبوح له بمقابلة "منى" لكنني تذكرت وعدي لها فتراجعت، لكنني سردت عليه ما فاته من أحداث فبدا يفكر مذعورًا، وصلنا إلى القصر واستقبلنا محمود مُرحبًا كعادته، قال إن البرنس ينتظرنا في الحديقة الكبيرة، كنت متشوقًا لرؤيتها من المرة الماضية، عبرنا ممرًا طويلًا يبلغ أكثر من ثلاثة عشر مترًا تقريبًا، حديقة ضخمة يطغى عليها اللون الأخضر الممزوج بألوان الورد الزاهية، تبادلنا التحية وجلسنا، تبادل البرنس وزيزو

حديثًا مُباشرًا عن الجولات السياحية والغرض منها، بينما كُنت أستمع إليهما في صمت، أشعل البرنس غليونه ونفث دخانه في الهواء وأردف وهو ينظر إلى زيزو:

- صاحبك مُولع بالتاريخ، رأيت روحه تخرج من جسده وهو يرى مقتنيات القصر المرة الماضية، أنا سعيد بتنظيمكما جولات للقصر، هيا لنطلب قهوتنا بالداخل.

جاء محمود وسار مع البرنس أمامنا، وبدا أنه يسرد شيئًا هامًا، عبرنا الممر الطويل مرة أخرى، التفت إلينا البرنس وقال:

- البيت بيتكما، لابد أن أجري مكالمة هاتفية هامة.

صعد مع محمود إلى الطابق العلوي بعد أن قدم القهوة، ثم أشعل زيزو سيجارة، بينما وقفت أنا من جديد أمام المُقتنيات الأثرية التي تجذبني كالمغناطيس، وبقيت أتأمل كل قطعة على حدة بتمهل هذه المرة، بعض القطع أخذت نصيبًا من الاعتناء، والبعض الآخر يحتاج إلى جهود كبيرة، شجرة العائلة المقطوعة هذه تجعلني حزينًا، أي أثر مبتور يثير فضولي وشجوني، وما هذان المبخرة والإبريق النحاسيان! أشعر أنني رأيتهما من قبل! الحلم.. الرجل تحدث عن "رنك".. كيف نسيت هذا؟ لابد أن نكشف على الطست والمِشكاة فإن كان هناك رنك اختلف كل شيء!

ربت زيزو على كتفي قائلًا:

- لا أخفيك قلقي من أمر الطست والمنضدة والمِشكاة.. هل أهديهما إلى البرنس؟

- القرار لك لكني لا أؤيدك، إنهم ثروة..

أشرت إلى المبخرة والإبريق وقلت بصوت منخفض:

- هذان القطعتان في الحلم.. صدقني إن كل الأشياء ترتبط ببعضها.

بدا زيزو كأنه يفكر ولمحت البرنس قادمًا فقلت له:

- ألم تفكر في بيع هذه المقتنيات؟

فاجأني صوته من ورائنا يقول بهمة:

- وصيت جميع ورثتي بعدم البيع، أنت قُلت إنها تاريخ، هل يُباع التاريخ؟!

ابتسمت ولم أعلق، هذا الرجل يملك عقلية أبي تمامًا مع الفارق، هذا لن يبيع ويملك المال، وأبي لن يبيع ولا يملك المال! ابتسم زيزو في إعجاب وهو يداعب لحيته ويشير إلى القطعتين المبخرة والإبريق..

- نستطيع أن نرممهما إذا أحببت..

أشار البرنس في عدم اهتمام..

- نقوشهما مطموسة ويحتاجان إلى مرمم ماهر، لكن إذا كان الشخص موثوقًا فيه فلِمَ لا؟!.. على الأقل نعلم عنهما شيئًا، على العموم هاتان القطعتان مع شجرة العائلة لا نعلم أصلهم، لكن كما قلت سابقًا لا أحد يعلم كيف بقوا في حيازتنا.

- سأساعدك لفك شفرتهم.. لا تقلق بشأن المرمم فهو صديق يؤتمن.

أجابه البرنس بسلاسة..

- لا بأس.

- في أقرب وقت ممكن تأخذ المبخرة والابريق للترميم.

جلسنا جميعًا نحتسي القهوة على مهل، وسرعان ما انضم إلينا ضيوف آخرون لا نعرفهم وانخرط الجميع في حوارات جانبية، لكن المشكاة سيطرت على تفكيري بقوة عندما نظرت إلى السقف ورأيت المشكاوات الحديثة تزين المكان، أشعل زيزو سيجارة أخرى ولم يبدُ أنه يستمع إلى الحضور، مِلت قليلًا برأسي إلى زيزو وقلت بنبرة توجس وأمل لم أعتدهما:

- أريدك أن تفكر في بيع مقتنيات جدك الأثرية، أستطيع أن أساعدك ويعم الخير على الجميع.. فكّر جيدًا.

نظر إليّ ونفخ دخان سيجاره أمامه في حيرة وهو يفكر.

***

٧٥٧ هجريًا - ١٣٥٦ ميلاديًا

جلس أمامي هادئًا ثائرًا، لا حدود لطموحه، ولا تغلب الظروف ثورته، أكاد أشعر بكل ما يفكر به ويراه في مخيلته، ابتسمت وقد غلبني الأمل مثله وقلت وأنا أنظر في عينيه مباشرة:

- أنا على يقين أنك تفهم ما يدور برأسي.. دائمًا تفعل.

ابتسم في ود وقال:

- بشكل كبير.. نعم.

- وأقدر لك كل شيء فعلته من أجلي يا مُحمد..

- هذا شيء طبيعي بين الأصدقاء يا مولاي.. لو تكرمت علي بدوام صحبتك..

ضحكت بعفوية حينها لأنني أعلم أنه يعلم مقداره عندي جيدًا بعد أن لازمني في محنتي، وقلت:

- دعنا من هذا الآن.. أريدك في أمر يرضي جنونك..

لمعت عيناه وكأنه يعرف كيف أفكر ثم قال في ثقة:

- ستشرع في بناء مسجدك..

اتسعت ابتسامتي له وقُمت أتجول في مكاني وأصف حلمي له..

- تعلم أن الموت جزء من دورة حياة البشر الزمنية، لذلك وقبل اكتمال دورتي الزمنية وقبل أن أرحل أحب أن أفعل شيئًا مختلفًا، أريد أن أحيا بعد مماتي..

- أعدك سيكون معمارًا مُتفردًا في قيمته.

- مسجد ومدرسة، ولا ننسى البيمارستان، أريده كتلميح وليس كتصريح، قصيد من الحجر، يوحي، يشير، يذكّر بالله الواحد القهار فوق عباده، تنفصل الروح بداخله عن العالم بخارجه، تسكن إليه وسط صخب العالم، مكان طيب هادئ، صرح شاهق يعكس عظمة وبساطة الحب، صرح يحمل اسمي عبر الأزمنة، أتخيل إيوانه من الآن.. أكبر إيوان في العالم بأسره.

قال مُحمد بثقة:

- سيكسر حجم إيوانه إيوان كِسرى.. سترى.

- أتخيل قُبة عظيمة لا مثيل لها في البلاد الإسلامية، ومنبرًا من الرخام لا نظير له، أبواب تُدخل الناس إلى عالم آخر، والفسقية في المركز، أرض صحنه كالشمس والنجوم، كالبحر، حوار بين الفراغ والمادة، إيقاع داخلي يصل محدودية البناء بلامحدودية المعنى، اتحاد الروح بالجسد، بناء ضخم لا يسحق إنسانية المصلين والطلبة والمرضى، بل يسمو بهم، أريده عملية تواصل وتأمل طويلة، تجريد كامل، تتجه تفاصيله إلى أعلى، إلى مركز الكون، إلى الأبدية، إلى الله.. ليكون الشريط الكتابي في إيواناته ومدرسته بالخط الكوفي المورق.. ضريح يُدثر روحي، تصونه آية الكرسي من جميع الجهات، جلال وجمال ورهبة، ولا تنس جزءًا مخصصًا لإطعام الطيور العابرة..

تزايد بريق عينيه وكأنني ألقي فيهما جمرًا مُشتعلًا فواصلت تكملة الحلم..

- بناء يقهر الفناء بالذكرى، لكن يذكر الناس باسم الله باستمرار، رحلة تنتهي بالوقوف بين يدي الله.

وكأن عقله قد سجل كل حرف نطقته قال:

- سيكون لك ما أردت وأكثر.. سيكون أحسن المساجد شكلًا وأجمعهم لمحاسن العمارة، ولكن أين؟ هل فكرت في مكانه؟

- سأضرب عصفورين بحجر واحد.. مكانه سيكون مواجهة بين سلطة الحكم وروحانية الدين.. صرح أمام صرح..

لم يَنبِس محمد بكلمة وكأنَّ الزمان قد توقف مع آخر ما قلته، وفجأة وكأنه قد فهم ما دار برأسي نظر إلى ولمحت القلق يُولد في عينيه وهو يقول:

- تهدم قصري الأميرين "يلبغا اليحياوي" و"ألطنبغا الماريدني"؟

كانت إيماءتي بالإيجاب سببًا لأن يغير القلق ملامحه، فأكملت مُسترسلًا كأنني لم ألاحظ ذلك..

- هل تبدو لك كلماتي دربًا من الخيال؟

جاءت إجابته سريعة وذكية:

- تبدو لي كلماتك واقعية إلى حد كبير يا مولاي.. فقط أخاف أن..

قاطعته..

- لا يمكن التنبؤ بماهية التغيير حتى يحدث وتختبره بنفسك.

بعد لحظات صامتة أومأ بالإيجاب دون مناقشة وأردف في جدية..

- أجد في نفسي الكثير من الشغف لأشيد عمارة تقف بين الحياة والأبدية.

حينها ابتسمت وربت على كتفه بعد أن علمت أن شاد العمائر(5)"مُحمد بن بيليك المحسني" يُدرك تمام مقصدي.

***

التاسع والعشرون من أكتوبر ٢٠٢٠ ميلاديًا - ١٤٤٢ هجريًا

وقف زيزو تحت إضاءة الغرفة مباشرة يتفحص المِشكاة بعد أن تفحص الطست النحاسي جيدًا، كان يُمسك بها وكأنه يُمسك بقطعة من قلبه، بالرغم من يديه المرتعشين لكن قبضة يده كانت مُحكمة عليها، أخذ يتفحصها بعناية، لما رأيت عينيه تلمعان تأكدت من صدق ظني، وضعها فوق قماشة على الطست النحاسي في حرص وابتسم في خبث قائلًا:

- تحف أثرية بلا شك.. كيف لم أنتبه لهم من قبل!

نظرت له بجدية:

- هل نبيعهما؟

ابتسم زيزو بقلق وهو يهذب لحيته وينظر لهم وساد الصمت بيننا للحظات وقُلت:

- نرممهم ونرى ماذا يحدث؟

زفر زيزو زفرة طويلة وعيناه معلقتان على المِشكاة، وضع كفيه على رأسه وأخذ يهذب شعره إلى الوراء، بدا في حيرة وقلق ثم قال:

- أخاف على هذه الجوهرة.. لكنني سأفعل.

- والطست والمنضدة..

- نبدأ بالمِشكاة ونرى، فإذا كانت أثرًا نُراجع هذا المتحف الذي لم نلتفت إليه من قبل.

ثم نظر إليّ وكأنه تذكر شيئًا..

- أم نعيدهم للدولة؟

- نعيدهم للدولة؟! هذا إرثك وأنت صاحب القرار بالتأكيد! لكن أتظن أن رؤياي للمبخرة والإبريق صدفة؟

- أنا أصدقك، لكني مشتت بين ضميري وبين مال كثير تسميه إرثي لكن به شبهة.. حقاً لا أعلم ماذا أفعل!

***

٧٥٨ هجريًا - ١٣٥٧ ميلاديًا

كان صباحًا مُشرقًا مشمسًا يجعل الروح تصدق أننا في جنة، وهو ما كان كفيلًا بأن أعطي لمخاوفي هدنة، وأستمتع بحياتي دون تفكير ولو قليلًا، وبينما كُنت جالسًا في دار العدل بالقلعة والأمراء جلوس في الخدمة والقضاء، غلبتني عادتي وغُدت أفكر في حياتي كلها وفي مُستقبل أولادي، في مصر وحال البلاد، هل أنا عادل أم ظالم، هل ظلمت أحدًا من المماليك؟ أظن لا.. لكن لكُلٍ مقاييسه في الحياة وهذه هي المشكلة، أفكر في طولوبية الحنون وفي زُبيدة التي بدأت تملأ كياني رغمًا عني، إنها بارعة في استمالة قلبي نحوها.

وبقيت أراقب الأمراء وأفكر في كل أمير منهم على حدة، لا زال بداخلي أمل أن الإنسانية ستنتصر، إنهم قتلة، لكنهم جميعًا ضحايا، مرضى بحاجة إلى العلاج، أحاول أن أنأى بنفسي عن المؤامرات والمذابح، لكن كُلما فكرت من وجهة نظر أحدهم أجد له الأعذار!

كان الأتابكي شيخوا العمري واقفًا يخدم بالإيوان، يُخيل إليّ اليوم أنه صار أصغر وأوسم من ذي قبل، أو لعله يتباهى اليوم بملابس أفخر وأفخم من كل يوم، لماذا يا شيخوا؟! هل دخل الحب قلبك مثلما دخل قلبي؟! أم أنك تُدبر شيئًا لا أعلمه؟! على الناحية الأخرى لمحت أحد المماليك السلطانية ينظر إلى شيخوا بغضب وغل، والجميع مُنهمك في أعمالهم، لا أحد يراه ولا حتى شيخوا بكل ما لديه من فطنة وسرعة بديهة، لم يتوقف هذا المملوك عن مُتابعة شيخوا وحركاته، نظر لي شيخوا من بعيد مُبتسمًا يلوّح لي، كان الأمر غريبًا عليه وكأنه لم يرّني منذ زمن! وفجأة غافل هذا المملوك شيخوا ووثب عليه وظهر بيده خنجر وطعن شيخوا طعنة قوية في وجهه، صرخ شيخوا صرخة عظيمة، لكن المملوك لم يمهله ثواني فطعنه مرة أخرى في رأسه، انتبه صرغتمش وجميع الأمراء فاستلوا سيوفهم وهبوا لإنقاذ شيخوا من بين أيدي المملوك، حاول شيخوا أن يسحب سيفه ليدافع عن نفسه لكن المملوك باغته بطعنة أخيرة في ذراعه، فسقط شيخوا على آثارها مغشيًا عليه!

قُمت مذعورًا من مجلسي مما جرى أمام عيني، وشعرت بدقات قلبي تتزايد حتى كاد قلبي أن يتوقف، استغرق الغدر ثواني وانقلبت دار العدل كلها، وساد الهرج والمرج في المكان حتى أمسكوا بالمملوك الذي عرفت أن اسمه " قطلوا قجاة السلحدار"، وسمعت صرغتمش يقول وهو يتحسس رقبة شيخوا:

- لا زال يتنفس.. لننقله إلى بيته حالًا.

ثم نظر صرغتمش وبعض الأمراء إليّ في ريبة، وبدأت همهمات بينهم، يحسبون أنني وراء ما حدث لشيخوا؟ هذا تفكير منطقي فشيخوا أصبح حملًا ثقيلًا بالنسبة إليّ، فأنا لا أفعل

شيئًا في السلطنة مهما كان صغيرًا إلا ورجعت إلى شيخوا، هكذا تبدو الأحوال للأمراء، مع كل ذلك لم أحتمل احتمالية الغدر.. رغم أنني عاصرته وتعايشت معه منذ الصغر كل يوم، رُبما لأنه لم يحدث أمامي من قبل، رُبما لأنني تخيلت نفسي مكانه، هذا شيء لا إنساني، ولم أتخيل فكرة الشك تُطبق عليَ، رغم شكوكي المُتلاحقة بالجميع من آنٍ لآخر، إنه منهج المماليك في كل مكان وفي كل العهود والسلاطين.

بعد وقت قليل دخل الأمير "خليل بن قوصون" صهر شيخوا وبعض مماليكه، وشيخوا مطروح على الأرض غارقًا في دمائه، فحمله ومماليكه على خشبة كبيرة قاصدين بيته.

انتهى يومي وعدت لأعيد حساباتي من جديد، والحدث يسيطر على عقلي وعلى القلعة والقاهرة بأكملها، لم تستطع طولوبية أن تصرف عقلي عن التفكير في شيخوا وما قد يحدث له، ولم أكن في مزاج يسمح لي برؤية زبيدة أيضًا، طمأنتني طولوبية على أولادي، كانت طولوبية تشرف عليهم جميعًا رغم اختلاف أمهاتهم من زوجات وجوارٍ ومحظيات، وكنت أثق بها لكنني أردت رؤيتهم، كانوا يأكلون سويًا وبقيت مكاني أتأملهم، أحمد وقاسم وعلي وإسكندر وشعبان، أتأملهم وأتمنى من الله عدم افتراقهم أو خيانتهم لبعضهم البعض، آمل أن يتذكروا أيامًا يأكلون فيها ويلعبون سويًا، وبقدر خوفي عليهم أخاف على بناتي.

لم تغفل عيناي للحظات حتى فجر اليوم التالي، وفي الصباح الباكر ذهبت إلى بيته في حدرة البقر، نزلت عن حصاني ودخلت بيته فوجدت الأمير خليل عنده، كان القلق ينفرد بالمشهد، سألته:

- كيف حاله؟

- لقد أحضرنا طبيبًا فقطب له الجراح كلها..

دخل غلام بكأس فارغ من الفضة وكأس به عسل، التقطه صرغتمش بسرعة وأخذ من العسل وبدأ يكتب به داخل الكأس الفارغ وهو يردد "ويشف صدور قوم مؤمنين"، ثم أفرغ فيه الماء وخلطه بالعسل حتى زالت الكتابة وجلس يعطيه لشيخوا على مهل، نظرت إلى شيخوا وكأنه شخص آخر، تبدل الحال إلى أسوأه، جلست عند رأسه أنظر في عينيه وقد ملأني الحزن وقلت:

- أعلم أن المماليك يظنون بي الظنون، لكني أقسم لك يا شيخوا أنني بعيد عن هذه المكيدة، لم يكن بعلمي ولا لي خبر بما وقع من هذا المملوك قطلوا.

نظر لي شيخوا في وهن ولم يستطع أن يتحدث فقلت في صرامة:

- أحضروا المملوك السلحدار الآن..

حضر المملوك ووقف بين يديَ فسألته غاضبًا:

- من قال لك اقتل أميرًا كبيرًا؟

نظر المملوك إلى شيخوا بشماتة واضحة وقال:

- والله ما أمرني أحد بقتله، وإنما أنا في نفسي منه شيء، بسبب إقطاع كان لشخص من خشداشيتي توفي، فكتبت له قصته فلم يساعدني، وأخرج الإقطاع لشخص من جماعته، فعز ذلك عليَ فقتلته من شدة قهري منه.

سالت دموع شيخوا ورأيت غضب مماليكه، وأنهم سيفتكون بالمملوك القاتل، حينها بزأتني نظرات صرغتمش وبقية الأمراء والمماليك، فأمرت مماليكي في حسم..

- يُسمر ويُطاف به على ظهر جمل في القاهرة، ثم يُوسط على باب الأمير شيخوا وسط مماليكه.

هدأت النفوس والفتنة من حولي، وغادرت وأنا أفكر في استباحة الدم التي لا يفكر المماليك في عواقبها أبدًا، وهل حُكمي عليه تجاوز ما فعله؟ أم أنني أردت إثبات براءتي بشتى الطرق؟

قُبيل دخولي القلعة هبت رياح عاصفة من جهة الغرب، وقبل أن يأتي الليل أظلم الجو ظلمة شديدة، وسمعت جلبة كبيرة داخل القلعة وخارجها، دخلت ونظرت من نافذة القصر ورأيت الأشجار قُلعت والرياح ثائرة تطيح بالجميع، حتى دخل عليَ صرغتمش مذعوراً يقول:

- تساقطت أماكن كثيرة في القاهرة من قوة ما ثار من الرياح، إنها تعصف بالجميع وقد قُلعت أشجار الغيطان، الناس تبكي وتتوب إلى الله..

ثم استدار ليخرج قبل أن يستأذن فقلت له في قلق:

- إلى أين؟

- أودع أهلي وأحبتي.. الناس في الشوارع يودع بعضهم بعضًا ويقولون إنها علامات الساعة.

- علامات الساعة! كيف؟! للساعة علامات كُبرى لم تظهر بعد!

- لا أدري.. يظن الناس أن القيامة قامت.

قالها لي بهلع وخرج مُسرعًا، واستمرت الرياح ثائرة، من إشراق الشمس إلى نصف الليل، لم أستطع النوم ولا الراحة، جمعت أولادي وزوجاتي حولي نودع بعضنا البعض، واستمرت الرياح ثائرة وقلبي ثائر معها، هل يكون عقاب الله آتيًا من كثرة الدم الذي ملأ العالم.

أرهبني صوت الرياح وأخذ عقلي الذي لم يُقدر له الراحة أبدًا، وبدأت أنظر إلى أولادي من جديد بشفقة، إنهم صغار لم يأخذوا نصيبهم من الدنيا بعد، وبعد انقضاء وقت لا أعلم مدته توقفت الرياح وسمعنا زخات مطر شديدة، تركتهم لأنظر من النافذة فرأيت المطر غزيرًا وقد أغرق الشوارع، ثم سكنت الرياح فجأة وأسفر النهار صافيًا وكأن شيئًا لم يكن!

***

الأول من نوفمبر ٢٠٢٠ ميلاديًا - ١٤٤٢ هجريًا

لم نستطع أن نعرف نوع المولود في الأشعة، فهو يعطينا ظهره ويريد أن يفاجئنا، ورغم حماس لقاء وتوترها شعرت أنا براحة لذلك، إنه لشغف كبير أن أتعرف على ابني أو ابنتي في يوم الميلاد، صليت الفجر وأمضيت وقتًا أفكر فيما أحث صديقي عليه، هل يستحق الأمر المجازفة؟ سيحسم الترميم القرار.. لكن هل أنا على حق؟

أوصلت البنات إلى المدرسة وذهبت لأشتري طلبات البيت سريعًا، لابد أن أستعد لأولى جولاتي بعد التعافي من وعكتي الصحية، في طريق عودتي إلى البيت كان سعيد يرش الماء أمام القهوة وشيكو يلتهم إفطاره، صاح سعيد مُبتهجًا..

- ألف شكر للأستاذة على هذا الإفطار الفخم.. هذا سيجعله يتمرد على إفطاري المتواضع..

لقاء تُطعم شيكو! عند دخولي البيت كانت لقاء تُعد الفطور، ابتسمت وقالت:

- منذ أن رأيت نظرات منى وزيزو لبعضهما البعض في المشفى وأنا أفكر كيف يمكن لحب كهذا أن ينقضي؟ أرأيت ترتيب الله، أدعو أصدقائي على موقع "الفيسبوك" أن يدعوا لك فتراه منى وتأتي، لكن صديقك رأسه كالحجر.. ما رأيك أن تدعوه للغداء اليوم؟

أردفت:

- أنا حقًّا سعيد بتغيرك الذي أبهرني، لكن لا تتدخلي في أمر منى وزيزو.

- بالطبع لن أفعل.

بعدها بقليل عبرت الزقاق إلى شارع ابن طولون ومنه إلى ميدان ابن طولون، أفكر في إرث زيزو وهل يكون الحرزان أيضًا لأجداده؟

في طريقي إلى جولتي بشارع "المعز لدين الله الفاطمي" انتابني ٌشعور غريب، ولفحة هواء باردة قوية، ثم ومضات سريعة وكأنها تفتح طاقة من النور على زمن آخر ثم تعود إلى زمني الحالي! من الذي يفعل بي هذا وما الذي يريد إخباري به؟! ومضة نور لفارس على حصانه يحمل سيفًا ويتمخطر في فخر، ومضة لجنود توزع الحلوى والقماش على الناس في الشارع الذي امتلأ بزينة مُبهجة، ومضة لنساء ترتدي العباءات السوداء ذات الخصر الضيق مع الحجاب الكبير على رءوسهن، يركبن الحمير والبغال، دقات دقيقة على النحاس، ومضة لرجل يرتدي جلبابًا أزرق وعمامة بيضاء، يحمل على أكتافه سجادًا كثيرًا ويحاول بيعه للمارة، الومضة تلو الأخرى وبعض ما رأيته من قبل، وأنا لا أستطيع إيقافهم أو معرفة السبب، ثم سمعت صوتًا أخرجني مما أراه..

- حكيم.. ننتظرك هنا..

نظرت نحو الصوت، لقد وصلت بالفعل أمام "مجموعة قلاوون"، أشرت إلى المجموعة محييًا وبدأت الجولة، وقفت في ساحة مدرسة قلاوون أحاول التركيز فأشرت إلى المبنى..

- بعض علماء الآثار يسمونها "المدرسة الجامع"؛ ذلك أنها جمعت بين طراز الجوامع باحتوائها على أعمدة وأروقة وبين المدرسة باشتمالها على إيوانات متعامدة.. كان السلطان رجلًا عظيمًا بحق، حارب المغول وانتصر بشجاعة وبسالة لمصر والشام، وله أعمال حربية كثيرة، كان عادلًا لا يميل إلى جنس بعينه، ثم إنه كان يكف أذى المماليك عن المصريين وقام بإلغاء إتاوات كانت تُفرض عليهم.

دلفنا إلى المسجد وانهمكت في شرح الزخارف حتى وصلت "قبة المنصور قلاوون"، نظرت إلى القبر وابتسمت كعادتي أمام القبور وقلت:

- هنا دُفن المنصور قلاوون وابنه الناصر محمد وابنه عماد الدين إسماعيل بن محمد بن قلاوون.

انفتحت ومضة كبيرة ورأيت السيدة الشاحبة أمامي وجهًا لوجه! تمسك بمبخرة وتلف حول الضريح! بدأت أسعل من شدة البخور التي أعمتني وأفقت على أحد الشباب يعطيني زجاجة ماء ويقول:

- تفضل..

شربت جرعة من الماء وقد انقشع البخور ولم يبقَ له أثر، لكن هذا الشاب نظر إلى الضريح وقال:

- عجيب هذا الضريح. تفوح منه رائحة عطرة مميزة!

تعجبت ولم أعلق لكني تأكدت أن كل ما يحدث لسبب، حين بلغنا المدرسة والبيمارستان حمدت الله لما رأيت زيزو يشرح لمجموعته، فرأسي يكاد ينفجر، قلت بصوت وصله:

- عبد العزيز خير من يشرح وسنكون جميعًا خير من يستمع..

التفت زيزو إلينا محييًا وأكمل:

- بقي البيمارستان يؤدي وظيفته إلى سنة ١٨٦٥م، فلم يبقَ به إلا أصحاب الأمراض العقلية الذين نقلوا منه إلى ورشة الجوخ في بولاق، ثم نُقلوا إلى العباسية في ١٨٨٠م، وتحول البيمارستان بعد ذلك لمعالجة جميع الأمراض، ثم اقتصر على أمراض العيون أو "الكحالين"

كما سموها قديمًا، ثم تبع لوزارة الأوقاف من عام ١٩١٥م إلى الآن.

رن هاتفي وكانت لقاء، اقتربت من زيزو وهمست في أذنه:

- لقاء تنتظرنا على الغداء اليوم.

أومأ برأسه موافقًا ثم أكمل:

- وقد زار السلطان قلاوون البيمارستان بعد الانتهاء من إنشائه، وتناول قدحًا من شرابه وقال: "قد جعلت هذا المكان للملك والمملوك والذكور والإناث والكبير والصغير والحر والعبد والجندي والأمير".

انتهت جولاتنا فسلكنا طريقنا وأذان العصر يُرفع في سماء القاهرة أثناء مرورنا أمام مسجد المؤيد شيخ، حييت الحارس ودخلت أصلي العصر، عند ساحة المسجد كان ضميري يدفعني أن أحكي لزيزو مقابلة منى ففعلت، لم يغضب كما توقعت، لكنه كان شاردًا وبدأ يهذب شعر لحيته بطريقة متكررة وثرثتي، كان يفكر في حب باقٍ رغم انقضائه.

انطلقنا لشقة جدتي التي وقف زيزو ينظر إليها وبدا عليه القلق، صدر من شقتي أصوات نسائية بالداخل، بعد ثوانٍ فُتح الباب ورأيت هاني أمامي! نظرت له في ذهول ثم إلى زيزو، دلفت فرأيت رنا ولقاء ومنى! شعرت بالخجل وكأنني دبرت فخًا لصديقي، نظرت منى وبدا عليها الخجل والقلق والسعادة في آنٍ واحد، نظر لي زيزو في لوم وغضب وقلت له بصوت خافت:

- أقسم لك أنني لا أعلم شيئًا..

ابتسمت لقاء قائلة:

- ننتظركم منذ ساعة..

دخل زيزو وسلم على الجميع بما فيهم منى بطريقة خلت من المشاعر، حاولت أن أبدو طبيعيًا رغم حنقي على لقاء وقلت:

- أين البنات؟

قالت لقاء:

- سيبيتان مع مايسة الليلة.. هلا تساعدني في تحضير المائدة؟

وقبل أن أجيبها كانت تمسك بيدي إلى المطبخ، وحينها سمعنا صوت رنا تصرخ صراخًا قويًا وزيزو يهرول إلينا ويقول:

- يبدو أن رنا تلد الآن!

***

شهر رجب ٧٥٨ هجريًا - ١٣٥٧ ميلاديًا

لم يكن شيخوا يريد شيئًا عندما لوّح لي بيده في دار العدل، وإنما كان يودعني..

مات الأتابكي شيخوا العمري عليلًا من اثر الطعنات التي تلقاها من ذلك المملوك الغبي، ما كُنت قاتلك أبدًا يا شيخوا، أنت الآن تعلم الحقيقة إذا ما كان بك شك نحوي.

جلست مهمومًا بما يحدث حولي، لقد حل صرغتمش محل شيخوا، وقبض على الأمير "طاز المنصوري" وأودعه بثغر الإسكندرية، يقيني بأن هذا ليس للمصلحة العامة وإنما لثأر قديم يقضيه صرغتمش منذ أيام الملك الصالح في حكمه، وعوضًا عن طاز سأجعل منجك اليوسفي مكانه في نيابة حلب.

أحاطت طولوبية يدها بظهري وربتت عليه بحنو كعادتها وقالت:

- هوّن عليك.. إن لم يمت بطعنة مات في قصره، هذا أجله وهذه ساعته، لكن ما أثار أفكاري ما سمعته عن جنازته المهيبة في "باب الوداع"، جنازة تجمعت فيها الأمراء والمماليك والعامة، رجال الدين وخاصة الصوفة ودراويش الخانقاه والمساكين، الجميع رثاه بحب، تمنيت لنفسي جنازة كهذه.

تنهدتُ في حزن وقلت:

- هذه الحياة قصيرة ورخيصة تنتهي بطعنة، ومع ذلك لا تهدأ الأنفس مما يحيط بها من فتن.

تغيرت نبرتها وقالت:

- بالرغم من كل شيء، كان هذا الرجل بارعًا في اقتناص القلوب.

نظرت إليها قائلًا:

- لذلك عزمت أمرًا هامًا.. لابد من تولية أبناء الناس(4) المناصب، لابد أن أبدأ عهدًا جديدًا، لأترك أثرًا طيبًا..

رأيت في عينيها القلق الذي حاولت أن تخفيه عني، صمتت للحظات وهي تفرك أناملها ببعض فسألتها:

- ألا يعجبك هذا؟

تلعثمت وهي تقول:

- إن صرغتمش والأمراء الكبار لن يعجبهم ذلك..

ملكني الحنق وقلت:

- كيف تخافين من الأمراء وأنا سلطان البلاد؟!

التفتت إليّ في تلقائية ورأيت الخوف في عينيها صريحًا وقالت:

- معاذ الله، أخاف على مولاي من غدرهم، إنهم لا يحبون أولاد الناس، لذلك لن يتركوا الأمر لحاله وإن سكنوا في مواضعهم لبعض الوقت كالذئاب.

هدأتُ لما شعرت بصدقها فصمت أفكر فيما قالت وكان رأيها صائبًا، أردفت في إصرار:

- لذلك عليّ أن أتغير، على المرء أحيانًا أن يتغير، يصبح قويًا عند اللزوم ولينًا في الموضع الصحيح.

تفاقمت وازدادت نظرات خوفها فقلت وأنا أشير إلى شجرة وارفة أراها من النافذة أمامي:

- تعلمين يا طولوبية أن الزرع كالأطفال يحتاج إلى الحب والرعاية، هل يعيش الزرع بدون ماء؟!

نظرت إلى حيث أشير وأومأت نافية، فقلت:

- كذلك الرعية، يحتاجون إلى الحب كالزرع والأطفال، لابد من إعطاء الفرص لأولاد الناس، منذ أن وهبني الله ذريتي وأنا أفكر في هذا الأمر، أريدهم أن يعيشوا في أمان، في حب وتصالح دون تفرقة بين مملوك وابن ناس، لا أريد تفرقة وتمييز بعد الآن.

لمحت دموعًا تحبسها خلف مقلتيها، نظرت إليها مذهولًا فقالت:

- مولاي يعلم أن الأمير صرغتمش بدأ ينفرد بتدابير المملكة، وعظم نفوذه بالفعل منذ طُعن شيخو، أنت مولاي وحبيبي وحياتي.. وأخاف عليك منه.

احتضنتها وأنا أحاول أن أخفي قلقي الذي تملكني بالفعل منذ أشهر..

- أنت تبالغين في تقديره، لا تقلقي أنا أهتم بالأمر..

عندها سمعتُ أصوات زخات المطر من الخارج، نظرت إلى النافذة أمامي وقلت وأنا أداعب خصلات شعرها المنسدلة:

- أرأيت البشارة السارة؟

نكست رأسها وقالت:

- هل سيبيت مولاي عندي اليوم؟

أشفقت عليها لشعوري بفرط شوقها إلي وقلت:

- غدًا أكون معكِ.

نظرت في لوم يخالطه غيرة أعلمها، لأنها تعلم شوقي الدائم لزبيدة، تركتها وذهبت نحو الباب فقالت كأنها تنبهني:

- وأخاف عليك من نفسك..

نظرت إليها في غضب وهممت بتعنيفها لكني شعرت برجفة شديدة من تحتي، هرولت إلى طولوبية وهي تنظر إلى الأرض وتقول:

- إن هذه الرجفة قوية جدًا.. سيتحطم القصر فوق رءوسنا..

أمسكت يدها وهرولنا إلى أولادي لنأخذهم خارج القصر، كانت الجواري والعبيد والمماليك يهرولون إلى الخارج والقلعة كلها تهتز، مع هول كل ما يحدث رأيت زبيدة تنظر إلينا في غيرة عارمة!

***

الرابع من نوفمبر ٢٠٢٠ ميلاديًا - ١٤٤٢ هجريًا

اشتد برد نوفمبر، واشتدت معه أوتار مخي العصبية التي تلعب بي مثل كرة صغيرة، أحوالي المادية من سيئ إلى أسوأ، وأنا أفكر ليلًا ونهارًا في هذين الحجابين المعلقين في رقبتي كالدراويش، لو أن زيزو يبيع إرثه وأخذت عمولتي لكوّنت ثروة تكفيني وأولادي، وأرحت رأسي الذي شاب في شبابي..

جاءني سعيد بمشروب وضعه أمامي وقال:

- الحمص مضبوط شطة وليمون على كيفك..

- كيف حالك يا سعيد؟

- الحمد لله.. الدنيا تدور بي يوم حلو ويوم مر.. لكنها تمر.

- قل لي يا سعيد.. ماذا تفعل حين لا تملك مالًا يكفي بيتك؟

ضحك بتلقائيته المعهودة وقال ببساطة:

- قل ماذا أفعل عندما أملك المال يا أستاذ؟

ثم ذهب يلبي الطلبات، حينها رأيت صديقي آتيًا من بعيد، تبدو عليه الحماسة وهو يلقي سلامه يمينًا ويسارًا على المحال المجاورة، دق قلبي بعنف وكأنني أستقبل نتيجة الثانوية العامة، وقبل أن يجلس سألته في ترقب:

- ها.. ما الأخبار؟

نظر زيزو بطرف عينيه الخبيثتين وجلس ولم يجبني، لكنه أشار لسعيد..

- قهوتي يا سعيد.

لاح على ملامحي الغضب فقلت:

- يا أخي ما هذا البرود؟

ضحك زيزو، وظل يفكر ثم قال بهدوء:

- المِشكاة..

وضع سعيد القهوة أمامه.. ارتشفها وقال:

- من العصر المملوكي.

- المماليك البحرية أم الجراكسة؟

- لم نصل بعد لهذا الجزء... ما زالت تحت الترميم، عندما يصل هاني للرنك سنعرف إلى أي عهد تنتمي، لكنني لا أصدق حقًا..

- حتمًا ستكون المنضدة والطست أثريين.

- ليس أمرًا حتميًا.. خاصة أن جدتك لم تخبئهما كما خبأت المشكاة.

- كلام منطقي.

- لكن هل نستطيع بيعها بعد كل هذا العناء؟

- سأبذل قصارى جهدي.

نظر إلي قلقًا وأردف:

- لكن هاني نصحني بأن نبلغ عن المشكاة بعد انتهاء ترميمها..

طأطأت رأسي إلى الأسفل وكأنني سأفكر في الأمر.. فهمني زيزو وبدت عليه الحيرة مثلي وقلت:

- لابد أن تفكر.. فكر جيدًا.. القرار لك و..

قاطعني قائلًا بشيء من الحيرة:

- لا أدعي أنني ملاك.. لكن عشقي للآثار وضميري يُفسدان أي محاولة كهذه، عمومًا لقد شرعت في تقصي شجرة عائلتنا وإلى أي الأصول ننتمي، يستغرق الأمر بعض الوقت لكن هناك من يقوم به عبر وثائق محفوظة لأجيال مديدة.

- هذا أمر جيد سأتطلع إلى معرفته معك.

ساد الصمت ونحن نفكر، أشعر به جيدًا لأننا نتشارك في هذا الأمر بلا اختلاف، بدا كأنه يريد أن يُخرج عقله من التفكير فقال:

- نسيت أن أخبرك أن هاني سيتوقف عن الترميم لفترة، التحاليل والأشعة أثبتت أنه إيجابي كورونا وأنا قلق لأن حالته غير مطمئنة..

- وماذا عن ابنه "مايكل" ورنا؟

- انتقلت رنا إلى بيت والدتها، تخاف على المولود، لقد رأيت الموت في إصابتي، خاصة مع هذه السجائر اللعينة، لكني حمدت الله على نجاة أهلي منها.

- اعترفت أخيرًا بوجود الفيروس؟! وبأضرار السجائر؟!

ابتسم في عندٍ وقال:

- لا زلت أؤمن أنه فيروس مُصنع..

خفضت صوتي:

- وكيف حال فيروس الحب؟

قال وقد أحكم وشاحه بعصبية حول رقبته ويتحاشى النظر إلي:

- يبدو أنك في مزاج جيد..

- سأتركك تهرب من الإجابة بإرادتي..

التفت كأنه تذكر شيئًا..

- آاه كِدت أنسى.. يتعجب هاني من كون هذه الأشياء إرثي هكذا بمنتهى البساطة..

قلت بسخرية:

- لعله يشك بنا؟

- ليس هذا مقصده، قال يجب أن أسأل أهلي عن أصل هذه الأشياء، وأنا بالطبع لن أفعل، سيعلمون بما أفكر فيه وستدور المعارك حول إعطائهم للآثار.

ابتسمت ابتسامة لاعبي البوكر، لم أكن أعرف حقيقة ما بداخلي، كُنت أفكر هل نُسلم الآثار أم نسعى لبيعها؟ خاصة مع ظروف الوباء واحتمالية الإغلاق مرة أخرى وقلة الموارد المالية، مع زيادة طلبات لقاء والبنات ومصاريف المولود الجديد.

هل تكون الآثار هدية من الله أم اختبار لنا؟

***

العشرون من رمضان ٧٥٩ هجريًا - ١٣٥٨ ميلاديًا

كانت المماليك السلطانية على أهبة الاستعداد ينتظرون الإشارة، وكنت في مُنتصف دائرة بين الأمراء الكبار، أصف وأشرح لهم الكثير، ولما جاء وقت دخول صرغتمش على رتبت الأمراء حسب رتبتهم كلٌ في مكانه، وما إن دخل صرغتمش حتى قبض عليه الأمراء مرة واحدة، وانتابه شيء من الفزع وحاصرت المفاجأة أفكاره، نظرت له باسمًا في لوم وقُلت وأنا أقترب منه:

- تحسبني غافلًا عن خططك؟ أنت تصرّ يومًا بعد يوم على دق مسامير نعشك بيدك، أكاد أراك تغطي وجهي مرة ثانية، آه يا صرغتمش.. أنت لا تعلم شيئًا.

كانت نظراته كسهام نارية تلقيتها في هدوء ووقفت أمامه وقد ثبت عيني في عينه وأردفت:

- لم أعد "قماري" الصغير البريء، أنا "السلطان حسن ابن السلطان محمد ابن السلطان قلاوون"، لقد أيقظت غضبي يا صرغتمش وليس لك اليوم عندي شفيع.

نظر إلي صرغتمش القوي في تحدٍ ولا زالت القوة في عينيه لا تنصرف، أقسم أنني سأكسر هذه القوة التي تظنها باقية، لا شيء يبقى يا عزيزي الأمير، حينها سمعت جلبة بالخارج، وأشرت إلى الأمراء بالتحرك، لقد علم مماليكه بالقبض عليه كما توقعت، إن جواسيس الأمراء لا تنقطع عن القلعة، لكنني على كافة الاستعداد، وما هي إلا دقائق حتى سمعت أصوات صهيل الخيل والسيوف خارج القلعة تلتحم، وبعد برهة سمعت ركوض الخيل خارج القلعة، نظرت من إحدى النوافذ واتسعت ابتسامتي لما رأيت الغلبة للماليك السلطانية ومماليك صرغتمش تنسحب خارج القلعة.

تنفست الصعداء وزفرت في راحة كبيرة وأنا أرى صرغتمش ورفاقه مقيدين في طريقهم إلى ثغر الإسكندرية، لكن أخرجني منها صدى صوت الدرويش شهاب الدين يقول:

- لا إله إلا هو الملك ولا ملك غيره..

ولا يزال صوته يرن كالجرس في أذني، ولا أدري كيف قطع الصوت كل هذه المسافة إذا كان بالفعل خارج أسوار القلعة! أومن أين جاء! جلست وبقيت أتفقد معناه وقلبي يرتجف وأنا أتذكر يلبغا واقفًا أمامي يتلفت في توجس حوله ويهمس في أذني:

- "مولاي السلطان.. لقد عظم أمر صرغتمش وصارت الناس تخاف منه وتتقرب إليه، الأمر أخطر من ذلك، إنه يريد الوثوب عليك، إن لم تبادر وتقبض عليه، يبادر هو ويقبض عليك،

وتندم أنت بعد ذلك أنك ما بادرت إليه".

أعادني صوت يلبغا الواقف أمامي إليه من جديد..

- هل أنتظر أوامر جديدة يا مولاي؟

أفقت من شرودي وأنا في حالة متناقضة بين القلق والرضا لأنظر إلى يلبغا مرة أخرى وهو ينتظرني مُنحنيًا، هذا المملوك الذي اشتريته من مالي الخاص، والذى أصبح تابعًا مُخلصًا وذكيًا، لم أندم أنني رقيته بتقدمة ألف من المماليك، فهو يستحقها، قُمت من مكاني أتمشى وذهبت إلى النافذة وأنا أهذب لحيتي وشاربي، أفكر في "منجك اليوسفي" الذي قررته في نيابة حلب، فأنا لم أتعلم من واقعة الجسر، وها أنا أتحمل تبعات موافقتي على اقتراحه بضرب فلوس جدد، كُل فلس بدرهم، وعلى أن أتحمل الضرر الشامل الذي وقع على الناس.

وتذكرت ما قلته لطولوبية، لقد آن الأوان لأبناء الناس، ثم التفت إلى يلبغا الذي ما زال في انحناءته وقال في إشارة إلى صرغتمش..

- إلى أن تبتَّ في أمره يا مولاي.. أنا رهن إشارتك.

- إن أمر صرغتمش مُنتهٍ.

حينها دخلت زبيدة تنحني بجانبه أمامي، رأيت بداخلها الغيرة تغلي، لم أتحمل امرأة في حياتي مثلما تحملتها، لمحت يلبغا ينظر إليها نظرة جعلت غيرتي تتقد، كيف يجرؤ؟!

انصرف يلبغا سريعًا بعد أن لمح نظرتي الغاضبة إليه، فقالت زبيدة في لهفة:

- مولاي.. لم أرَك منذ فترة.. هل أسأت في شيء؟

تأملتني بعينين غلبهما الشوق فهدأت وقلت:

- هل كان حبك لي يزداد لو كُنت أميرًا محاربًا، تربيت في خشداشية(3) وتعلمت فنون القتال يا زبيدة؟

نظرت لي مُتعجبة وقالت:

- أنا أحبك لأنك أنت.. أنت من سكنت روحي في وجودك ولا أحد غيرك يملأ السكون.

ضممتها إلى صدري بشدة وقلت:

- تعلمين أنكِ الأحب إلى قلبي..

سمعتها تهمس:

- وطولوبية؟ أقصد.. مو..

قاطعتها وأنا أبعدها لأرى عينيها التي ملأتها الدموع..

- لماذا تغارين منها دون سائر زوجاتي والجواري؟!

- لأنها في منزلة أعلى مني..

- لا أحد يراني مثلك، ألا ترين أنك الاستثناء الذي لا يتغير في القصر؟

- هل رأيت البحر يكتفي إذا أمطرت السماء كل يوم؟ كذلك نحن البشر نحتاج إلى بعضنا البعض وإلى الحب، الحب الذي يبشر كل عسير، مع ذلك الحب نفسه شيء عسير، عسير جدًا.

ثم ابتسمت في غنج واقتربت على مهلٍ فملأني عبيرها الذي يغمرني رغبة وشوقًا لا ينتهيان.

***

التاسع عشر من نوفمبر ٢٠٢٠ ميلاديًا - ١٤٤٢ هجريًا

أمام شقة هاني بدا زيزو متوترًا وهو يمسك بالمفتاح ويحاول أن يفتحه عبثًا، راقبته لدقائق حاملًا أكياس الطعام، خلعت الكمامة وأخذت منه المفتاح وفتحت الباب فانفتح في سلاسة ودخلنا، أفزعنا هاني وهو يقفز أمامنا كطفل يضحك ويحمل ورقة في يده قائلًا:

- سلبي.. سلبي... سلبي.

وضعت الأكياس على المنضدة وهنأته..

- الحمد لله على سلامتك يا صاحبي..

احتضنه زيزو وهو في مزاج سيئ للغاية، ثم جلسنا حول المائدة وفتحنا الطعام وبدأنا نأكل سويًا، كُنت فرحًا من أجله، فأنا أعلم شعور النجاة وفرصة للحياة من جديد، بينما كانت نظرة هاني جادة وهو يقول:

- سأتابع العمل على المِشكاة يا زيزو، رغم فضولي نحو اكتشافها إلا أن وجودها في بيتي شبهة.

قلت على الفور:

- هذا إرثه، ثم إن أهله تركوه في بيت جدتي مهملًا كقطع خردة لا يعلمون قيمتها.

- لكن هذه قطعة أثرية.. ونحن نعلم قيمتها، أتفهم ما أحاول قوله هنا؟

- المهم أن نعرف لمن كان الرنك إذا كانت تحمل رنكًا بالفعل.

- أمهلني بضعة أيام قبل أن تعود رنا.

لم يهتم زيزو بما نقول على الإطلاق، قام قبل أن ننتهي من الطعام وأشعل سيجارة، أشار هاني بيده مُستفسرًا فهززت أكتافي ومططت شفتي السفلى أنفي علمي بشيء، قُمنا نجلس معه وقلت:

- هل تشاجرت مع منى؟

أطفأ سيجارته وانعقد حاجباه وهو يزفر:

- نفس المشكلة القديمة.

نظر لي هاني مُتعجبًا، فأردفت:

- لم تكن هناك مشكلة، البنت أرادت الزواج بمن تحبه كأي بنت في العالم..

أردف بعصبية:

- وهي تعلم أنني لن أتزوج..

- ولماذا لا تتزوج، منى تحبك وتتحمل جنونك وترتضي معك العيش في كل الظروف، لماذا أنت جاحد إلى هذه الدرجة؟!

أشاح بيده..

- أنت لا تفهم شيئًا في الدنيا.. لذلك تعاني من مشكلات الزواج في هذه السن المبكرة.

أوقع كلامه غضبًا في نفسي فوقفت وقلت بنبرة ساخرة..

- ثلاثون عامًا سن مبكرة؟! لا تلعب دور الأخ الكبير، ينقصك الكثير حتى تنصحني، انظر إلى حياتك، وحيد وكئيب، لا تمتلك حياة حقيقية.

ندمت فور سقوط كلماتي عليه كالحجارة، نظر لي هاني مُعاتبًا وتلعثم قائلًا:

- حكيم لا يقصد..

بعد برهة صامتة قال زيزو بهدوء:

- ربما أنت مُحق. لكننا أصبحنا كخيول السباق في الحياة، نجري وراء الرزق منذ أن نفتح أعيننا في الصباح إلى أن يغلبنا النعاس مع الإرهاق والخيبة في الليل، ومع ذلك هل نجحت في تحقيق ما تمنيته؟ دس يدك في جيبك وقل لي كم تملك؟ تريدني أن أتزوج وأنجب؟! لماذا؟! كفى العالم أطفالًا تعساء، لا أود أن أنجب أطفالًا يلعنونني لأنني غير قادر على متطلباتهم الأساسية، أحب حريتي، أملك نقودًا.. أملك ما أريد، لا أملك نقودًا.. لا أملك همًّا.

لم أستطع أن أذكره بإرثه الذي سينقذنا من مشاكلنا المادية أمام هاني، فأردفت:

- أنت الذي أعدتني إلى أحلامي عندما كنت لا أراها تتحقق، نحن نعلم أن مشوارنا ليس بالسهل، نحن فرسان هذا الزمن، نحارب السفه بالتاريخ، تذكر كلماتك في ندوات "سيرة القاهرة"، أنت تمر كل يوم على قبور أعتى السلاطين والملوك والأمراء، هل فهمت ما قاله التاريخ؟

قال هاني:

- إذا كنت تقتصر مشاكلك في المال فأنت مخطئ يا صديقي، صدقني المال يأتي

ويذهب، لا شيء يبقى.

انتفض واقفًا فجأة وأغلق الجاكت، ولف وشاحه حول رقبته وكأنه مُحارب يستعد لمعركة ونظر بطرف عينيه وتنهد بشكل موجع وقال:

- أنا لا أهاب العيش وحيدًا، أصبحت الوحدة صديقة عزيزة، إنها حياتي ولا شأن لكما بها.

***

٧٦٠ هجريًا - ١٣٥٩ ميلاديًا

لما وردتني الأنباء من حلب أن نائبها "منجك اليوسفي" تسحب منها واختفى ولم يُعلم خبره! شيء في صدري استراح منه أو أشفق عليه لا أدري! وكان لابد من بديل، ولّيت الأمير "بيدمر الخوارزمي" في منصب نيابة حلب مكانه، ثم أرسلت أحتاط على موجود منجك وحاشيته ونسائه وغلمانه.

نظرت إلى السماء واستنشقت عبيرًا خاصًا أميزه، الوقت باكر والطقس بديع، غلب التفاؤل على روحي في هذا الصباح، إن اختياري لبيدمر كان صائبًا بعد أن حاصر الأرمن في حلب بعد استيلائهم عليها، حاصرهم حتى استسلموا وطلبوا منه الأمان وسلموا له القِلاع، وها أنا أسير في موكب يودع مسيرتي في المطرية لأتشارك مع العامة الاحتفال، وبقيت أبتسم للناس وأفكر أثناء اتجاه الموكب للقاهرة، حينها كُنت على مشارف باب النصر، وما هي إلا دقائق ودخل الموكب منه ورأيت المدينة قد زُينت والناس سعداء.

كُنت فرحًا باستقبال الشعب لكنّ عقلي لم يتوقف عن التفكير، نظرت إلى موكبي الحَفِل فابتسمت راضيًا وحمِدت الله كثيرًا، وشعرت أنني أسير على درب أبي "الملك الناصر محمد بن قلاوون"، وعند بلوغي "بيمارستان قلاوون"، نزلت عن فرسي لزيارة ضريحَي جدي وأبي لقراءة الفاتحة والدعاء لهما، ثم اتجهت لتفقد المرضى ورؤية أحوالهم، أردت العلم كيف يعيش الضعفاء في دولتي، والحق أنني لم أفرح في حياتي مثل اليوم، فاطمأننت على مستقبلي ومستقبل أولادي من بعدي.

أنهيت جولتي الأولى اليوم لأنني سأقوم بأخرى بعد استراحة، ركبت فرسي وبدأت في الصعود إلى القلعة ولا زال صدى أصوات العامة يضجون لي بالدعاء "عاش الملك الناصر"، كان موكبًا مشهودًا، وعلمت حينها أن نفسي تستريح لصدق مشاعر الكثير من العامة وأولاد الناس.

ما إن دخلت القلعة حتى تذكرت أشياء أفسدت عليّ بهجتي، لا زلت أرى شيخوا يحتضر في منامي، لكني لم أقسم بالله كذبًا قط، لذلك كان قسمي له صادقًا على فراش موته، لم أتآمر على قتله، لكنني لن أستطيع أن أقسم لصرغتمش أنني لم أقتله يوم الدين، هؤلاء الأغبياء تمادوا في تجويعه في ثغر الإسكندرية، حتى إنه أكل من نعل حذائه قبل موته من شدة الجوع، نعم.. شعرت ببعض الأسف من أجله، لكنه كان أمرًا محتومًا، فهو من بدأ اللعبة منذ أن تآمرعلى فى ولايتى الأولى، وكان سيفعلها إذا لم أفعلها أنا، مع ذلك كرّمته في نومته الأخيرة ودُفن في مدرسته التي بناها بجانب "جامع ابن طولون" بالقرب من بئر الوطاويط،

هكذا نشيد العمارة لتضم زفاتنا وتخلد ذكرانا.

لكن طولوبية تغيرت منذ ذلك الحين وبدون رجعة، ولم تعد تهتم بشيء إلا أولادها، وشعرت بالتقصير نحوها لأنها باتت في حالة مزاجية سيئة، زادت من إعراضي عنها وذهابي إلى زبيدة وزوجاتي، وظلت نظراتها اللوامة القاسية تلاحقني، ولم أستطع مواجهتها. أسعى للحصول على حب أبناء الناس وأدعمهم بقوة أمام المماليك، وفي ذات الوقت أبيح لنفسي القتل خوفًا على العرش، أحيانًا أتعجب كيف يجتمعان الحب والقسوة معًا؟!

ولكن ملأني الضجر اليوم فقررت المواجهة عندما رأيتها تنظر من نافذة غرفتها شاردة، وقفت بجانبها لكنها لم تلتفت، فقلت في لهجة حاسمة خلت من المشاعر:

- أريد أن أراك الليلة..

ابتسمت في سخرية ولا مبالاة ولم تنظر إليَ وقالت:

- كُنت أظنك تنتظر الجارية زبيدة مثل كل ليلة!

اندهشت من تطاولها في الحديث معي، لابد أنها فقدت عقلها، أمسكت ذراعها وجعلتها تلتفت إليَ وقلت في حدة:

- ماذا حدث لكِ؟! هل جُننتِ؟!

حدقت بي في برود للحظات وكأن نظراتها تخترقني من الداخل وقالت:

- أحببتك منذ أن رأيتك مُتخفيًا في زي الغُربان قبل الوباء.. ودعوت الله لنجاتك، وبقيت أخاف عليك قبل نفسي، لكنك تنفر مني إليها! والأصعب من ذلك أنك تسعى بنفسك إلى الهلاك، ولا تسمع نصائحي التي تعلم في قرارة نفسك أنها صحيحة وعلى حق..

نظرت إليها في رهبة وقلت:

- هل قال الدرويش شهاب الدين شيئًا عني؟ بحثت عنه كثيرًا دون جدوى، لابد أنكِ تعلمين مخبأه.

ترقرقت دموعها الصلبة وقد وضعت إحدى كفيها على بطنها ونظرت كأنها تخفي شيئًا ثم قالت:

- شعر بالأسى عندما نُهبت دار صرغتمش ودكاكين الصليبة، والأعجب أنك قبضت على الصوفة الأعجام من المدرسة الصرغتمشية!

- لأنهم ساعدوا الهاربين من مماليكه وحموهم عند انكسارهم، وبالقبض عليهم هدأت

الفتنة.

عقدت ذراعيها وقالت:

- ولم تسأل نفسك من أشعلها منذ البداية؟

نظرت إليها وبدأ صبري في النفاد لكني تحدثت بنبرة أهدأ..

- أعلم أن موت صرغتمش جعلك تنظرين للأمور بطريقة مختلفة، لكن.. ألا تحبين سلطانك الحسن ناصر الدنيا والدين القوي؟ سلطان مصر بلا مُنازع.

فكت ذراعيها وتغيرت نبرتها وهي تلمس ذراعي برفق وقالت:

- أحببت "قماري" أكثر.. ذكاءه وفطنته ورفقه بالرعية.

نظرت لها في دهشة وتحاملت على نفسي من أجل مِسكة التي أوصتني عليها من قبل وقلت:

- وكيف لا أكون رفيقًا بهم وأتقرب إليهم وأنا أرقي أولاد الناس إلى الرتب السنية؟

ابتعدت وابتسمت في أسى وقالت:

- أنت تتقرب إليهم لأنك تعلم أنهم مأمونو العاقبة، وإلى حيث توجههم توجهوا، ومتى أحببت عزلهم أمكنك ذلك بسهولة.

استشطت غضبًا وأوشكت على الإطاحة بها وصحت ثائرًا:

- منذ متى وأنت تتدخلين في أمور الدولة وتنقدين سلطان البلاد؟!

انحنت فجأة وأمسكت ببطنها وكانت تتوجع، لكني لم أشعر تجاهها برفق فخرجت وتركتها على هذه الحال، والجواري تهرول إليها، وندمتُ على الخوض في الحديث معها.

نزلت من القلعة وامتطيت الفرس قاصدًا مسجدي لحضور صلاة الجمعة، فقد أخبرني شاد العمائر أن قوام المسجد الرئيسي قد اكتمل وأردت أن أتفقده، كُنت أفكر في كل ما قالته طولوبية وكأن كلماتها التصقت بي ولم أقدر على نفضها عني!

امتطيت فرسي وشعرت باختلاف بداخلي، أحاول الانشغال فيما أنا ذاهب إليه، أن أختلط بالحجر لأداوي جروح نفسي التي لا تهدأ، ولا تجد من يحنو عليها سوى زبيدة، هذه المرأة التي تفهمني وتعشقني ولم أفكر في الزواج منها إكرامًا لها، رُبما أفعل، ولمَ لا؟!

حين بلوغي المسجد استقبلني "مُحمد بن بيليك المحسني" عند المدخل مُبتسمًا، والقضاة

الأربعة وكبار الأمراء ينتظرون في كامل أبهتهم بالشاش والقماش، نزلت عن الفرس وتوقفت أتأمله قبل الدخول، عمارة شاهقة، تقف وحدها شامخة في مواجهة قلعة الجبل، كنت واثقًا أنه ذرتي المعمارية التي أنشدها في الدنيا، والجمال الذي سيحمل اسمي لأزمنة بعد رحيلي، لقد وفى بوعده شاد العمائر، نظرت حولي وابتسمت عندما تذكرت قوله أثناء الحفر في بداية البناء بأنهم وجدوا مرساة مركب قديم! هذا يعني أن النيل كان يمر من هنا قديماً! تنهدت وأنا أستشعر تغيرات الزمن وأتمنى بقاء مسجدي.

هذا الحصن المنيع الذي شيدته بكثير من الأموال سيشهد أنني حاولت كثيرًا التغيير، لن أذهب إلى الفناء هباءً منثورًا، صعدت بضع درجات تؤهلني إلى ما أنا مُقبل عليه، خلعت نعلي ووقفت في "الدركاه(2)" أتأمل بديع صنعها فتهيأت نفسي أكثر، رغم أن الزخارف لم تكتمل بعد، ثم صعدت يسارًا بضع درجات إلى ممر قصير فكانت الغرف الصغيرة لتعليم الأطفال عن يميني، ومدخل من مداخل البيمارستان أمامي، فاتجهت مرة أخرى يسارًا في ممر طويل يصلني في آخره إلى ساحة المسجد، وشعرت أنني أولد من جديد، وبدأ الهم يتساقط عن صدري مع كل خطوة نحو النور، وعندما بلغت صحن المسجد توقفت، ورأيت صرحًا بديعًا لم أرَ مثيله حتى في دولة أبي أو جدي، وشعرت بالفخر لذلك، كانت الإيوانات الأربعة عظيمة، وهذا الحجر الأبلق الذي أعشقه يُزين مداخل المدارس الأربعة، الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية، المِشكاوات الزجاجية المتدلية التي تحمل رنكي أتقنت لدرجة الإبداع، ستكون أهم مِشكاوات العصر المملوكي.

أقيمت الصلاة ولمحت حينها الدرويش شهاب الدين بين المصلين، وبعد انتهائها جالت عيني في المسجد تبحث عنه فلم أجده، وكأنه تبخر كعادته، ورأيت الفسقية في المنتصف مملوءة بالماء المُذاب بالسكر والليمون، كان عبيره يخترق أنفي بسهولة، وقد وقف على الفسقية جماعة من السقاة يسقون المصلين بالطاسات، شكرت الله على ما رأيته من جمال يطوقني ويسقيني فخرًا وأملًا.

جلست بين حاشيتي وأكرمت المشيدين والمهندسين والمعلمين، والبنائين والمرخمين(1) والنجارين والسباكين والحدادين والمبلطين، وقررت للصوفة أن يحضروا من بعد العصر ويكون "الشيخ بهاء الدين السبكي" شيخ الحضور بالمدرسة، وأما المدارس فعينت لكل مذهب شيخًا ومائة طالب، من كل فرقة خمسة وعشرون متقدمًا وثلاثة معيدين، وعينت مدرسًا لتفسير القرآن ومعه ثلاثون طالبًا، ومدرسًا للحديث النبوي، ومقرئًا لقراءة الحديث، وعهدت إلى بعضهم أن يقوموا بوظيفة النقيب والبعض الآخر يقوم بوظيفة داعٍ للسلطان عقب الدروس، ثم عينت بالإيوان القبلي شيخًا مُفتيًا، ومعه مقرئ لأربعة أيام منها الجمعة

ليقرأ ما تيسر من القرآن والحديث، وعينت مدرسًا حافظًا لكتاب الله عالمًا بالقراءات السبع، يجلس كل يوم ما بين صلاة الصبح والزوال بالإيوان القبلي، واثنان لمراقبة الحضور والغياب.

ثم قررت مكتبين بمدرسيهما لتعليم الأيتام القرآن والخط، وقررت لهم الكسوة والطعام، وإذا أتم اليتيم القرآن حفظًا يُعطى خمسين درهمًا، ويُمنح مؤدبه مثلهم، وعينت طبيبين أحدهما باطني والآخر للعيون، يحضر كل منهما بالمسجد ليداوي من يحتاج إلى علاج من الموظفين والطلبة، ورتبت طبيبًا ثالثًا جراحًا، وأرصدت في وقفيتي مرتبات الأساتذة والطلبة والموظفين، وقيمة ما يُصرف لهم من المأكل كل ليلة جمعة وما يُصرف في الأعياد.

وأخيرًا شعرت براحة بعد اكتمال حلمي، وجلست فخورًا بين الجمع الكبير، وبينما أنا جالس رأيت أمامي الدرويش شهاب الدين من جديد، لكن هذه المرة يقف في الإيوان المقابل يتحدث إلى الست مِسكة! أغلقت عيني وفتحتها، إنها هي، كانت معه ترتدي زيًا أبيض ناصعًا لونه وترتدي تاجًا ملكيًا، قُمت من مكاني واقفًا فوقف الأمراء والقضاة، نظرت إليهما وخفق قلبي بشدة، وفجأة دخلت طولوبية ووقفت معهما! كانا يشيران إليّ ويتحدثان إليها، وكانت تسمعهما وتتحدث لكنها لم تنظر إليّ أبدًا كما تمنيت، كان يلبغا يقف بجانبي وينظر نحوهم فقال مُستفسرًا:

- مولاي يشغله أمر خطير؟

نظرت إليه مُتحيرًا وودِدت أن أحكي لكنني ترددت، هممت أن أذهب إليهم لكنهم اختفوا وكأنني أحلم!

***

الأول من ديسمبر ٢٠٢٠ ميلاديًا - ١٤٤٢ هجريًا

في منتصف الساحة وقفت أستحضر ما تبقى من سيرة هذا الأمير القوي لأختتم الجولة، لم تبخل شمس اليوم بتدفئة "مسجد ومدرسة الأمير صرغتمش"، وقد كانت الجولة لثلاثة أفراد فقط، بدوا مبهورين بالبناء، وأخذوا يسألونني كيف عاش الناس وكيف كانت أحوالهم؟ بعد سرد إجابات كثيرة طغى صوت الطيور الآتية من كل مكان على المشهد فأردفت:

- "سيف الدين صرغتمش الناصري" رأس نوبة(0) وهذه رتبته، جلبه الخواجا الصواف، واشتراه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٣٧ هجرية بمائتي ألف درهم فضة أو أربعة آلاف مثقال ذهب، ثم عينه الملك الناصر جمدارا أي الذي يُلبس السلطان ثيابه، وهذه مكانة كبيرة، ثم تلألأ نجمه وتمكن أيام المظفر حاجي بن محمد بن قلاوون، وكان الملك الصالح ابن محمد بن قلاوون يرجع إليه في كل مشورة حتى وهو في خدمته في دمشق، ولما رجع من دمشق أمسك الوزير حينئذ وصادر أمواله بغير علم السلطان، واستقر كرئيس للنائبين في مثل رتبة الأمير "شيخوا العمري" وهو من أهم الأمراء حينئذ، لكن عظُم ترفُّعه على الناس فتنكرت له الأمراء، ولما عاد السلطان حسن بن محمد بن قلاوون ورأى تدخل صرغتمش وتصرفه في شئون الدولة قبض عليه وأودعه سجن الإسكندرية إلى أن مات بعدها بشهرين ثم نقل ودفن بمدرسته هنا، ثم دُفن معه لاحقًا ابنه الأمير إبراهيم سنة ٧٧٠ هـ.

كاد الوقت أن ينهي الجولة فأردفت:

- هذه المدرسة خصصها الأمير صرغتمش لتدريس علم الحديث النبوي، وأصول الفقه الحنفي، وكانت معقلًا مزدهرًا للعلماء والفقهاء من المذهب الحنفي في القرنين الثامن والتاسع هجريًا، لذلك تجد المكان له روح طيبة، أتمنى أنكم عشتم في المكان والزمان وحصلتم الاستفادة والمتعة.

ثم أشرت إلى المئذنة قائلًا:

- لاحظوا المئذنة الرشيقة على الطراز القاهري المملوكي البديع، يبلغ ارتفاعها ٤٠ مترًا وتتكون من ثلاث طبقات، هذه العمارة المملوكية تتميز بدقة التفاصيل والنقوش والزخارف في القباب والمآذن، أما العمارة العثمانية ففقيرة جافة حتى إن مآذنهم تشبه إلى حد كبير "القلم الرصاص".

ضحك الحضور ولمحت امرأة عند الفسقية تضحك معهم، جميلة، بيضاء، متوسطة القامة،

رشيقة، ترتدي ثيابًا بيضاء تحدد خصرها قطعة ذهبية، شعرها أسود طويل، أردفت وأنا أكاد أنهي جولتي وقد أخذتني المرأة بطلتها الساحرة والمريبة أيضًا..

أتممت الجولة وبحثت عن المرأة في كل مكان فلم أجدها، هل كانت إحدى الرؤى التي راودتني من قبل؟! مشيت خارج المسجد أفكر وأترقب اتصال هاني الذي انشغل بعد عودة رنا ومولودهما، وتأخر في إنهاء ترميم المِشكاة، تحسست الحرزين في صدري وتساءلت هل لهما علاقة بكل ما يحدث لي؟!

كانت لقاء والبنات تبيت عند والدها لشعورها باقتراب المخاض، وكان من المفترض أن أذهب لهم ولكني سأذهب أولًا إلى بيتي لآخذ قسطًا من الراحة، فأنا لا أريح نفسي أبدًا من عناء البحث والتفكير.

عند مدخل شقة جدتي أردت الدخول لكني ترددت، فصعدت بضع درجات إلى شقتي لكن هبطت ودخلت الشقة، أضأت الأنوار ودخلت إلى غرفة جدتي، جلست على سرير جدتي وتذكرت السيدة الشاحبة والسيدة التي رأيتها اليوم في المسجد؟ هل هما سيدة واحدة في الشباب والشيخوخة؟ لقد اختل توازني من كثرة الرؤى، لكنني أردت أن أعيد التجربة، تحسست المسبحة تحت الوسادة، ما السر في هذه الرؤى، المسبحة أم الحرزان؟ أم إرث زيزو؟

المسبحة الخضراء مُنطفئة، أغمضت عيني وبدأت أسبح الله وأدعوه أن يمُن علي بالحقيقة، بعد دقائق فتحت عيني فرأيت وميض المسبحة التي توهجت من جديد بين أناملي! تلفتُّ حولي وقد شعرت بحركة ما فانتفضت واقفًا، وخرجت من الغرفة على الفور، وإذا بي أرى هالة نور عند باب الشقة ودرويشًا يرتدي جلبابًا أخضر وعمامة بيضاء كبيرة، على صدره الكثير من المسابح، ارتعدت لما رأيته يمسك بنفس المسبحة التي أمسكها بيدي! تدور حباتها مع أنامله تمامًا كما أفعل بحركة لا إرادية، بينما تقف بجانبه السيدة التي رأيتها اليوم في مدرسة صرغتمش بنفس هيئتها، أغمض عينيه وقال:

- ليس لنا إلا الصبر..

قالت:

- إن صبري فاق الحدود.. إنها تخونه وهو لا يصدقني..

أشار الدرويش إلى السماء وقال:

- اطلبي النور من النور.

بكت المرأة فقال مُواسيًا:

- كل ما أستطيع أن أفعله هو الدعاء..

جففت دموعها وقالت:

- ادعُ له فإنه أعمي.. يسعى إلى نهايته بنفسه.

أردت أن أخرج من الباب لكني تسمرت في مكاني وارتعشت يداي، عندها وقعت المسبحة فأحدثت صوتًا ملأ السكون، وانفرطت حباتها فوصلت إحداها إلى الدرويش، نظر الدرويش إلى الحبة ثم نظر إليّ بتوجس فنظرت هي بعده إلي، جف حلقي ولم أعد أعلم ماذا أفعل! هممت أن أتحدث رغم كل شيء فقلت:

- أنا آسف لقطع حديثكما..

انحنى الدرويش يلتقط حبة المسبحة فتلاشا ببطء وأضيئت الأنوار من جديد وأنا غارق في عرقي! نظرت إلى المسبحة على الأرض وقد عادت سليمة منطفئة، أعدتها مكانها مرة أخري في سرعة وفتحت باب الشقة ثم أطفأت الأنوار وخرجت من الشقة وأغلقت الباب، وأنا أقوم بشهيق وزفير مُتواصل لأستعيد توازني، وأرجو قلبي ألا يخرج من مكانه، وضعت يدي على صدري فاستشعرت الحرزين، سوف أذهب للقاء وألهي نفسي عن التفكير مع البنات.

عندها رن هاتفي فانتفضت، كان المُتصل هاني، كان صوته عجيبًا على نحو لم يحدث من قبل..

- لقد انتهيت من الأمر.. ولابد أن أراك في أقرب فرصة.

بعد انتهاء حديثنا القصير سمعت صوت بكاء المرأة عاليًا يأتي من الشقة وكأنها تنتحب!

٧٦١ هجريًا - ١٣٦٠ ميلاديًا

ها أنا أعاصر تصدع النفس البشرية حتى النخاع، ها أنا أشهد تحول الجريمة الواحدة إلى عدة جرائم، الآن فهمت اللعبة، أيادينا لُطخت بالدماء، كُلنا ظالم ومظلوم، نحن لسنا ما نوينا أن نكون، لكنني سأواجه للنهاية، وسأسحق كل من يفكر في سحقي قبل أن تكتمل الفكرة في رأسه، وعندها لن ألوم نفسي أبدًا.

بعد أن دُفن أخي "الملك الصالح" الذي توفاه الله في دور الحرم، انتابتني حالة من الفراغ الداخلي، هذا الذهاب بلا عودة يُرهب النفس العاقلة. جلست على الدكة السلطانية أفكر في أموري كلها وأعيد ترتيب أفكاري، وفجأة دخل اثنان من العسكر قابضين على "منجك اليوسفي" ثم دفعوه بقوة فامتثل أمامي، قُمت من مكاني مُستنفزا لرؤيته وقلت:

- منجك؟ ما الذي أتى بك إلى هنا؟!

ركع على ركبتيه وقال في ذل:

- يا مولانا السلطان، أنا قد تركت الدنيا، وخرجت فقيرًا سواحًا على باب الله.

ثم غطى وجهه بكفيه وبكى بقوة وشعرت صدق قوله، نظرت إلى هيئته فتعجبت.. هل هذا الأمير منجك اليوسفي؟ كان يرتدي جُبة صوف خشنة عسلية اللون، وعلى رأسه مئزر صوف أبيض! أين ذهبت الملابس المزركشة بالذهب والفضة، وأين الجاه والأموال والغطرسة؟! رق قلبي له رغم كل شيء، لا شيء يبقى، اقتربت منه وأمسكت بذراعه المرتعشة لأرفعه من الأرض وقد سيطر الخوف عليه، نظرت في عينيه قليلًا قبل أن يطأطئ رأسه في الأرض فعلمت أن نفسه قد تغيرت وتبدلت، ربت على كتفه وقلت:

- قد عفوت عنك، هيا اذهب وبدِّل تلك الثياب؛ فإنها لا تليق بإمرة أربعين في الشام..

رفع رأسه إليّ في دهشة ورأيت نظرات امتنان وعرفان في عينيه، لم يفعل شيئًا بعدها إلا تقبيل يدي التي لامست سخونة دموعه الصادقة، ثم خرج إلى حيث أمرته.

كان لهذه الواقعة أثر شديد في نفسي، فأردت بشدة الذهاب إلى مسجدي لصلاة الظهر بصحبة شاد العمائر "محمد بن بيليك"، دخلت واتجهت مُباشرة معه بمفردنا إلى الإيوان القبلي والرئيسي، وقرأت أعلاه "سورة الفتح" على الشريط الكتابي بالخط الكوفي المورق، ورأيت جمال دكة المُبلغ والمحراب وراءها، ثم توقفت عند باب الضريح وشعرت بشيء عجيب يختلج في صدري، هذا الايوان به ضريحى، هنا بيتي الأبدي الذي سيحمل جثماني ويحتضنه ويحنو عليه بأمر الله حتى تقوم الساعة، ورأيت آية الكرسي تلف الضريح كما

تمنيت؛ فحمدت الله على تحقيق أمنيتي، ثم دلفت إليه بعد أن قرأت الفاتحة على روحي، وخانتني دموعي فانسابت حزنًا على نفسي التي ما زالت على وجه الأرض، قال لي محمد متعجبًا:

- ما كل هذا الحزن؟!

لم أنظر إليه لكنني قلت:

- أريد أن أنزل وأتفقد تربتي قبل الصلاة.

أردف على الفور في قلق:

- لك ما شئت يا مولاي..

نظرت له في حسم وقلت:

- أغلق باب الضريح الآن، وعندما أنزل أغلق التربة عليّ لبرهة صغيرة ثم أفتحها.

ففر فاهه لكنه فهمني كعادته، وقدر حجم ثقتي به فأومأ بالإيجاب رغم خوفه الذي رأيته في عينيه، بسملت ثم نزلت بخطوات بطيئة، أتخيل يوم أن يحملوني على أكتافهم بلا حول ولا قوة، ثم يلقون بجثتي هنا، أحنيت قامتي وجلست ثم مددت جسدي وسمعت صوت إغلاق التربة، وساد ظلام دامس!

سمعت بعده صوتًا عظيمًا يُرهب النفس يُردد في أذني "نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين"، ومرت حياتي كلها أمامي في لقطات مُتقطعة، ثم تبدلت وترتبت منذ صغري وحتى الآن، ورأيتني أصارع الحياة رغم حبي لمباهجها، وبقيت أبكي كثيرًا وأنا أذكر الله مدة طويلة، إلى أن سمعت صوت فتح التربة وصوت خطوات ثم رأيت ضيًا فأغمضت عينى لحظات ولما فتحتها قرأت كلمة "نور" على المشكاة، ورأيت يدًا مُرتعشة تمتد لي، كان مُحمد يحمل مِشكاة زجاجية كبيرة من المسجد لينير لي، ثم ساعدني في تنظيف ملابسي من تراب القبر ونظر إليّ في ذهول مُردفًا:

- لم أشأ أن أطيل الظلام عليك، هناك رجلٌ يلح في طلب رؤيتك، ويقول إن الأمر هام..

ضاقت عيني وأنا أخمن وقلت:

- دعني أرَه..

وقف عند باب الضريح وأشار فدخل الدرويش شهاب الدين، ارتاحت نفسي لرؤيته وقُبض قلبي في الوقت نفسه، أشرت إلى مُحمد أن يتركنا ففعل لكنه ترك باب الضريح

مفتوحًا وقد بدأ القرآن الكريم في التلاوة خارجه، نظرت إليه فوجدته مُغتمًا ينظر إلى الأرض فقلت:

- أين أنت أيها الدرويش؟ لقد بحثت عنك وأنت تعلم هذا، أبلغتني طولوبية بحزنك على صوفة صرغتمش لكنني أوضحت لها..

أشار لي بيده مُقاطعًا:

- عفوًا يا سلطان البلاد، لقد جئتك في أمر هام.

ساد الصمت للحظات وعلا صوت الشيخ يرتل "لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مُختال فخور"، قال حينها:

- إن طولوبية تلميذة نجيبة، حفظت القرآن والتفسير، وواظبت على دروس الحديث النبوي، كما أنها أحبت الست مِسكة واقتدت بها في أعمال البر والخير، وأحبتك حبًا جمًا..

فهمت أنها اشتكت إليه فقاطعته:

- أعلم كل هذا لكنها لا تفهمني وتنتقدني بحدة، ولا تستطيع..

قاطعني للمرة الثانية وقال:

- إنّ ما تبقى لها في الدنيا يجعلك تتغافل عن كل شيء.

جحظت عيناي وكأن صاعقة من السماء أصابتني وقلت:

- أنت تهذي..

أردف في ثقة:

- لله الأمر من قبل ومن بعد، أخفت عنك مرضها كي لا تنشغل عن أمور الدولة، وكانت تعلم أنك تفضل محظيتك زبيدة عليها لكنها صبرت، آملة في عودة قلبك لها من جديد.

بدأت أهذب لحيتي قلقًا وأنا أتذكر كلامه ونبوءاته لكنه قال:

- سينقضي الغد سريعًا، لا يوجد مُتسع من الوقت للتفكير في الحياة، ما تبقى يدعوك بشدة لأن تبدأ العيش معها.

- ماذا تقصد؟

نظر حوله وقال:

- أنت حين تملك نفسك فقد ملكت كل شيء.

تأففت في ضيق وقلت:

- ليس هذا وقت الطلاسم يا رجل.

نظر لي في جدية وخفت صوته وقال:

- أنا العبد الفقير إلى الله يُحذرك من نفسك أيها السلطان الذكي، لا تدع أحدًا يملكك، يملك عقلك أو قلبك، إن للذكاء غفوات وعثرات، احذر الغدر فإنه قريب.

وسمعت الأذان ينطلق "الله أكبر" وقد انهارت روحي وبدأت أبكي بخوف، أبكي من الفقد والخوف والغدر.

***

العشرون من ديسمبر ٢٠٢٠ ميلاديًا - ١٤٤٢ هجريًا

عندما أنظر إلى حياتي السابقة أبتسم بسخرية، ظننت أنني أصلح حياتي بكثير من المحاولات والقرارات، والتي تدور حول أحلامي وعملي وأسرتي، ونسيت بدايتي ونهايتي، نسيت أهم ما خُلقت من أجله، الصلة التي تجعل أحلامي تتحقق، وأحوالي تنصلح، وقلبي يهدأ، كان يجب أن تكون أول قراراتي إصلاح علاقتي بالله، وحمدته على إعطائي فرصة ثانية، صحيح أن مشاكلي لم تُحل بعد، لكنني أكثر اطمئنانًا.

لم أستطع أن أرى هاني لانشغاله بإصابة مولوده الرضيع بنزلة برد شديدة أنسته كل شيء، وبالطبع أنتظره حتى يكون في مزاج يسمح له بالتحدث عن ترميم المشكاة، صليت الظهر وتمددت أقرأ رواية جديدة من أدب الغموض كنت قد تحمست عند شرائها، ربما تكون أحداثها متماشية مع ما أمر به من أحداث عجيبة، أريد أن أقرأ دون تفكير وأستريح اليوم من عناء الأمس، فقد كان إنذارًا خاطئًا بالولادة وكانت لقاء في شدة الإعياء، لكن يبدو أن راحتي لن تكتمل بإصرار زيزو على لقائي في قصر البرنس فخر الدين الذي لم نبدأ جولاتنا فيه بعدُ لقلة الأعداد.

على باب القصر كان محمود كعادته أنيقًا يبتسم ويحييني:

- البرنس وأصدقاؤك في انتظارك..

أصدقائي! من غير زيزو؟ صاحبني إلى الداخل وقابلتني رائحة بخور عطرة غيرت مزاجي، ووصلتني ضحكات صوت نسائي جعلني أتساءل من بالداخل؟ دقائق قليلة وكنت أمام البرنس وزيزو ومنى!

سلمت على البرنس ونظرت إليهما فرحًا وقد نسيت كل الإرهاق وابتسمت قائلًا:

- ما هذه المفاجأة؟!

قاطعني زيزو قائلًا:

- الفضل يرجع لك..

قالت منى:

- وللقاء أيضًا، لم تقطع الأمل أن تعيدنا لبعض..

أردفت مذهولاً..

- لقاء!

قاطعنا البرنس:

- يقول زيزو إنه ورث قطعًا أثرية نادرة.

نظرت إلى زيزو في تعجب واختفت ابتسامتي، كيف يعلن عن ذلك وهو يفكر في بيعها! عندها قدم لي محمود القهوة فحاولت أن أبدو طبيعيًا، ألا يكفيه أن هاني يعلم وبالطبع رنا زوجته، الآن البرنس ولا أعلم لمن أذاع الخبر أيضًا، ارتشفت القهوة وقلت:

- لا نعلم بعد.. لا أظنها ذات قيمة.

اندهش زيزو من إجابتي وقال:

- بالطبع أثرية..

هذا الأبله ماذا هو فاعل؟! هل يحاول بيعها للبرنس؟! في هذه الحالة ضاع أملي في الحصول على المال، نظرت إليه في غضب وقلت:

- ماذا بك؟

قال في ثقة:

- حكيم.. دعني أتولى الأمر، ألم يلفت نظرك شيء هنا؟ شيء عجيب لا يتكرر في العالم مرتين؟

نظرت له ثم نظرت إلى البرنس في تعجب وتركت القهوة وقلت:

- هل هذه فزورة؟

أمسك زيزو معصمي وقادني نحو مقتنيات البرنس عند مدخل القصر وقال:

- هاتان القطعتان النُحاسيتان.. الإبريق والمبخرة، نقوشهما تشبهان إلى حد كبير الطست والمنضدة الخاصين بجدي.. ألم تلاحظ ذلك؟!

وتذكرت من جديد هذان القطعتان رأيتهما عند حانوت النحاس في الحلم أو الغيبوبة! يبدو أن كثرة الأحداث والمسئوليات ألهتنى عن التركيز.

قاطعني زيزو:

- وافق البرنس على ترميمهما فإذا لم يحملا نفس رنك المشكاة والمنضدة والطست، نعيدهما إليه..

نظرت إلى البرنس مُرتابًا..

- وإذا حملا نفس رنك الطست والمنضدة؟ تكونا لزيزو! هذه ثقة كبيرة..

قال البرنس في هدوء:

- إذا كان الأمر يتعلق بمعرفة الأصل فأنا على أتم الاستعداد للمساعدة.. إنه تاريخ.

ربت زيزو على كتفي وأردف وهو ينظر إلى القطع الأثرية:

- سيكون أمام هاني الكثير من العمل.

***

ربيع الأول - ٧٦٢ هجريًا - ١٣٦١ ميلاديًا

هذه الشهور القليلة التي قضيتها في أحضان "طولوبية" لم تعوضها ما ضاع من العمر، أحضرت كافة أقطاب الطب من مصر والشام، ولم يقدر أحد منهم على رد القضاء، لكنها بقيت تحبني وتخاف على أسرتها حتى آخر أنفاسها، وأظنني سمعتها تهمس لي "أسامحك" في آخر لحظات حياتها، لكني لم أعلم مدى حبي لها إلا بعد رحيلها الذي زلزل كياني بعنف، لدرجة أنني لم أعد أرى زبيدة ساحرة الجمال كما كُنت أراها، وكأنني شمس انطفأت ورحلت من الكون.

وانغمست في أمور الدولة وصببت تركيزي على نهوضها وعلى أولادي، وقدم لي بعض الأمراء النصح بشأن غضب يلبغا العمري من اهتمامي بأولاد الناس، وحقيقة أنه يريد قتلي، وأنه لا يدخل الخدمة إلا لابسًا ملابس الحرب! وأنا بين عقلي الذي يصدقهم وقلبي الذي ينكر قولهم، وفي هذا اليوم المشئوم دخل يلبغا العمري مع شيخ المدرسة وقال:

- لا أعلم تحديدًا ماذا حدث! ظننت أنه زلزال في البداية بعد أن سمعت أصوات طقطقة الحجر، نظرت حولي فلم أجد شيئًا، ثم أصوات تصدع كبير، ثم ارتطام أحجار مهولة لم أسمع مثله من قبل، وحينها عم الغبار وصرخات البشر كل الاتجاهات، حدث هذا في ثوانٍ معدودة لكنهم مروا كساعات ثقيلة، بعد أن انقشع الغبار وتبدلت الصرخات بالتأوهات والبكاء من حولي، رأيت أن إحدى منارات مسجدك قد انهارت فوق رءوس الطلاب والأطفال الأيتام الذين كانوا بمكتب السبيل وبعض المارة، وهلك نحو ثلاثمائة إنسان.

هكذا صدمني يلبغا في أسى بلغ أعماق قلبي وشقه نصفين، اعتصرت قبضة يدي وضربتها على المسند الخشبي لدكة السلطنة، وقف أمامي الشيخ بهاء الدين السبكي يعتذر عن الواقعة ويقول:

أبشر فسعدك يا سلطان مصر آتي

بشيره بمقـال صـار كالمثـل

إن المنـارة لم تسقـط لمنقصـة

لكــن لســر خفي قد تبين لي

من تحتها قرئ القرآن فاستمعت

فالوجد في الحال أداها إلى الميل

لو أنزل الله قرآنـا على جبـــل

تصدعت رأسه من شدة الوجل

ظل الرجل يسرد أبيات شعره منافقًا أو مهونًا هذا الفأل السيئ، وغصة بداخلي لم تنقشع أبدًا بعدها، وتذكرت نبوءة مِسكة التي لم تخطئ أبداً، لقد أشرفت على النهاية، هكذا أشعر، نهاية حكمي أو نهاية عمري، ربما الاثنين معًا كما يحدث للسلاطين.

ذهب الشيخ وجلس يلبغا ينظر إليّ في غضب، على إثره قمت بغتة من مكاني واقتربت منه وقلت:

- انزع ثيابك..

نظر ذاهلًا وقال:

- ماذا؟! هل..

قاطعته بحدة..

- انزعها الآن..

خلع ثيابه فلم أجد ما قاله الأمراء صحيحًا فاطمئن قلبي وقُلت بصوت خافت:

- أعتذر منك، قد بلغتني أخبار كاذبة.

ثم جلست وأشرت له بالجلوس مرة أخرى، فلبس ثيابه وجلس حانقًا وقال:

- لو أنك لم تتفرغ للنهوض بأحوال أبناء الناس وتفرغت لأمور الدولة، لما وقع هذا الحادث الأليم.

وقفت غاضبًا وقائلًا:

- أنت تتجاوز الحدود، وتعلم في قرارة نفسك أنني لا أفعل إلا الصالح للبلاد..

وقف واقترب مني وعلا صوته للمرة الأولى على صوتي وصاح وهو يشير بسبابته في وجهي..

- أنت تساوي أولاد الناس بالمماليك وهذا ما لن أقبله أبدًا..

وقبل أن أعنفه تركني وخرج غاضبًا، عندها أتت زبيدة تحمل الفاكهة وتضعها أمامي، نظرت إليّ في حنو وقالت:

- دعك منه يا مولاي.. إنه يغار منك.

نظرت إليها في دهشة وقد فهمت مغزى نظراتها وكلماتها ولم أشأ الخوض فيها، داعبت لحيتي وقُمت وأنا أفكر فقلت لها:

- قولي لي يا زبيدة، هل أعتبر الأسد الشرس شريرًا لأنه يمزق الغزلان البريئة؟!

اتقد ذكاء عينيها ونظرت إلى حيث ذهب يلبغا وقالت بدهاء:

- وكيف له أن يعيش بدون أن يموّت أحدهم؟ يجب أن نتقبل نتيجة أفعالنا ولو كانت سيئة.

قامت وأعطتني تفاحًا طازجًا، قضمته وابتسمت وقد فهمتها وعقدت العزم على حماية نفسي ومملكتي.

***

الخامس والعشرون من ديسمبر ٢٠٢٠ ميلاديًا - ١٤٤٢ هجريًا

بدت في شدة الإعياء وهي تقوم من مرقدها، تستند على الحائط وتمشي بخطوات بطيئة، ثم وقفت أمام مرآة كبيرة تنظر إلى وجهها الحزين الذي نال من جماله المرض، ثم أمسكت بمكحلة أمامها، وبدأت ترسم عينيها وتسعل بشدة حتى انحنى ظهرها، فردت قامتها من جديد لتكمل زينتها ويداها ترتجفان، انتهت من زينتها وهي تقاوم لتبدو طبيعية، كانت الإضاءة خافتة ولم أتبين إلا لون ردائها الأبيض الذي حدده حزام ذهبي مزركش، أخفت بداخله شيئًا لامعاً كان أمامها، وأسدلت عليه وعلى شعرها الأسود الطويل غطاء رأسها الأخضر، ثم نظرت في المرآة مجددًا في تحدٍّ، ولمحت على خدها شامة مميزة، لم أرَها عندما رأيتها في مدرسة صرغتمش أو عندما بكت مع الدرويش، استندت على الحائط مرة أخرى وجلست على كرسي كبير فخم بجوار سريرها، نظرت إلى منضدة نحاسية صغيرة عليها مصحف كبير وبجانبه لفافة ورقية كبيرة، أمسكت بها وفردتها ثم ابتسمت في وهن، لفتها مرة أخرى وأعادتها على المنضدة بسرعة عندما دخلت امرأة تحمل في يدها طبقًا وتقول:

- الجبن المقلي لعشاء مولاتي..

كانت المرأة بيضاء شعرها ذهبي مموج طويل، جمالها يأخذ القلب لكن نظراتها تحمل الكثير من الغل، وضعت الطبق أمام ذات الشامة، ثم نظرت لها في شماتة شبه مُستترة وقالت:

- أرى مولاتي قد أنهكها المرض..

نظرت ذات الشامة لها في غيظ، فقالت ذات الشعر الذهبي وقد عقدت ذراعيها..

- أعلم أنكِ تحبين الجبن المقلي.. لكن هل يستطيع جسدك الهزيل هضمه؟

ثم أطلقت ضحكة رقيعة، وضعت ذات الشامة يدها اليسرى داخل حزامها وقامت بغتة فأمسكت بالشعر الذهبي من الخلف بيدها اليمنى، فأصبحت تلك المرأة أمامها في ثوانٍ وأمامهما لفافة الورق على المنضدة، ورأيت خنجرًا على رقبة ذات الشعر الذهبي وهي تنظر هلعة وقد هالتها المفاجأة، قالت ذات الشامة:

- الآن سأجعل جسدك كله لا يستطيع الحراك.. لن تتمكني منه ولن تتمكني من عائلتي وأنا على قيد الحياة حتى ولو كنت مريضة.

زامت ذات الشعر الذهبي وقالت في تحدٍّ وسخرية:

- فات الأوان يا مولاتي.. حتى لو دُفنت حية.. الأمر برمته انعقد..

ثم لفت يدها إلى الخلف وجذبت لفافة الورق على المنضدة النحاسية وجعلتها أمامها وقالت في صوت غليظ ملؤه الحقد وهي تمزق اللفافة إلى نصفين:

- وهذه العائلة لن تدوم كما تأملين..

ضغطت ذات الشامة بالخنجر على رقبتها وبدأت تنزف دمًا فصرخت الأخرى صرخة قوية، دخل على إثرها رجل يبدو عليه الثراء من فخامة ملبسه المزركش، على رأسه عمامة سوداء كبيرة بها جوهرة كبيرة، وشرع يخلص ذات الشعر الذهبي من قبضتها وسط صراخها، فسقط الخنجر من يد ذات الشامة، وسقطت هي بعده بين يديه وهي تردد في وهن وتشير على ذات الشعر الذهبي وهي تمسك برقبتها والدماء تسيل وتهرول أمامها:

- خائنة.. خائنة..

حمل الرجل ذات الشامة ووضعها على السرير وجلس بجانبها يحتضنها، همست في أذنه ثم نظرت إليه بحب وبعد برهة صعدت أنفاسها بين يديه، فاحتضنها وسمعت صوت بكائه عاليًا يرجّ المكان.

ثم سمعت صوت دقات لا تنقطع، دقات كثيرة وقوية لا أعلم مصدرها، بينما الرجل لا يبالي بالدقات ولا بكل من تجمع حوله من أناس لم أتبين لهم ملامح أو أوصافًا، كانوا كالظلال، ظل يحتضنها ويبكي وصوت الدقات يعلو، فتحت عيني فإذا بي في غرفة نومي وهذه الدقات هي طرق باب الشقة، وفجأة سمعت صوت زجاج ينكسر والباب يُفتح!

دخل زيزو وسعيد الغرفة وهما في شدة القلق وأنا في ذهول فقال زيزو:

- لقاء.. إنه هنا.. حكيم.. ماذا بك؟ هل أنت بخير؟

دخلت لقاء وبدت عليها آثار بكاء لتعانقني وهي تقول:

- الحمد لله أنك بخير.. الحمد لله.. لماذا أغلقت الترباس من الداخل؟

نظرت إليهم كأنني فقدت النطق وربت على ظهرها وأنا أستفيق وأحاول استعادة وعيي وقلت:

- لكنني لم أغلقه! كيف حدث ذلك؟

زفر زيزو وهو يفتح البلكونة وقال:

- يبدو أنك غبت عن الوعي مرة أخرى لكن هذه المرة كُنت بمفردك ولم تعلم عنك شيئًا.

أردفت لقاء:

- أربع وعشرون ساعة وهاتفك مغلق!

قال سعيد:

- لقد طرقت الباب أكثر من مرة حينما طلبت مني الأستاذة، لكن الشقة مظلمة وأنت لا تجيب فتأكدت أنك لست هنا.. حصل خير..

ثم مال على زيزو وقال بصوت يظنه خافتا:

- هذه غيبوبة سكر بلا شك.

ثم علا بصوته وقال:

- أستأذن أنا.. ألف سلامة يا باشا.

خرج سعيد ورفعت الغطاء من فوقي ونزلت من السرير وسط إلحاح من لقاء وزيزو أن أبقى مكاني وأرتاح، نظرت إلى زيزو وقلت:

- أين هاني؟

- سيأتي بعد قليل..

- قل له إننا سنقابله في قصر البرنس بعد قليل.. أما الآن اسندني لأفتح شقة جدتي..

قال بحدة:

- حكيم.. أنت في حاجة إلى الراحة..

التفتُ إليه ونظرت في عينيه قائلًا:

- أنت تملك نصف شجرة العائلة الممزقة عند البرنس.. إنها لعائلتك.

رمقني زيزو بتعجب، بعدها بقليل دخلنا شقة جدتي وكنت أعلم وجهتي بين الأوراق الملقاة في الصناديق القديمة بجانب المنضدة النحاسية وأخذنا نبحث عن نصف اللفافة الورقية.

***

ليلة التاسع من جمادى الآخرة ٧٦٢ هجريًا - ١٣٦١ ميلاديًا

تعبت من الرجل الذي أحاول أن أكونه، أحب أن يتذكرني الناس بالحب لا بالدم، لذلك أبرهن على حبي هذا بتولية أولاد الناس المناصب السنية، وهذا ما يثير غضب الأمراء وحنقهم الذي لن يهدأ.

إن أزال المرء كل ما حمله من معتقدات في الحياة فسيكتشف أنه فارغ ومعقد بذات الوقت، وأنه يحتوي على كثير من الاحتمالات أيضًا، وماذا لو خلقك الله "ابن ناس" يا يلبغا؟ هل كنت ستمقتهم لهذا الحد العجيب؟ لكن شيء ما مات بداخلي ولم يعد بإمكاني التراجع، لذلك قررت التخلص من يلبغا الخائن، يريد أن يأخذ الحكم.. وزبيدة، نعم.. أصدق ما قالته زبيدة عنه فقد رأيته ينظر إليها وهو يغالب شهوته.

وقفت أمام المرآة أتفحص هيئتي التي بدأت أعجب بها، بعد أن استدار وجهي الأبيض اللون واكتملت لحيتي الشقراء، عيناي عسليتا اللون المائلتان للون الأخضر بهما بريق وشغف، لا زلت نحيفًا لكني قامتي معتدلة الطول، وهذه النقاط البنية التي تملأ وجهي بدأت أستسيغها.

ودعت زبيدة وذهبت إلى الصيد ناحية الجيزة برفقة بعض الأمراء والمماليك ويلبغا العمري، سأقبض عليه وأنال منه قبل أن ينال مني، انقضى اليوم بطيئًا بين صراعات النفوس الخفية، التي أفصحت عنها نظرات عيوننا اليوم، فلما ولّى النهار أخيرًا أردت أن أكبس عليه في مخيمه، ركبت الفرس وصاحبني بعض المماليك تحت الليل، مشينا في ترقب حتى وصلنا إلى خيمته، أشرت إليهم بالهجوم، لكنهم دخلوا وتوقفوا ونظروا إليّ في ذهول، دخلت الخيمة فإذا بها خاوية، لا يلبغا ولا مماليكه! أردفت:

- إنه أمر مُريب! أين ذهبوا؟

توجست من مخاوفي لكنني عزمت على الرجوع إلى خيمتي الآن، وبينما أنا عائد إلى مكاني، فإذا بالمماليك تظهر وتحوطنا من كافة الاتجاهات وتجعلنا في المنتصف، إنه فخ يلبغا! أحدهم وشى بي! ثم ظهر يلبغا على فرسه ينظر إليّ مُبتسمًا وبدأت الحرب على الفور عند ظهور المماليك السلطانية والتحمت بمماليكه.

وقفت في ذهول تام أراقب انكسار مماليكي واحدًا تلو الآخر، عندها انسحبت في هدوء فلابد من العودة للقلعة الآن، لابد من إعداد الخيول وتزويد المماليك، أشرت إلى الأمراء المقربين و"أيدمر الدوادار الكبير" بمصاحبتي.

انطلقت الجياد نحو القلعة في ظلمة الليل، كان بصري زائغًا ودموعي تغلبني وأنا أمتطي صهوة جوادي، لابد أن أنتصر، دخلنا القلعة، وذهبت على الفور إلى الإصطبل فلم أجد الخيول! اتجهت معهما إلى القصر مضطربًا لا أعلم ماذا أفعل، جلست وأنا ألملم شتات ذهني وأحاول التفكير فقال الأمير تمان:

- لن يهدأ يلبغا حتى يقضي علينا.. ما بيننا وبينه هو هذا الليل.

قال أيدمر:

- لن يحدث، سأجهز عدة وافرة للأميرين "ناصر الدين محمد بن المحسني" و"قشتمر المنصوري" لملاقاته.

ذهب أيدمر في سرعة ولاحقه تمان وتركا عقلي عاجزًا عن العمل، حينها دخلت زبيدة وشعرت بشيء في عينيها لم أره من قبل، ثم ضحكت فرحة، كأنها شامتة وقالت:

- قلت لك يا مولاي يجب أن نتقبل نتيجة أفعالنا ولو كانت سيئة، لكن ذكاءك خانك ولم تنتبه.

وقفت فاغرًا فاهي فزعًا وصحت:

- أنتِ! بعد كل هذا الحب؟! لماذا؟!

تغيرت ملامحها إلى شيطان وأجابت في صوت أجش:

- نعم، أنا التي أرسلت الطواشي "بشير الجمدار" إلى يلبغا يخبره بخطتك.

ساد الصمت بيننا وأنا أشعر أنني ضئيل جدًا لتجعلني هذه الجارية كرة تضربها بعصاها! اقتربت مني ورأيت في عينيها الغل وقالت في نبرة جنونية:

- أعطيتك عمري وشبابي، أحببتك بقوة، لم أشأ أن أبقى جارية في البلاط السلطاني فحسب، وأنت.. ماذا فعلت؟

قلت وقد مزقني قلبي المصدوم:

- لقد أحببتك أيضًا وبقوة وفضّلتك على كل الجواري وكل زوجاتي حتى طولوبية!

- حتى الآن تستثنيها بـ"حتى"! تذكر أنني رأيتك قبلها وأحببتك قبلها، لكنك فضّلتها حتى بعد موتها، ولم تكرمني بالزواج منك..

ثم عادت تبتسم وقالت في حقد:

- الآن.. لن تدوم عائلة قلاوون في الحكم.

غادرت وتعلقت عيناي بها وبأيام حب مضت، وشعرت بالحسرة والانكسار، وكنت أقنع نفسي أن ما رأيته منها مجرد وهم تخيلته! وبينما أنا شارد أفقت من شرودي وقد تعلق بصري بكتاب الله على المنضدة النحاسية بجانبي، وتذكرت أبي وهو يجلس في مكاني ويقرأ القرآن من نفس المصحف الشريف على نفس المنضدة، وفتحته لأقرأ: "اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة مُعرضون" فتذكرت نبؤة مِسكة وفبكيت حتى ابتلت لحيتي!

***

الأول من يناير ٢٠٢١ ميلاديًا - ١٤٤٢ هجريًا

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ)

[النُّور: 35]

الآية القرآنية هي كامل مضمون الزخارف الكتابية باللون الأزرق الداكن على المِشكاة، وقد تطابقت الأشياء كلها بعد ترميمها، وحملت جميعها نفس الرنك السلطاني، رنك المِشكاة الزجاجية والطست النحاسي والمنضدة التي اكتشفنا أنها من النحاس الأصفر المُكفت بالفضة، وتطابق الإرث مع المبخرة والإبريق عند البرنس فخر الدين، وتطابقت نصف شجرة العائلة التي وجدتها مع زيزو في الكرتونة المُهملة مع نصف شجرة العائلة عند البرنس فخر الدين أيضًا، واكتشفنا بعد ترميمها أنها كانت للماليك البحرية، وتحديدًا عائلة "السلطان الناصر محمد بن قلاوون"، وكان الرنك المُنتظر "الناصر ناصر الدنيا والدين حسن"، هذا الرنك للسلطان "الناصر بدر الدين أبو المعالي الحسن بن محمد بن قلاوون الألفي"!

عندما قرر زيزو عدم بيع إرثه سرد لأبيه كل شيء، والمفاجأة التي لم أحسب لها حسابًا قط، أنه لم يكن لعائلته! بل لعائلتي! قال أبي: إن ما رأيته في طفولتي لم يكن إلا رد ممتلكاتنا مرة أخرى، وحكى أنه لما قرر جدي ترميم البيت خاف على تلف الإرث فأعطاه لجد زيزو في باب البحر ليحفظه لحين الانتهاء من الترميم، وقد أعاده لجدتي بعد أن انتقل جدي إلى رحاب الله، وصادف الأمر ترميم بيتهم في باب البحر، قال أبي: إننا لم نناقش أمر هذه الأشياء أبدًا من قبل وكنا نحسبها خردة! المفاجأة الأكبر أن زيزو قد استلم شجرة عائلته بعد تقصٍّ وبحث كبير ورجع أصله إلى المماليك البحرية! وتحديدًا عائلة الأمير صرغتمش! وكأن بتلك الحقيقة قد أصبح أعداء الأمس أصدقاء اليوم!

أما الحرزان أو الحجابان فلم يتوصل هاني أو رنا إلى شيء قاطع، إلا أنني في قرارة نفسي أشعر أنهما دليل آخر، وصلة بيني وبين أسلافي، وأنا لا أصدق ما توصلنا إليه حتى الآن، فلم أتقصَّ شيئًا، إنما دفعتني الظروف والعوالم العجيبة التي دخلتُ فيها رغمًا عني لكشف الأصل، كانت خيرًا حسبته شرًا، ربما كان بحثي وراء الحجر الدليل لقلبي ولم أدرِ، حقًّا إننا بين ظاهر وباطن وبين أشهاد وغيبيات.

لم تصدق لقاء في بادئ الأمر لكنها بدت سعيدة، حتى أبي كان في ذهول، أما ابنتاي "آية" و"نور" لم تستوعبا كلماتي عن أصلهما، كان الأمر أشبه إليهما بالقصص الخيالية، لكنني علمت الآن ممن ورثت هذه اللحية الشقراء التي تميزتُ بها، والنمش الكثير العالق على وجهي، وهذه العيون العسلية اللون، ولم أعد أخاف من رؤية الأجداد، هل كُنت أرى الست

مِسكة الناصرية مُربية السلطان؟ أم طولوبية زوجته؟ لقد كُتب اسم "ست مِسكة" في شجرة العائلة لشدة إخلاصها وولائها لعائلة قلاوون، ربما كانت هي السيدة التي دقت الهون وصنعت الحرزين لحماية حبيبها "قماري"، من يدرى؟

اليوم في فجر مولدي الواحد والثلاثين وقفت في ممر العمليات الجراحية داخل مستشفى "جوهر" للولادة في مصر الجديدة أنتظر ولادة لقاء، وبالرغم من تواجد أهلي جميعًا وأصدقائي حولي، إلا أنني لا أحتمل هذا الموقف للمرة الثالثة غير المخططة، جاء المولود ولدًا، هل سأستطيع أن أوفي حقك يا بني؟ يولد ابني في يوم مولدي بعد كل هذه العواصف، والقرارات، والانفصال والعودة، والإرهاق والسكينة.

تواصل أبي مع وزارة الآثار لتسليمهم المِشكاة والمنضدة بعد أن شرح لهم كل الأشياء المنطقية، ووعدوه بأن تُعرض في "متحف الفن الإسلامي" لنُدرتها، لكنني أصريت على الاحتفاظ بباقي المقتنيات التي لن أفرط فيها أبدًا، سأدعها في إرثي مع البيت العتيق في "قلعة الكبش" أو "جبل يشكر" لنسلي من بعدي.

كان زيزو قد حدد اليوم لعقد قرانه على حبيبته "منى كيدا" لكنه ألغى الميعاد لضمان حضوري، لكن لقاء أصرت على إقامة الحفل على ميعاده بعد صلاة العصر، لكنها غيرت مكانه ليكون في "مسجد السلطان حسن"، أرادت أن يكون أول مكان يدخل إليه ابننا هو بناء جده، ورغم خوفي على صحتها إلا أنني وافقتها، بعد أن رأيت الحاج حبيبة وزوجة وأم شغوف بحب التاريخ من جديد.

بعد أن صلينا العصر في جماعة داخل مسجد جدي "قماري"، وقفت لأصلي ركعتي شكر بالإيوان القبلي والرئيسي، واستقامت نفسي في السجود، وطارت روحي خارج الحدود، ثم دخلت إلى الضريح وَجِلًا هذه المرة، بناه جدي ليدفن به لكن لم يعثروا على جثمانه إلى الآن! وقد دُفن به أولاده إسماعيل وإسكندر وأحمد، وشعرت بأنفاسهم جميعًا حولي، وسبحت في عالم آخر أرقى وأطهر، انتهيت واستدرت في بطء نحو الفسقية فوجدت الجميع سعيدًا.

ذهبت إلى أبي "أحمد محمد ناصر حسن بدر الدين" الذي وقف في صحن المسجد ينظر في زهو وفخر إلى دُرة العمارة الإسلامية بالشرق، أكثر آثار القاهرة تناسقًا وانسجامًا وقد اغرورقت عيناه بشكل مؤثر وقال:

- حقًا.. لا شيء يبقى ولا شيء يفنى.

ابتسمت قائلًا:

- الآن فهمت المغزى يا أبي.

كانت أمي وأخواتي ينظرن للبناء ولنا في ذهول تام، جلست لقاء على كرسي بالقرب من دكة المُبلغ تحمل "قماري" مُبتسمة راضية، عائلة عبد العزيز العريس أو زيزو كانوا في شدة فرحهم بقراره الذي جاء في وقت مناسب له، أما هاني يحمل ابنه بجانبي ورنا تتابع ترتيبات الحفل وتنسق الورود مع عبد الرحمن شقيق منى وزوجته إلى أن يحضر العروسان، دخل سعيد والعم سيد ومن بعدهم البرنس فخر الدين ومحمود، كانت السعادة تعم المكان من حولنا وكأن الأرواح كلها قد تلاقت هنا، دخل زيزو ومنى أخيرًا، وضجت العائلات بالزغاريد داخل الصحن، بينما جلس المأذون بالإيوان القبلي والرئيسي، وبدأت مراسم الزواج وكُنت شاهدًا على العقد مع شقيق العروس، وشعرت بسلام جارف يجتاحني، فلم أتخيل سعادة في الدنيا مثل التي أشعر بها الآن، نظريًا لم تُحل مشاكلي المادية إلى الآن، لكني أنظر إلى السماء من داخل الصحن، إلى مركز الكون، إلى الله وأنا على يقين بأنه سيكون بجانبي أينما ذهبت، كنت قد ظننت أنني ملكت المكان والزمان بأحلامي، ولم أدرك أنني مجرد عابر في هذه الدنيا.. وأنني بعبوري هذا قد بلغت مقصدي.

نظرت إلى الإيوان الشاهق وأنا أتذكر كل ما قرأته ودرسته عن "السلطان حسن" أو كما أحب أن أعرفه "قماري"، وأندهش من عجزنا عن معرفة طريقة موته وتفاصيل مشهد النهاية الذي طمسته صفحات التاريخ حتى وقتنا هذا، وتساءلت إذا ما كان السلطان يعي كل ما أحيك من حوله في حياته، وكيف أنه الوحيد الذي يعرف كيف قرر كارهوه أن يبعثوه لربه.. قماري لم يكن ملاكًا ولا شيطانًا، وإنما كان إنسانًا يبحث عن الحب، ويرتكب الكثير من الأخطاء في طريقه، وأدركت أن الطريقة الوحيدة للوصول هي أن أتصل بالخير بداخلي فأفعله والشر لأحاول تطويقه، لأصل في سلام، لا أريد أن أصل مرتبكًا في نهاية الطريق، لا أريد للخير والشر بداخلي أن يتشابكا، كان لابد أن أمرّ بكل هذه الصعاب والمشاكل لأصبح أنا، أنا هذا المزيج الحائر الذي يبهرني أحيانًا ولا يروقني أحيانًا أخرى، لكنه مزيج حقيقي وصادق.

***

ليلة الثاني عشر من جمادى الآخرة - ٧٦٢ هجريًا - ١٣٦١ ميلاديًا

لم يبقَ في روحي جزء سليم، تهالكت من وطأة الخيانة، جاءتني الضربة من أحب الناس إلى قلبي وأكثرهم أمانًا لي، علمت أنني صديقي الوحيد، حين بزغ نور الصباح في الأفق وأنا لا زلت في قصري بالقلعة مكسوزًا بكل الطرق، نظرت حولي إلى القصر وتذكرت جدي وأبي، يوم مبايعتي الأولى بالسلطنة وانخداعي بالفلك، وكل ما حظيت به من نعيم، للحظات تجسدت أمامي الست مِسكة وجميع إخوتي، وطولوبية المخلصة الحنون، وزوجاتي ومحظياتي، والمماليك السلطانية والجواري، هذا الحجر الذي تشكل على هيئة قلعة مهيبة شهد على أزمنة كثيرة، ثم بثَّ مُرتعبًا على أولادي، وما يزيدني همًا على همي هو نبوءة مِسكة والدرويش عن يوم نهايتي.. يا له من أمر في غاية القسوة!! لكنني أعلم أنه لا أحد يستطيع الفرار من قدره.

دخل أيدمر عليه الهمُّ، مُطأطئًا الرأس وقال:

- لقد هُزم الأميران "ناصر الدين محمد بن المحسني" و"قشتمر المنصوري"، حتى إن الأمير "أسنبغا الأبو بكري" لاقاه مع مماليكه في موقعة مهولة فانهزم وجُرح.

حينها سمعت جلبة بالخارج، أسرعت إلى نافذة الغرفة فإذا يلبغا ومماليكه يقفون تحت القلعة في ملابس الحرب عند سبيل المؤمنين بالرملة، نظرت إلى أيدمر بروح مُهشمة فقال:

- أرى أن نتخفَّى في زي الغربان ونقصد بلاد الشام.

كان تفكيري قد شُل بالكامل ولم أناقشه، ها أنا أذوق الذل بعد العز، وأهرب دون رؤية أولادي وبناتي، ودون حتى معرفة مصيرهم بعدي، أنفذ نصائح أمير مخلص لسلطانه الهارب المنكسر، حينها رأيت صرغتمش وكل من رسمت بحبسه أو موته أمامي، وأنا في حالة بين الندم والرهبة، حالة لم أختبرها من قبل.

بعد برهة قليلة كُنا مُستعدين نتسلل خارج القلعة، وتذكرت كيف كُنت أتسلل بشموخ لتفقد أحوال الرعية، وشعرت أنني تائه في الدنيا، كريشة في عاصفة تتقاذفني الأفكار والأوهام، وأنني لم أعد في الدنيا، كأنني أراها من علٍ ولا أعيش فيها، أمتطي حصاني وأهيم على وجهي في الطريق، كان أيدمر يتكلم ولا أسمعه ولا أجيبه، أصبحت في عالم آخر.

اشتدت الشمس لكنني أمعنت النظر أمامي فرأيت طريق بلبيس، وفجأة رأيت جماعة من الغربان تقبض علينا! وسمعتهم يقولون إنهم سيرسلوننا إلى "بيت الأزكشي"، وبعد بُرهة يسيرة كنا في هذا البيت، وسمعتهم يرسلون في طلب يلبغا! لم أبالِ، إنهم ينفذون قضاء

الله.

بعد وقت قصير كانت أصوات الخيول بالخارج، ورأيت يلبغا أمامي يبتسم ابتسامة واسعة، وبدأنا رحلة العودة من حيث أتينا، ورأيت هذه الدنيا فارغة من كل شيء، وبدأت أتذكر أشياء صنعت "قماري" الطفل البريء، و"السلطان حسن" الإنسان الذي حاول كثيرًا وأحب وخُدع، صراخي عند رحيل أبي، واضطرابي لرحيل إخوتي واحدًا تلو الآخر، ووحدتي عند رحيل مِسكة، أول مرة رأيت فيها طولوبية، ووداعي لها نادمًا، نبوءة مِسكة، إنذار الدرويش باقتراب الغدر، وزبيدة التي أغرمت بها وآمنت لها، أول مرة أرى فيها يلبغا عند دكة الرقيق وإكرامي له وغدره بي! ما يؤلمني الآن أنني أعلم أن يلبغا لن يكرمني في نومتي الأخيرة مثلما فعلت أنا مع صرغتمش، هذا المملوك إذا تمكن من قتلي لن يدفن جثتي في ضريحي الذي اخترته.

وفجأة رأيت طيف مِسكة يأتي من بعيد، بعباءتها الناصعة البياض، وعلي رأسها هذا التاج المرصع باللؤلؤ، اقتربت وابتسمت ومشت بجانبي، نظرت لها فرحًا، ونظر لي يلبغا في ريبة، إلى أن وصلنا إلى داره واختفت مِسكة! أودعونا في غرفة ضيقة بالديار، لم نتحدث أبدًا، وكأنهم قطعوا ألسنتنا وألقوها بعيدًا.

جلسنا صامتين إلى أن زحف الليل من جديد، نظرت إلى أيدمر في امتنان وقلت:

- لو أنني كُنت أذكى قليلًا لكُنت أنت في منزلة يلبغا السابقة يا أيدمر، لقد نسيت قول مِسكة عنك، فلم يبق معي حتى النهاية إلا نفسي وأنت، وأنا أشكرك على إخلاصك الذي لن أستطيع مكافأتك عليه مع الأسف.

ابتسم في مرارة وحملت نظراته إشفاقًا كبيرًا وودًا وقال:

- لا تلُم نفسك يا مولاي، إن التاريخ مُتقلب المزاج، ولا ضمان لشيء على هذه الأرض.

لم أجبه فنظر إلى فوق وقال:

- تخيل أننا نعيش في السماء.. لكان الأمر برمته مُختلفًا.

ضحكت ساخرًا لخياله وتذكرت أحلامي البريئة لبُرهة من الوقت فصلتني عن الواقع، وفجأة أعادني إلى واقعي المرير صوت صرير الباب، ورأيت أحد الجنود يُمسك بذراعه ويقوده لخارج الغرفة فقال أيدمر:

- إلى أين؟

أجابه الحارس بنبرة باردة:

- إلى ثغر الإسكندرية..

خرج أيدمر وعيناه تودعاني بدموع مُتحجرة دون كلمات، ودخل يلبغا ينظر إليّ في قوة وقال في تحدٍّ وفخر:

- سأقود مصير البلاد بقوة.. تعلم لماذا؟ لأني أستحق، لقد ملكت القلعة بسهولة.

أكملت بثبات كأنني لم أسمعه:

- أخطأت حساباتك هذه المرة يا صديقي.. المملوك.

نظر إليّ في سخط لأنه يعلم مقصدي، وأردت أن أفسد عليه قوته فقلت مُوقنًا:

- ستدفع الثمن عمرك..

ابتسم يلبغا ساخرًا وقال:

- وكيف ستعلم وأنت لن تشهد شيئًا بعد الآن سيدي قماري؟!

أردفت في ثبات:

- ستنال نفس المصير.. من قتل يُقتل ولو بعد حين.

تجاهل يلبغا كلماتي وضحك بصوت عالٍ قائلًا:

- هل تفضل الموت خنقًا أم ذبحًا؟! أم ترى نُجربه غرقًا في النيل؟!

حينها لمحت طيف مِسكة تُمسك بيد طولوبية من العدم وعليهما نفس الثياب البيضاء، وقفتا تبتسمان لي، غمرتني السكينة واتسعت ابتسامتي لهما حين أدركت أن النبوءة ستتحقق، وبحذافيرها، بينما بدا يلبغا حائرًا من أمري يقاوم اضطرابه فقال في صرامة:

- لا شيء يبقى يا مولاي..

تعلقت نظراتي بهما وأنا أشعر براحة جعلت اضطراب يلبغا يحتد، ظل ينظر خلفه في توجس، فابتسمت في ثقة قائلًا:

- ولا شيء يفنى أيضًا..

***

تمت

لا شيء يبقى ولا شيء يفنى

وأنا لا أفهم هذا التضاد!

إلى

أمي وأبي..

أحاول أن أتعلم من فيض التسامح والحب والكرم الذي لا ينقطع منكما..

لعلّي أحافظ على توازني في الحياة.

إلى

الرائع جمال الغيطاني

سنلتقي يومًا ما.. سلام لروحك.

إلى

Roman Bunka

أوتار عزفك الملهمة آلمتني وأسعدتني

وجعلتني لا أكف عن الكتابة

المراجع:

- بدائع الزهور في وقائع الدهور - محمد بن أحمد بن إياس الحنفي.

- الخطط المقريزية - تقي الدين أحمد بن علي المقريزي.

- مساجد مصر وأولياؤها الصالحون - وزارة الأوقاف - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - الدكتورة سعاد ماهر محمد.

- تجليات مصرية - الأستاذ الكاتب والروائي جمال الغيطاني.

(25) السلطان المظفر حاجي هو ابن السلطان الناصر محمد بن قلاوون.

(24) جمدار وهو لقب مملوكي ومهمتة الاعتناء بملابس السلطان.. من أشهر سلاطين كانوا من الجمدارية قانصوه الغوري

(23) اختار قماري اسم حسن برغبته الخالصة عند مبايعته الأولى للبلاد.

(22) المقرنصات: زخارف معمارية إسلامية ثنائية وثلاثية الأبعاد.

(21) الخانقاه: هو المكان الذى ينقطع فيه المتصوف للعبادة.

(20) البيمارستان: المشفى.

(19) كعب الغزال: متعارف عليها انها أكلة سد الحنك.

(18) هو الأمير سيف الدين طاز بن قطغاج، أحد أمراء السلطان الناصر محمد بن قلاوون وهو من الأمراء البارزين فى عصر دولة المماليك البحرية.

(17) شخص من الأراذل تقرب من السلطان وعُين من رُسل الديوان.

(16) المكاس: جامع الضرائب الذى يتقاضى الرشوة خلال عمله

(15) التمباك: التبغ.

(14) الحانوت: المحل

(13) دور الحرم: المكان المخصص للحريم

(12) الحجر الأبلق: صفوف أفقية من الحجارة تتناوب فيها الألوان بشكل مرتب مثل الأسود والأبيض أو الأحمر والأبيض

(11) ثغر: سجن.

(10) الخبايص: نوع من الحلوى وهو عجين محشو باللوز.

(9) الدوادار: لقب: الدواة لفظ عربي ودار لفظ فارسي ومعناه حامل دواة الحبر للسلطان أو الأمير

(8) أنشأها نظام الدين اسحق بن عاصم القرشى الأصفهانى خلال العهد المملوكى البحرى وتقع فى شارع باب الوداع بمنطقة الحطابة بالقلعة

(7) القاهرية: أشهر حلويات العصر المملوكى .

(6) لعبة العصا والكرة: هى لعبة البولو حاليا وهى لعبة الأمراء والسلاطين منذ القدم.

(5) شاد العمائر: المهندس الذى يصمم رسومات المبانى ويشرف بنفسه على البناء والتشييد والزخرفة الى أن يكتمل المشروع.

(4) أبناء الناس: مصطلح للتمييز يطلق على أبناء المماليك الذين ولدوا على أرض مصر ولا يُعرف نسبهم نظراً لأن المماليك كان يتم شرائهم من تجار العبيد ولم يكن أحد يعرف نسبهم.

(3) مجموعة من المماليك نشأو عند سيد واحد، والخشداشية من أقوى الروابط عند المماليك كافة، ويرجع هذا إلى قلة الروابط فيما بينهم، لأنهم كانوا يُجلبون من مختلف البلدان والأسواق.

(2) المساحة الصغيرة المربعة أو المستطيلة التى تلى باب الدخول.

(1) عمال الرخام.

(0) رأس نوبة: رئيس الوزارة اليوم.